العدد ٣٦٠ السنة الحادية والثلاثون نوفمبر ١٩٨٨

العربي

مجلة ثقافية مصورة تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

ص.ب : ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 ـ الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ ـ ٢٤٦٨٢٤٢ ـ ٢٤٢٧١٤١
برقيًا: "العربي" الكويت ـ تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

Issue No. 360 NOV. 1988, P. O. Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic Magazine in Colour Published by : Ministry Of Information - State Of Kuwait.

يتفق عليها مع الإدارة ـ قسم الإعلانات

ترسل الطلبات الى : قسم الاشتراكات ـ المكتب الفني
وزارة الاعلام ـ ص.ب : ١٩٣ ـ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقًا لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

الكويت ٢٥٠ فلسًا	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلسًا	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهمًا
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلسًا	قطر ٥ ريالات	أوروبا دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشًا	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكًا
السودان ٢٠ قرشًا	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران


العربي
ربيع الاول ١٤٠٩ هـ - نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٨ م
تايلند..
أحرار..
للبيع..!

محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :

أدب وفنون :



■ الكوكايين شمبانيا المخدرات ص ٤٠



منتدى العربي :

تربية وعلم نفس :



تاريخ وتراث واشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

بيع الأطفال أصبح تجارة رائجة في بلد يتاجر في كل شيء .. حتى الانسان .. رغم جهود حكومة تايلاند لوقفها ..

[طالع الاستطلاع ص ١٣٢]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

بين رحلتين

خلال ثلاثة أشهر فقط قامت الكويت بتحرك دولي واسع ، كان مظهره رحلتين رسميتين للقيادة السياسية الكويتية ، رحلة الشيخ سعد العبدالله الصباح ولي العهد رئيس مجلس الوزراء إلى واشنطن ، وقد كانت سابقة في الزمن ، وكانت رحلة عمل هدفها الرئيسي الشأن الكويتي والعربي ، وعندما التقى فيها رجل السياسة الكويتي الواسع الإدراك بالقيادات السياسية الامريكية أظهرت المحادثات المتعددة قدرة الكويت المستقلة على الإبحار في خضم السياسة الاقليمية المتلاطمة آنذاك ، وأكدت على الثوابت المحلية والعربية والدولية .

وكان لتلك الرحلة صداها ونتائجها ، ليس كسبا للكويت جغرافيا فقط ، بل كسب لكويت التاريخ التي ظلت ـ ومازالت ـ مستقلة في اتخاذ قرارات عظيمة الشأن بعيدة النظر . وكان لأهل السياسة في واشنطن أن يروا ويسمعوا ثم يقتنعوا بأن بلدا كالكويت كانت ـ ومازالت ـ بلاد مبادىء في الداخل والخارج .

وكانت الزيارة الثانية رحلة ميمونة قام بها أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح إلى مقر الامم المتحدة ، وقد تحدث فيها إلى أعضائها الذين يمثلون كل البشرية باسم المسلمين جميعا ، كرئيس لمنظمة المؤتمر الإسلامي . تحدث إليهم باسم الحق والعدل ، ووضع النقاط على الحروف في ثماني قضايا رئيسية تهم العرب والمسلمين ، والعالم أجمع ، وهي مشكلات العالم الثالث الاقتصادية والاجتماعية ، وحقوق الانسان ، والحرب العراقية الايرانية وذيولها ، والانتفاضة الفلسطينية ، بل القضية الفلسطينية برمتها ، ثم لبنان ، وأفغانستان ، والوفاق الافريقي ، ثم التفرقة العنصرية ، وهذه قضايا يشغل بها عصرنا بأكمله .

وفي عالم يسوده الحوار والانفراج ، وبشر تتهددهم الحروب والمجاعات والسيول ، يرتفع صوت الكويت ـ كما كان دائما ـ داعيا إلى الحكمة والعدل ، مؤمنا كما قال سمو أميرها ، بالوحدة الانسانية الكبرى وبحقوق الانسان لأنه محور التقدم وغايته .

بقي أن نذكر أن الرحلتين قد تمتا على متن الطائرة (الجابرية) التي تعرضت للارهاب الأسود من قبل ، علامة ومغزى عميقان للمواجهة بين العدالة والأمن والأمان ، وبين التيار المضاد لحركة التاريخ والسلم .

وإنه لموقف لا مساومة فيه ، ولا تنازل عنه .

وتبقى الرحلتان من الرحلات الميمونة التاريخية المهمة في مسيرة الكويت الصاعدة نحو تحقيق تقدمها ورفاهة شعبها ، بهمم الرجال المخلصين الدءوبين على فعل الخير وتسجيل دروس القدوة والفخار . □

« المحرر »

حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

تعلّم كيف تفاوض !

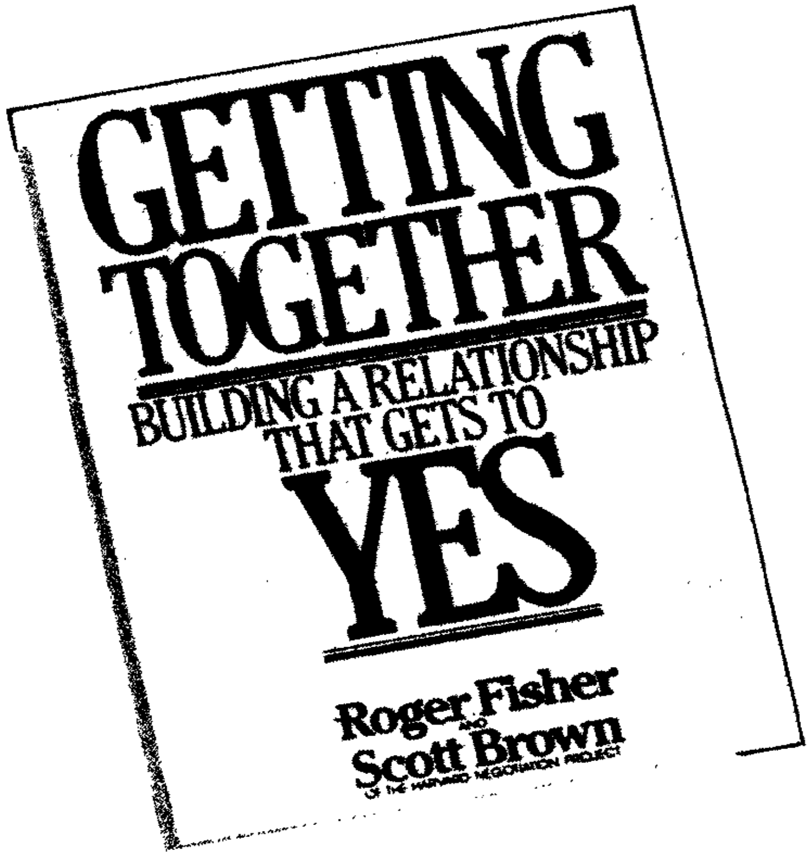
يروى أن « محمد علي » ، والي مصر الشهير ، قد أمر بترجمة جملة من الكتب إلى العربية ، منها كتاب ميكافيلي الشهير «الأمير» (صدر ١٥١٣م) الذي يعالج فيه حيل الحكم والسياسة . وتقول الرواية : إنه بعد قراءة بعض فصوله المترجمة أمر محمد علي بوقف الترجمة ، لماذا ؟

لأنه على حد تعبيره ـ حسب ما جاء في الرواية ـ يعرف من الحيل أكثر مما يعرف هذا الأمير الأوربي !

لكن ظل « كتاب الأمير » يلاقي قبولاً لدى قراء كثيرين على مدى العصور ، خاصة من يهتم منهم بالإدارة والسياسة .

لقد سبق أحد الكتّاب العرب المجهولين تقريباً ذلك الأمير الأوربي في وضع مخطوطة كان عنوانها : « رقائق الحلل في دقائق الحيل »(١) ، وقد ظلت تلك المخطوطة مئات السنين مجهولة إلى أن قام بتحقيقها أوربي ،

(١) طبع أخيرا بالعربية بعنوان « السياسة والحيلة عند العرب » تحقيق رينيه خوام ، قامت بنشره مكتبة الساقي ـ لندن ١٩٨٨ .



وترجمت إلى عدة لغات أوربية . هذه المخطوطة تناقش أيضاً الحيل السياسية ، لكن عند العرب .

هذه النوعية من الكتابات كانت وما زالت تشد الانتباه ، ويقبل عليها القراء . ولا عجب أن يكون الكتاب الذي بين أيدينا عن « المفاوضات : مداخلها وحيلها » قد بيعت منه حتى الآن مئات الآلاف من النسخ . عنوان الكتاب الفرعي هو « كيف تبني علاقات تؤدي بك إلى الوصول إلى كلمة نعم ؟ » .

كاتبا هذا الكتاب لهما تجارب في مثل هذا النوع من الموضوعات ، بل لقد اشتركا في تدريس مادة التفاوض ، وساهما في لعبة التفاوض التي تجريها بعض المؤسسات الأمريكية لاختبار موضوع تفاوضي معين .

محور الكتاب ـ كما قلت ـ هو : كيف تقوم بعمليات تفاوضية ناجحة ، ويرتكز ذلك على القدرة والامكانية لكيفية إقامة « علاقات جيدة » مع الأطراف الأخرى . بناء هذه العلاقات ـ كما يرى الكاتبان ـ هو حجر الزاوية الذي لا يستغنى عنه في إنجاح أي تفاوض ، سواء أكان هذا التفاوض بين خصمين فردين ، أو زوجين ، أو ضمن العائلة والجيران ، أو ـ وهذا هو الأهم ـ بين الدول !

إنْ أردنا أن نحسّنَ النتائج فعلينا أن نحسّن في طريقة الأداء

واضح هنا أن (العلاقة الجيدة) و (العلاوة) مرتبطتان في ذهن المتكلم . أو كالقول بأن العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان سيئة نظراً للفائض التجاري بينهما الذي يميل لمصلحة اليابان .

من هذين المثالين وغيرهما ، كثيراً ما يختلط موضوع (العلاقة) مع (المصالح) . وينصح الكاتبان أن نفكر بشكل مستقل (بالعلاقات) ، أي بموضوع العلاقة وليس بنتيجتها ، فالعملية والنتيجة مختلفتان ، صحيح أنهما متصلتان ، أي أن الواحدة منهما تؤثر في الأخرى ، ولكنهما ليستا عملية واحدة .

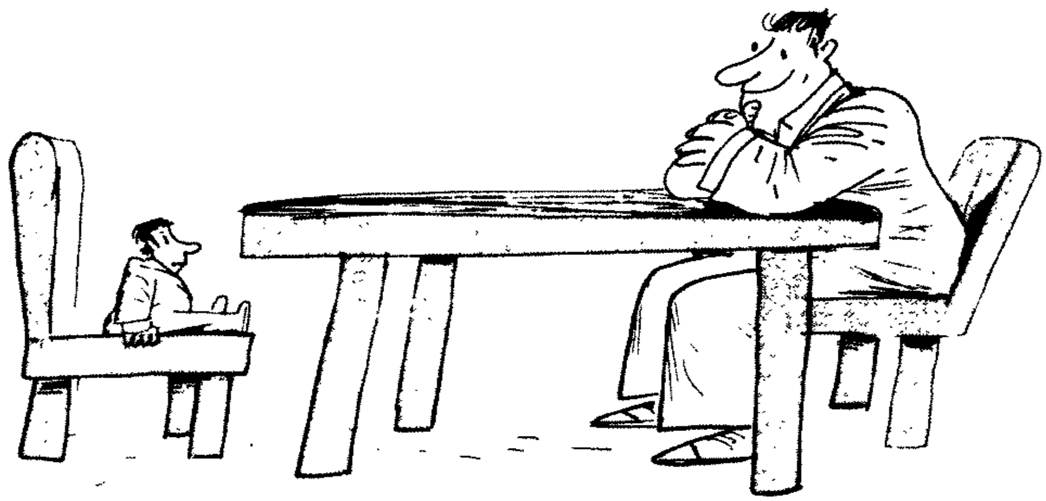
مثال ذلك فصل من الفصول الدراسية . (فعملية) التعليم تعتمد على المحاضرات ، التمرينات ، المناقشات ومن ثم الامتحانات . هذه (العملية) مختلفة عن (موضوع) الدرس نفسه ، سواء أكان رياضيات أو كيمياء أو تاريخاً أو لغة ، لكن (العملية) و (الموضوع) متصلان ، فالطريقة التي نُعلم بها الموضوع تؤثر على تعلم التلاميذ ، فإن أردنا أن نُحسن في النتائج فعلينا أن نحسن في الطريقة ، (في العملية) التي نقوم بها .

مثال آخر في الإدارة : فمهما كان انتاج الادارة التي نعمل بها ـ مجلة ثقافية شهرية أم انتاج أجهزة تلفزيون ـ فإننا نحتاج إلى فصل عملية الادارة ، من اتخاذ قرارات وتعامل مع موظفين مثلاً ، عن نتائج تلك الادارة ، فكلما كانت الادارة جيدة كان الانتاج جيداً ، فإن فشلنا في التفكير بأن (العلاقة) منفصلة عن الهدف ، غاص الهدف في التفاصيل وضاع .

وهكذا هي المفاوضات ، يجب أن تفصل (موضوع المفاوضات) عن (العلاقات السياسية) .

المشكلة أن معظم الناس عندما يفكرون في (علاقة) يفكرون في النتائج . فصاحب المؤسسة يفكر في الأرباح وعدد الزبائن ، ويفشل أثناء ذلك في النظر بطريقة تعامل مؤسسته مع الناس ، وكيف يمكن تطوير هذا التعامل ، وفشله في هذا الأمر يقود إلى فشل المؤسسة .

البعض يستبدل (العلاقة) (بالمصلحة) ويجعل نجاح العلاقة أو فشلها متوقفاً على الموافقة أو الرفض في مسائل جوهرية ، فأنا أصر ـ مثلا ـ على أنك إما أن توافق معي على موضوع ما ، وبالتالي تتكون بيننا (علاقات جيدة) ، أو أن أستسلم لك في موضوعات جوهرية حرصاً على تطوير



(علاقة جيدة) معك . وكلتا الفكرتين خاطئتان ، فهما تسدان الطريق أمام علاقة صحية يمكن أن تحل مشكلات قد تظهر لاحقاً .

في العلاقات الدولية نجد هذا الخطأ يتكرر ، فالولايات المتحدة تقول : لا علاقات جيدة مع منظمة التحرير الفلسطينية ـ مثلاً ـ إلا بعد اعترافها « باسرائيل » ، وذلك استسلام لمنطق غير مقبول .

هناك حلقة أخرى من حلقات التفاوض الناجح يشير اليها الكاتبان ، وهي ألا تحاول أن (تشتري) علاقة أفضل بتقديم (تنازلات) تعتقد أنها جوهرية ، فالبعض يعتقد أن تقديم مثل هذه التنازلات كهدية يمكن أن يبتاع علاقات طيبة . وذلك خطأ فادح ، فالعلاقات الطيبة ليست للبيع ، وهذا النوع من الشراء لن يمكننا من بناء علاقات جيدة ولا يمكننا من حل مشكلات جديدة في المستقبل . في العلاقات الشخصية نرى كيف يؤدي ذلك الى مآس ، فالزوجة التي تعطي الزوج كل شيء من أجل بناء علاقة جيدة في معظم الأوقات تفقد استقرار بيتها . . وكذلك الأب الذي يعطي ابنه كل شيء من أجل بناء علاقة جيدة معه ، ينتهي به الأمر بفقدان ولده لسبب أو لآخر .

والتنازل ربما يقلل من الخلاف والشجار لوقت ما ، وربما يؤخر ظهور المشاكل ، ولكنه يفقد الآخر إمكانية تطوير قدراته لبناء طريقة جيدة لحل مشاكله ومواجهتها ، فبدون هذه القدرة ستغدو العلاقة ضعيفة أمام أي مشكلة تظهر في المستقبل .

نصيحة للزوجة ألا تعطيَ زوجها كل شيء حتى لا تفقدَ استقرار بيتها !

في العلاقات الدولية أثبت التاريخ مرة تلو أخرى خطورة بناء علاقة عن طريق الإرضاء ، فشمبرلين قد اعتقد أنه اشترى السلام عندما استسلم لهتلر في ميونخ عام ١٩٣٨م ، وستالين نفسه اعتقد هذا الاعتقاد عندما وقع اتفاقية مع هتلر . محاولة (شراء) علاقة هي بالضبط مثل الخضوع للابتزاز ، فكلما دفعت للمبتزين ، زادت احتمالات الدفع في المستقبل .

استراتيجية التفاوض

في معظم الأوقات نحن ندخل في علاقة مع الآخرين ، دون استراتيجية محددة وواضحة ، خاصة في قواعد التعامل . نحن ربما نستجيب كرد فعل لما يقوم به الآخرون ، أو تغمرنا العواطف فيضيع المنطق ، ونعامل الأمور على طريقة « أحب وأكره » ، ويمنعنا ذلك من اتخاذ استراتيجية عقلانية محددة لعمليات التفاوض . وفي بعض الأوقات تكون لنا استراتيجية في كيفية تحسين العلاقة دون أن نعي أنها استراتيجية فقيرة ومحدودة .

إن أردنا وضع استراتيجية ، لتحسين العلاقات مع الآخرين أو بناء علاقات جيدة على المستوى الاجتماعي أو الدولي ، فهناك خطوات محددة يمكن اعتمادها بهذا الخصوص :

علينا أن نبتعد عن خطأين شائعين : الخطأ الأول أن نتجاهل التصورات والأماني والتوقعات الوطنية ، فنحن كثيراً ما ننسى أن الآخرين ينظرون الى الأمور بشكل مختلف عن نظرتنا إليها .

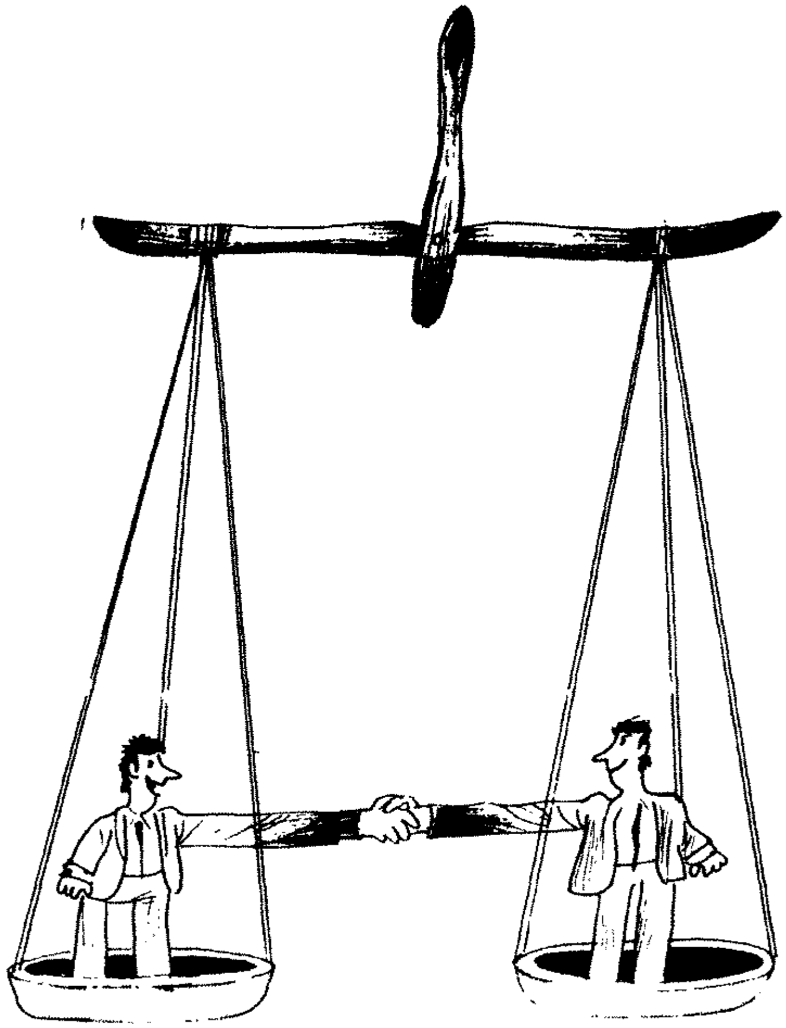
والخطأ الثاني أننا نحاول أن نبني علاقة عن طريق تصور خاطيء هو أن الآخرين سوف يتبعون قيادتنا ، أو نتبع قيادتهم .

وكلا المنظورين خاطئان .

في الحالة الأولى : إن فشلنا في التكهن كيف يرى العالم بشكل مختلف القضايا التي نعدها مهمة ، فإن لدينا بالتأكيد صورة خاطئة عن أنفسنا وعن الآخرين ، إذا لم نفهم اختلاف الآخرين في النظر إلى قضايانا ، فإن عدم الفهم هذا سوف يؤثر في قدرتنا على حل المشكلات .

طبيعي جداً أن الناس يهتمون بالأشياء القريبة منهم والمهمة لديهم ، فموت صديق عزيز أهم وأكبر لدينا من وفاة المئات في تصادم قطارين في قارة بعيدة . وقضية فلسطين مثلاً أوضح وأهم بالنسبة لنا ـ نحن العرب ـ من قضية نيكاراجوا التي تبدو بعيدة وغامضة لدى كثيرين منا . وبناء

في العلاقات الدولية أثبت التاريخ خطورة بناء علاقة عن طريق «الإرضاء»



كلما دفعت للمبتزين زادت احتمالات الدفع في المستقبل!

استراتيجية للعلاقات جيدة هو في الاعتراف بأن الناس تنظر الى القضايا والمشكلات من زوايا مختلفة كما أن أولوياتها لديهم تختلف ، فمنظور قائد العمال لمشكلات عمالية ملحة يختلف عن منظور صاحب العمل ، وهكذا .

وكذلك في العلاقات الدولية ، فالبلاد المختلفة لها ثقافات مختلفة ومصالح مختلفة وقيم مختلفة ، وبالتالي تنظر الى الأمور بشكل مختلف .

الخطأ في الحالة الثانية هو الاعتماد على (التبادلية) لبناء علاقات ناجحة ، مثل أن نتوقع من الآخرين أن يقتفوا اثر قيادتنا في موضوع ، أو أن نقتفي اثر قيادتهم . وخطورة (التبادلية) هذه تكمن في أنها قائمة على فكرة (افعل للآخرين ما تحب أن يفعلوه لك) ، لكن هذه القاعدة ليست حقيقة ، فإنك إنْ امتنعت عن انتقادي في العلن لن يردعني ذلك عن انتقادك والتشهير بك في الخفاء ، وعلى المستوى الدولي : إن لم أردعك بالحرب قد تقوم أنت بشن الحرب عليّ ، وهكذا .

العلاقات على طريقة «أحبُّ وأكرهُ» تغمرها العواطف فيضيع المنطق السويّ

من ضمن قواعد الاستراتيجية الناجحة في بناء علاقة جيدة ، يعرض الكاتبان خمس قواعد هي :

١ ـ استقلالية في عدم الموافقة ، فكلما كانت خلافاتك مع الآخرين جادة وحقيقية ، احتجت الى طريقة جيدة للتفاعل معها ، أي أن تكون مستقلاً في اتخاذ قرارك بقول : لا .
٢ ـ استقلالية في التنازلات ، أي لا تتنازل عن مصالحك الحيوية ولا تطلب من الآخرين التنازل عن مصالحهم الحيوية .
٣ ـ زاوية النظر الأخرى : ان تأخذ بعين الاعتبار كيف ينظر الآخرون الى الأمور ، مثل ما تأخذ في الاعتبار نظرتك أنت الى الأمور .
٤ ـ استقلالية في التبادل : لا تنتظر من الآخرين أن يقدموا مثالاً في التنازل ، ولا يجب أن تفترض أن مثالك في التنازل سوف يُتّبع بالضرورة .
٥ ـ استقلالية المواقف : أن نكون منفتحين وقابلين للاقتناع في أمور عقلانية واضحة مستعدين لإعادة النظر فيمن هو بجانبنا ومن هو بجانب غيرنا .

من خلال هذه النقاط الخمس نستطيع أن نبني استراتيجية واضحة لإقامة علاقة مع الآخرين جيدة ومتوازنة .

وقضايا أخرى

تبقى مجموعة من القضايا الأخرى التي يشير اليها الكاتبان لإكمال مسرح التفاوض ، قد لا يتسع المقام لسردها جميعاً ولكن بعضها ملفت للنظر . فالكاتبان مثلاً يدعوان لموازنة العقل بالعاطفة ، فالعاطفة تثير سلسلة من الأشياء الايجابية ، كالحب والاعجاب والاحترام ، وأشياء سلبية أخرى كالخوف والكراهية والغضب . وتدخّل العواطف في التفاوض قد يعطل قدرتنا على التعامل الناجح مع الاختلافات واتخاذ القرار العقلاني الذي يحتاج الى توازن . بعض الناس تغمرهم العاطفة بسهولة ، وكلما كانت عاطفتنا غامرة (سلبية أو ايجابية) أثرت في حكمنا . فالعاطفة قد تدفعنا لتقديم تنازلات قد نأسف عليها في المستقبل ، أو لتشدد يؤدي الى النتيجة نفسها .

كذلك يدعو الكاتبان الى التفهم ، فنحن لو اتخذنا موقفاً عقلانياً في مشكلة ، فإن المشكلة ربما لا تحل لأننا ـ أنا وأنت ـ (لا نفهمها) . وقد



تكون المشكلة نفسها موجودة بسبب وجود سوء فهم ، أو لغياب المعلومات الصحيحة ، لذلك فنحن لا نستطيع أن نحل خلافاتنا دون أن نفهمها ، والفهم الخاطيء أحد أهم عناصر زيادة المشكلات وتفاقمها وعدم القدرة على حلها . والتاريخ حافل بقصص عدم الفهم التي أضرت بالعلاقات الدولية . لعل أهمها ما أثاره جورباتشوف في كتابه (البيروسترويكا) عندما ذكر قصة خروشوف في الأمم المتحدة في أوائل الستينيات حين ضرب بحذائه الطاولة ـ في فورة غضب شديد ـ وقال (سوف نقبر العالم الرأسمالي) وتناولت وسائل الاعلام الغربية كلمة (نقبر) على أنها تهديد بحرب نووية ، وكانت فهما خاطئاً ، إذ أن المعنى المراد ـ في الثقافة السوفيتية ـ لهذا التعبير هو أن نظامنا سوف يعيش أطول من النظام الرأسمالي .

عدم الفهم يأتي نتيجة مجموعة كبيرة من المدخلات ، منها عدم فهم الحديث ، أو عدم ادراك ما يُسمع ، أو الأخذ بمعلومات غير دقيقة .

واذا كان هناك اختلاف في اللغة والعادات والقيم فإن هامش عدم الفهم يكبر ويزداد .

ومن الطريف أن عدم الفهم لا يضع الأشخاص والدول وحدها في مأزق ، بل الشركات التجارية أيضاً . يقول الكاتبان : إن شركة جنرال موتورز انزلت سيارة جديدة في السوق الاسبانية سمتها « شفروليت انموفيل » ولم تعلم الشركة إلا بعد حين أن « انموفيل » ، بالأسبانية تعني : لا تمش !! .

●●●

والكتاب في النهاية من الكتب المثيرة للخيال في تحديد طريقة التفاوض والحث بشدة على التفاهم الدولي في عصر أصبح الحوار سمته الرئيسية ، ولكنه أيضاً يقرر شيئاً مهماً هو « ألا نجاح للتفاوض من موقف الضعف » ! .

وقد يلحق هذا الكتاب في الانتشار والذيوع كتاب « الأمير » لميكافيلي ، أو كتاب « السياسة والحيلة عند العرب » ، ولكنه بالتأكيد أكثر عصرية . . ! □

محمد الرميحي

الإسلام
بين الإخاء والدماء

بقلم : الدكتور عبدالعزيز كامل

حاول غيرنا من أصحاب الأديان أن يقيم فوق أخاديد الصراع القديمة جسورا من الإخاء والتعايش ، ونجحوا في ذلك . وما زالت أخاديد الصراع الاسلامية تحتاج الى جسور الإخاء .

لنبدأ بنماذج مما بين المسيحية واليهودية في القرن العشرين ، وقد اقتربنا من خواتيمه ، ونقارن بين هذا وبين ما كان بينهم من قديم . ولعل أبرز إنجازات الفكر المسيحي فيه ، إن لم يكن أبرزها جميعا ، أعمال :

المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

بدأت فكرته عام ١٩٦١ ونشرت قراراته في عام ١٩٦٥ . وصدرت له ترجمة عربية في مصر ، وبعدها بثلاث سنوات صدرت ترجمة عربية ثانية من بيروت « ١٩٦٩ » ، وهي التي أمامي الآن عند كتابة هذا المقال .

وتهمنا هنا نصوص جاءت في الجزء الثاني تحت عنوان « تصريح في علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية » (ص . ٣٨١-٣٩٥) .

النص الأول عن الاسلام ، والثاني عن اليهودية . ولكن لنقف قليلا عند مدخل القسم الثاني من التصريح وعنوانه « الأفكار الرئيسية » . يقول :« لم يسبق لأي من المجامع المسكونية أن تطرق إلى علاقة الكنيسة بسائر الديانات . وإن حدثت محاولات في هذا المعنى ، فلقد ظلت فردية ، دون أن تؤدى الى نتائج عملية جماعية . ثم تأتي إشارة الى أمانة السر الخاصة التي أنشئت في الفاتيكان عام ١٩٦٤ ، والى وثائق أخرى تدعو الى الحوار مع كل المؤمنين وذوى الارادة الصالحة ، كل ذلك هو بداية لفجر جديد في العلاقات التي يجب أن تنمو بين الكنيسة والديانات الأخرى القائمة في العالم » .

فهنا تأكيد على أن هذا « نهج جديد » في تاريخ الكنيسة . وهو « نهج نابع من سلطة مركزية » أحست بالمتغيرات التي يمر بها العالم . وتجاوبت معها .

وعرض القسم الثاني بعد هذا للمقطع الخاص بالاسلام ، وبين العقائد المشتركة بين الاسلام والمسيحية من ناحية الايمان ومن ناحية الأخلاق ـ وسنذكر النص بعد قليل ـ ثم انتقل الى القضية المحورية في التصريح وهي « قضية تبرئة اليهود من قتل المسيح » ويذكر أن الكنيسة عمدت قبل المجمع الى نزع كل قول من كتبها الطقسية يكون منافيا للحقيقة التاريخية والكتابية فيما يتعلق باليهود .

وهذا ما دفعها أيضا الى أن تعالج في « المجمع » قضية تبرئة اليهود من قتل المسيح . ماذا تعني هذه التبرئة التي كان لها صدى كبير في الأوساط المسيحية ، وخاصة في الأوساط العربية ، نظرا لما بين هذه الأوساط واسرائيل من نزاع وعداء ؟.

فهناك تعديلات طرأت على الكتب الطقسية رفعت منها ماكان يراه اليهود إساءة لهم وهي نصوص ظلت الكنائس ترددها قرنا بعد قرن ، وكان لها أثرها في رسم صورة اليهودي في العالم المسيحي وهو يسمعها في كنائسه .

والآن فلننظر الى النصوص :

عن الاسلام :

« وتنظر الكنيسة بعين الاعتبار أيضا الى المسلمين الذين يعبدون الاله الواحد الحي القيوم الرحيم الضابط الكل خالق السماء والارض المكلم البشر . . وإنهم يُجلّون يسوع كنبي ، وإن لم يعترفوا به كإله . ويكرمون أمه العذراء . . وعلاوة على ذلك إنهم ينتظرون يوم الدين عندما يثيب الله كل البشر القائمين من الموت ، ويعتبرون أيضا الحياة الاخلاقية ، ويؤدون العبادة لله لاسيما بالصلاة والزكاة والصوم .

وإذا كانت قد نشأت ، على مر القرون ، منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين ، فالمجمع المقدس يحض الجميع على أن يتناسوا الماضي، وينصرفوا بإخلاص الى التفاهم المتبادل ، ويصرفوا ويعززوا سوية العدالة الاجتماعية والخُيُور الأخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع الناس . »

هذا أبرز ما جاء في هذا المقطع من التصريح ، وقد جاءت من بعده ـ على المستوى العملي ـ خطوط متقاطعة أبرزها :

خط يستهدف الحوار واللقاء والمزيد من الفهم ، ومهدت له الفاتيكان باصدار كتب عن أصول الحوار ،منها كتاب خاص بالاسلام . وقامت الأمانة المختصة بالشئون الاسلامية بالاتصال بالدول والمؤسسات الاسلامية لإجراء الحوار ، وكان بعضه في عواصم اسلامية ، وبعضه في عواصم في اوربا والعالم الجديد ، ومازال بعض ذلك مستمرا ، كما أن الحوار مستمر مع مجلس الكنائس العالمي الذي ينظم الكنائس البروتستانتية على الصعيد العالمي ، ويجرى المجلس حواره مع الأديان الكبرى في العالم ، وله كتبه ومطبوعاته الدورية كالفاتيكان .

خط تبشيرى يعمل في قلب العالم الاسلامي وفي أطرافه وبخاصة في مناطق الفقر والحاجة ، ومدخله المدرسة والمستشفى وتعليم الحرف اليدوية ، ثم فتح أبواب التعليم الأرقى لمن يقبلون العلم والتبشير معا . . ولهذا الخط خططه العالمية ، ومنها خطط محددة للعالم الاسلامي ، وللأديان الكبرى الأخرى .

وعن اليهودية

يقول التصريح « وبما أن للمسيحيين ولليهود تراثا روحيا مشتركا وساميا يريد هذا المجمع المقدس أن يوحي بالمعرفة والاعتبار المتبادلين وأن يعززهما بين الاثنين ، ويحصل ذلك خصوصا بالدروس الكتابية واللاهوتية وبالحوار الأخوى .

وإن تكن سلطات اليهود وأتباعها هي التي حرضت على قتل المسيح « راجع يوحنا ١٩/٦ » لا يمكن مع ذلك أن يعزى ما اقترف أثناء آلامه ، الى كل اليهود الذين كانوا يعيشون آنذاك دونما تمييز ، ولا الى يهود اليوم . وان تكن الكنيسة شعب الله الجديد ، يجب مع ذلك ألا ينظر الى اليهود كمن رذلهم الله ولعنهم ، كما لو كان ذلك ناتجا من الكتب المقدسة . فليحرص الجميع اذا في التعليم المسيحي وفي الوعظ بكلام الله على ألا يعلّموا شيئا لا يتلاءم مع الحقيقة الانجيلية ومع روح المسيح »

ثم يضيف المقطع تأكيدا يتعلق باللاسامية ، هذا المصطلح الذى حاول اليهود إشاعته ، كأنّ أى اضطهاد أو عداوة لفرد منهم لأي عمل قام ، إنما هي عداوة لأبناء سام بن نوح . . وكأنهم وحدهم الذين انحدروا من ذريته . . !! ولكن هذا موضوع آخر .

نذكر المقطع التالي ونكتفي به :

« علاوة على ذلك ان الكنيسة التي تشجب الاضطهادات كلها ضد الناس أيا كانوا تتأسف للبغضاء وللاضطهادات ولكل مظاهر مقاومة السامية التي استهدفت اليهود في أي زمن كان ، وأيا كان مقترفوها . والكنيسة لا تدفعها الى ذلك الدوافع السياسية ، بل محبة الانجيل الدينية متذكرة التراث المشترك مع اليهود »

كان هذا التصريح نقطة تحول خطيرة في تاريخ العلاقات بين اليهودية والمسيحية . وكان من بعده اصرار من اليهود ، واستقصاء لرفع أي مذمة لهم في أي كتاب ديني أو صلاة من صلوات القوم في كنائسهم ، وامتدت هذه الرقابة والمراجعة الى الكثير من آفاق الحياة العامة .

سطور من إنجيل متى :

ولكن ماذا كان موقف اليهود من المسيح عليه السلام كما تذكره الأناجيل ؟ نقرأ سطورا من إنجيل متى :

« وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه » « ١٦ : ٥٩ »

« ودبر هؤلاء جريمتهم وحركوا الجمع ليطالب بقتل المسيح على الرغم من ان بيلاطس كان يعلم أنه بريء ، ولما أصروا على أن يطلق أسيرا آخر هو باراباس « وكان الوالي معتادا أن يطلق لهم أسيرا واحدا في عيدهم » أخذ بيلاطس ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا إني بريء من دم هذا البار . أبصروا أنتم . فأجاب جميع الشعب وقالوا : دمه علينا وعلى أولادنا . حينئذ أطلق لهم باراباس . وأما يسوع فجلده ـ ليُصْلَب » « ٢٧ : ٢٤ ـ ٢٦ »

نظرة إسلامية :

ونحن ـ المسلمين ـ نؤمن بقول الله تعالى عن علاقة اليهود بعيسى عليه السلام وأمه الطاهرة التي ضربها الله مثلا كريمافي كتابه « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍ منه . مالهم به من علم إلا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما » « النساء : ١٥٦ ـ ١٥٨ » . هذا بعد أن أدانهم الله في الآية قبل ذلك : بنقض الميثاق ، والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق .

نحن ـ المسلمين ـ نؤمن بطهارة مريم ونبوة عيسى ، ونقرأ في كتاب الله قوله عن النصارى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » « المائدة : ٨٢ ـ ٨٣ » .

نحن ـ المسلمين ـ فتحنا أرضنا وقلوبنا لكل صاحب دين اضطهده قومه لخلاف مذهبي أو اضطهده أهل دين آخر ، ووصل أهل الكتاب في ديار الاسلام الى مناصب رفيعة ، وعاملهم المسلمون كمواطنين لهم حقوق المواطنة الكاملة مع حرية العبادة كما تنص على ذلك آيات القرآن والأحاديث الشريفة ، وكما وضحته كتب الفقه الاسلامي . .

نحن ، بعد هذا كله ، تنصب علينا العداوات من العالم الغربي ويتعاون هناك بعض أهله من يهود ومسيحيين . . . .

كيف استطاع العقل اليهودي أن يصل الى تحقيق هذه الاهداف ؟ مع أن اليهودية لا تعترف لا بالمسيحية ولا بالاسلام ، ولا تؤمن بنبوة عيسى ولا طهارة مريم البتول ؟

الواقع أن المعابر أقيمت في العالم الغربي بين اليهودية والمسيحية على الرغم من كل الأحقاد والثارات والنصوص الواضحة في الأناجيل على دور اليهود وقت قيام المسيحية ، هذا فضلا عن المعابر بين المذاهب المسيحية ، ثم بين المسيحية والعالم من حولها .

والواقع أن المعابر ضعيفة ومتقطعة بيننا وبين

أنفسنا قبل أن تكون بيننا وبين غيرنا .

ولقد حاولنا الحوار مع العالم المسيحي ، وكانت - ولا تزال - هناك جهود مبذولة في هذا السبيل ، ولكن هذا الحديث الطويل الذى أسوقه اليوم يستهدف :

الحوار بين المسلمين :

صحيح أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم لقوا ربهم شهداء : عمر بن الخطاب قتله فيروز أبو لؤلؤة وهو من سبايا حروب الفرس وهو غلام المغيرة بن شعبة ، وكانت له صلته في المدينة بالهرمزان . وكان من ملوك الفرس ، ثم أقام في المدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد . . ولما تكاثر الصحابة على القاتل ليمسكوا به ، أصاب عددا منهم بجراح ، ثم طعن نفسه طعنة قاتلة لما أيقن بوقوعه في أيديهم .

عثمان بن عفان قتله ثائرون عليه من أبناء المدينة ومن البصرة والكوفة ومصر . ولم يحاكم من أجله أحد . وانفتح بمصرعه باب الفتنة .

علي بن أبي طالب قتله عبدالرحمن بن ملجم في مؤامرة ثلاثية . ونجا من القتل معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص . ولم يقتل بالخليفة الرابع أحد إلاقاتله .

فإذا أحصينا من وقع عليهم حكم القتل في استشهاد الخلفاء الثلاثة ، كانوا رجلين . . لا أكثر . . !

ولكن شلال الدم انحدر بعد هذا عنيفا من عام ٦٠هـ ولم يهدأ نسبيا إلا بعد ربع قرن شهد أشد مامرّ على الاسلام من المآسي بأيدى أبنائه :

- في الخط الأموى كان الخلفاء بعد معاوية : يزيد ومعاوية الثاني ومروان بن الحكم وعبدالملك بن مروان .
- وفي خط أهل البيت وبني هاشم كان الحسن ثم الحسين بن علي
- وفي خط قريش كان عبدالله بن الزبير

وكانت أبرز المآسي :

- استشهاد الحسين والكثير من أهل بيته في كربلاء عام ٦١هـ
- انتهاك حرمة المدينة المنورة واستباحتها عام ٦٣هـ بعد موقعة الحرة .
- حصار مكة عام ٦٤هـ ورمي البلد الحرام بالمنجنيق.
- الحصار الثاني لمكة عام ٧٢هـ ورميها مرة ثانية بالمنجنيق واستشهاد عبدالله بن الزبير .

أضف الى هذا الصراعات بين الخلفاء وبعض القادة أو فيما بين القادة كما حدث بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبدالرحمن بن الأشعث . ومن قبل ذلك ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي ، وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي باسم محمد بن الحنفية « ابن الامام على كرم الله وجهه » . . هذا إلى ثورات الخوارج . .

ولك أن تنظر ، وإن كنت لا تستطيع أن تحصي ، كم سال فيها من دماء ، مضافة الى ما أريق منذ الفتنة الكبرى في عهد عثمان .

طريق الإخاء بعد الدماء :

يستوقفني تعقيب الشيخ محمد الخضرى على مصرع سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، في كتابه « تاريخ الامم الاسلامية : الدولة الاموية » ٢ : ٤٦ » .

« ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا : خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيىء القصد ، والبعض الآخر تابع لهم ، ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الاسلام ، ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيما ، ثم ذهبوا الى من له الحق أن يدينهم . ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده ، أو تبيين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان . فالعاقل كل همه أن يتعلم ويفهم ، لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية » .

في مصارع الخلفاء الراشدين الثلاثة أو في مصارع الطالبيين « وقد أفرد لهم أبو الفرج الاصفهاني كتابا برأسه يحمل هذا الاسم تقطر صفحاته دما » .

من نحاسب الآن ؟ وهل يحمل كل المسلمين ، أو كل

أهل مذهب بعينه عقاب جريمة حدثت من حاكم أو قائد ؟ وهل يحمل أبناؤهم من بعدهم ذنب السابقين ، دون ان يشارك الأبناء في هذه الدماء أو يرضوا عنها ؟ من نحاسب الآن على هذه المصارع العزيزة على قلوبنا جميعا ؟ ألسنا في حاجة الى تبرئة الأجيال اللاحقة من جريرة دماء أريقت في أجيال سابقة ، ولم يرض عن هذه الجرائم أهل ذلك العصر ؟ ولمصلحة من تزرع الأحقاد القديمة في النفوس الغضة الجديدة ؟ إننا في حاجة الى « نهج جديد » يدرس الماضي لما فيه من عبرة ، ويتوقى المزالق التي أوقعتنا فيها الصراعات السياسية ، وتنازع السلطان ، ورؤية كل فريق أنه كان أحق بالأمر من غيره .

نحن بحاجة حقيقية إلى تبرئة الأجيال الجديدة أولا من هذه المآسي ومد جسور الاخاء فوق أخاديد الدماء .

أين بنو أمية الآن ؟ وبعضهم مسئول عن هذه الدماء ؟ تماما كمسئولية فيروز أبي لؤلؤة وعبدالرحمن ابن ملجم ، ويزيد بن معاوية ، وقادته الذين انتهكوا حرمة المدينة ومكة ، ومسئولية أي قائد قاد جنوده الى معركة خاسرة ، دون ان يستعد لها . ولكن هذه كلها أجيال مضت وحسابها عند الله تعالى .

فكيف نَتَّخِذُ مما حدث « أمصالا » نتقي بها نكسات الفتنة وأوبئتها ، وقد أخذت تنتشر مع الصحوة الاسلامية المعاصرة ؟

ثم لو تركنا هذه الدماء القديمة ، لوجدنا دماء جديدة وثارات بين بعض الحكومات والأنشطة الاسلامية ، تكاد أن تكون تجسيدا لبعض الصراعات القديمة ، حين يظن كل فريق أنه يمتلك الحق . وأن غيره على الباطل . ويبدأ العدوان بين حاكم ومحكوم أو بين جار وجار . وأحيانا ترتدي الثارات القديمة ثيابا جديدة . وكأنك تشهد ـ من جديد ـ صراعا مذهبيا أو نزاعا على سلطان باسم الدين بين الأمويين والعباسيين وأهل البيت والخوارج في محيط من الملل والأهواء والنحل .

وقد تنتهي الصراعات العنيفة الى حين ، وتضع الحروب أوزارها . ولكن إذا لم نحاول وقت الهدنة أن نعيد النظر في تبرئة الأجيال الجديدة من وزر الجرائم القديمة ، وإذا لم نحاول تربية الأبناء على الإخاء والحب ، وإذا تركنا توجيه الشباب خاضعا لأسلوب الحقد والكراهية ـ فإن بذور الحقد تعود الى تثبيت جذورها في القلوب والعقول وتمد سوقها وفروعها ، وتسعى الى إيقاد الحروب والصراعات ، متى استعادت قوتها واستطاعت التعبير عن نفسها .

وهذه كلمة الى علماء المذاهب الاسلامية ، ودعوة الى إعادة النظر ، في مناهج التاريخ الاسلامي والتربية الاسلامية ، دعوة الى جامعاتنا ومجامعنا ، أن تتعاون جميعا على تأكيد ركائز ثلاث :

ـ تبرئة الأجيال اللاحقة من دماء الأجيال السابقة .

ـ دراسة هذه المآسي لتأكيد ضرورة الإخاء وأخطار الصراع والأحقاد ، وتطهير أرض الاسلام وعقول أبنائه من تلك الالغام الفكرية .

ـ دعم الجهود المشتركة الجامعة بين المذاهب الاسلامية لبناء حاضر الاسلام ومستقبله ، بناء يقوم على سماحة العقيدة ومتطلبات العصر . ونحن في ذكريات المولد النبوي الشريف « ١٤٠٩هـ » نذكر حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، عسى أن يكون لنا على طريق الاخاء نورا :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

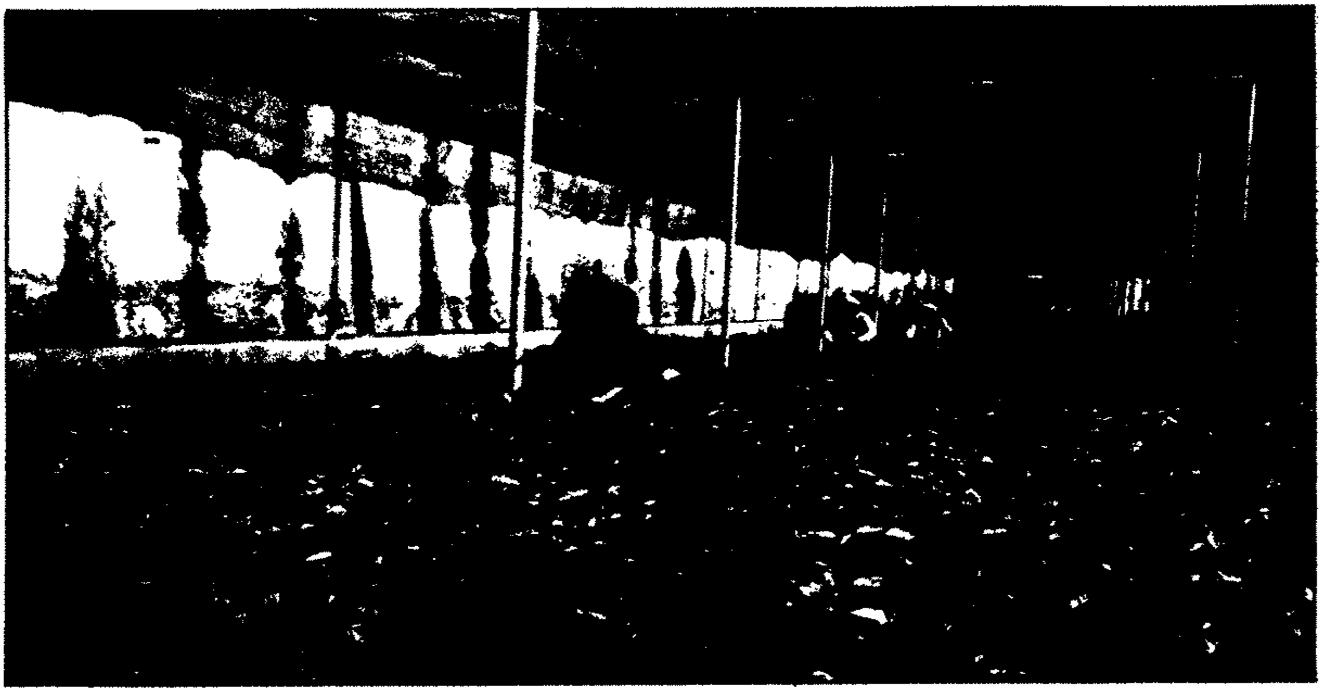
« رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهم أجمعين » □

▌ليس حب الشباب متعمقا في قلوبهم ، وإنما في عيونهم . (شكسبير)

يا عرب !
الزراعة .. الزراعة

بقلم : الدكتور سمير رضوان

سوف يضع القرن القادم على عاتق الأمة العربية مسئوليـة جسيمة ، لا بديل أمامها عن حملها . اذ سوف يتحتم عليها أن تعتمد على جهودها الذاتية في انتاج غذائها . وما من سبيل الى تحقيق هذا الهدف الأ من خلال استراتيجية زراعية عربية مشتركة ، ينبغي أن يخطط لها من الآن .



● الزراعة المحمية وسيلة جديدة من وسائل تطوير الثروة الزراعية وتنميتها .

أردت بعنوان هذه المقالة أن أحاكي صرخة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ياسارية بالجبل .. الجبل » اذ بينما كان الخليفة ـ رضوان الله عليه ـ قائما يخطب في المسلمين ، تراءى له أن جيش الاسلام الذي كان ساعتئذ يخوض احدى معاركه الجهادية ، أو شك عدوه أن يطوقه ، وأن يحكم الحصار حوله . كما تراءى له ألا مفر لجيش الاسلام من الهزيمة المحققة سوى أن يلوذ بجبل في موقع المعركة ، ليحتمي به ، ويروى أن الفاروق قطع موضوع خطبته فجأة ، وصرخ مناديا قائد جيشه على بعد آلاف الأميال : «ياسارية ، الجبل ، الجبل»ثم استأنف الفاروق خطبته ، وكأن هذه الصرخة لم تصدر عنه ، وتعجب المسلمون من أمر الخليفة ، ولما سألوا قائد الجيش بعد أن عاد منتصرا ، أقر بأنه ما أن تبين صعوبة موقف الجيش في المعركة حتى خيل اليه أنه يسمع صراخ عمر فيه أن اعتصم بالجبل ، ففعل . ويرى علماء النفس المعاصرون أن هذه الواقعة لاتفهم الا على ضوء ماكان معهودا عن الفاروق ـ رضوان الله عليه ـ من قوة حاسة لديه ، تعرف اليوم باسم حاسة التخاطر أو الاحساس على البعد (تلباثي) .

وليس المواطن العربي المعاصر بحاجة لأي قدر من حاسة التخاطر ، كيما يستبين بها أخطارا عظيمة محدقة بأمته ، فالمواطن العادي يرى هذه الاخطار في كل لحظة ، ويحسها ، ويسمع بها ، ويتعايش معها ، حتى أصبحت جزءاً من حياته اليومية. ومع ذلك فلا خير في من رأى خطرا محدقا بأهله ولم يصرخ فيهم محذرا ، ومقالتي هذه صرخة مخلصة ، أتمشم أن يكون صداها في النفوس أعمق من مجرد اكتشاف شرف مشابهتها في اللفظ لصرخة الفاروق وما أعظمه من شرف .

لعل من اغرب المقولات التي ترددت اثناء العقود الاخيرة مقولة أن الاستعمار الغربي قد فرض علينا أن نبقى دولا زراعية ، وحال بيننا وبين النهضة الصناعية ، وعلى الرغم من أن هذه المقولة تحمل في طياتها مغالطة واضحة ، حيث توحي لسامعها أن الزراعة مرتبطة بالتخلف ، فقد شاعت بيننا ، وأوشكت أن تصبح دعوة لمجافاة الزراعة . وفي

اعتقادي أن هذه المقولة غير المسئولة قد أسهمت ـ على الأقل من الناحية النفسية ـ في اهمال الزراعة .

وليس هناك مايمكن أن يضع أمة أمام أحد الخيارين : الزراعة أم الصناعة ؟ فليس ثمة مايحول دون العمل في المجالين معا ، ولاتكون النهضة الا بهما معا . وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة في ذهني فقد طرحت هذا الاختيار على نفسي عامدا ، وربما كان ذلك لكي أستقطب اهتمام القارىء معي في قضية ، يعلم يقينا مثلي أنها مهمة ، لكن قد يغيب عنه أنها سوف تصبح في غضون القرن القادم قضية « أن نكون أو لا نكون » كأمة مستقلة .

لو كان لابد من الاختيار فلست اتردد لحظة في ان الزراعة تأتي اولا . لقد ولجنا باب القرن العشرين أمة مقطعة الاوصال ، وعبرناه غارقين في مشاكل وخلافات ألهتنا تماما عن فهم طبيعة العصر وصراعاته . وليس تشاؤما أو مبالغة أن نقول : إن هذا القرن قد تقضىّ الا أقله ، بيد أن أمة العرب لم تحياه ، فهي لم تتكلم لغته ، ولم تشارك في بناء التقدم فيه ، لأسباب لامجال لذكرها هنا . وتقتضي الشجاعة أن نعترف بأننا نقبل على القرن الواحد والعشرين ونحن أكثر تمزقا من ذي قبل ، وأقل فهما للغة التقدم ، نحن نقبل على قرن تنتظرنا الأخطار فيه فاغرة أفواهها ، ومتربصة بنا ، ومالم نعد عدتنا لمواجهة هذه المخاطر ، فلن يكون قصارى الأمر أننا سوف نضيع هذا القرن كما ضيعنا سابقه ، بل ان القرن القادم هو الذي سوف يضيعنا ، لاقدر الله . لقد علمتنا تجربة القرن العشرين أن من لاينتج غذاءه لايملك قراره في يد ، كما علمتنا هذه التجربة ، أن الطاقة والغذاء سلاحان فتاكان اذا استخدما في الصراعات الدولية . كذلك علمتنا تجربة القرن العشرين أن التلوث البيئي قد اسودت سحبه في سماوات الغرب الصناعي الزراعي ، وأغرقت أمطاره الحقول ، ومن ثم فلابد لنهر التلوث من أن يشق طريقه صوب العالم الثالث . ولسنا في حاجة الى كثير من التفكير كي نتوقع أن هذه القضايا الساخنة سوف تلتهب في القرن القادم لتحرق في ضرامها كل أمة لاتعد عدتها لمجابهتها من الآن . من أجل هذا كانت صرختي : « ياعرب ! الزراعة ، الزراعة » .

الغذاء والاستقلال :

تستورد الامة العربية من الخارج معظم ماتحتاجه شعوبها من غذاء . فليس يخفى على أحد أن مصر مثلا ـ وهي كبرى الأقطار العربية قاطبة ـ لاتنتج الا رغيفا واحدا من بين كل أربعة أرغفة يستهلكها المواطن المصري . والغريب أننا ألِفْنا هذه الحقيقة المذهلة ، وأصبحنا نتعايش معها دون أن تثير فينا أي احساس بالرعب أو الخوف . فمعنى هذا الوضع



ببساطة هو أن غول المجاعة مقيم بيننا ، ينتظر أوامر مصدري الغذاء لكي يفتك بنا في أي لحظة . ومايصدق على مصر يصدق على جميع الأقطار العربية بلا استثناء ، وان يكن بدرجات متفاوتة .

ودعونا نعيد قراءة بعض عناوين الصحف في الأشهر الاخيرة التي مرت عليها عيوننا مرورا سريعا ، دون أن نكلف عقولنا مشقة التدقيق في معانيها . ولقد اخترت عينة عشوائية من عناوين بعض الصحف الكويتية : ٤٥ دولة تحتاج الى ٩ ملايين طن من الحبوب ، ٢٥ مليار دولار حجم الواردات الغذائية العربية ، ٤٥ مليار دولار قيمة الواردات الغذائية للعالم العربي عام ٢٠٠٠ ، دول الخليج العربية ومشكلة الأمن الغذائي ٣٠ مليار دولار « فاتورة » مستوردات الغذاء «٣٥٪ من العرب يعانون من مشكلة الغذاء » ولكي تصبح الصورة أكثر وضوحا أسجل هنا ملخص بعض البحوث التي نوقشت في مؤتمر الاقتصاديين العرب الذي عقد مؤخرا في الكويت كما أوردته صحيفة « الوطن » الكويتية في عددها الصادر برقم ٤٦٧٧ .

تقول الأرقام : ان الاستثمارات في مجال الزراعة للأمة العربية تراوحت خلال العقدين الأخيرين بين ٩٪ الى ١٣,٨٪ فقط من مجمل الاستثمارات العربية الكلية ، كما يتضح أن هذه النسبة في تناقص مستمر منذ ١٩٧٠ حتى الآن . والأدهى من ذلك هو أن معدل تنفيذ هذه الاستثمارات المتواضعة الحجم لم يتجاوز أبدا ٤٥٪ فقط . هذه هي الصورة اليوم ، فكيف تراها ستصبح في القرن القادم ؟ سوف يزداد اقبالنا ـ بل واقبال جميع شعوب العالم الثالث ـ على استيراد الغذاء ، كنتيجة منطقية لازدياد أعداد السكان . وأغلب الظن أن انتاج الغذاء في بلادنا ـ بل وعلى مستوى العالم ـ سوف لايحقق زيادة ملحوظة ، ذلك ان لم يتراجع في كثير من مناطق العالم ، بسبب الجفاف ، واغتيال الأراضي الزراعية ، والتصحر ، وغيرها من المشاكل الحادة . وسوف يصل العالم الى وضع تعد الدولة فيه أنها محظوظة لمجرد عثورها على من يصدر لها المواد الغذائية . وينبغي ألا ننسى أن عالما كعالم القرن القادم سوف تقترن فيه ـ بالضرورة ـ الشروط السياسية من قبل مصدري الغذاء بكل صفقة بيع وشراء ، ولن يكون هناك محل لكلمة الاستقلال في الدول المستوردة الا في معاجم اللغة .

الخطر الأكبر الذي يتربص بالدول المستوردة للغذاء ومن ضمنها الأقطار العربية ، يكمن في أن معظم الدول المنتجه للغذاء ـ خاصة الحبوب ـ سوف تصبح في القرن القادم زاهدة ـ الى حد كبير ـ في بيعه ، لأنها سوف تحتاج الى كل ماتنتجه أو معظمه . ومن المتوقع أن ينشأ هذا الوضع الجديد بعد أن يشح انتاج النفط على مستوى العالم ، وهو أمر متوقع خلال القرن القادم . وبعد نضوب النفط كمصدر للطاقة اللازمة كوقود للسيارات على وجه الخصوص لن يتبقى أمام العالم الصناعي الا أن ينتج مايسمى « بالبيوكحول » كبديل للنفط وقد أنجزت الدراسات التقنية على هذا الموضوع في هذه الدول ، ونتائجها

● كل الأيدي ـ بما فيها الأيدي الناعمة ـ يمكنها أن تساهم في التنمية الزراعية .



محفوظة بعناية في انتظار التنفيذ . سوف ينتجون « البيوكحول » من خلال عمليات التخمر الصناعي لمحاصيل زراعية غنية بالنشا أو السكر كالحبوب والبطاطس والعنب وقصب السكر والبنجر وما اليها . وتدل الدراسات المحفوظة على أن العالم سوف يخصص مالايقل عن خمس الرقعة الزراعية على سطح الأرض من أجل انتاج « البيوكحول » فقط ، وعندئذ سوف يخيّر العالم الصناعي نفسه بين أن يستثمر انتاجه الزراعي من أجل انتاج الوقود لسيارات شعوبه وبين أن يبيعه غذاء للأمة العربية مثلا . ولا أحسب أن فينا ـ نحن العرب ـ من يختلف على القرار الذي نؤمن أن هذه الدول سوف لاتتردد لحظة في اتخاذه .

الغذاء والتلوث :

ولن تقتصر مشاكل مستوردي الغذاء في القرن القادم على قلة المعروض منه ، بل سوف تنشأ أيضا

● ضحكة من القلب .
فالمحصول وفير .



مشاكل حادة ، تتعلق بنوعية هذا القليل المعروض ، ومدى ملاءمته للاستهلاك الآدمي . ولايخفى على أحد مقدار مابلغه التلوث البيئي ، خاصة في الدول المتقدمة التي تنتج الحبوب والغذاء . ويخطىء من يتصور أن التلوث في هذه الدول النائية لايعنينا كثيرا .

فهو سوف يصبح أقرب الينا مما نتصور ، فتلوث البيئة هناك يعني ـ بالضرورة ـ تلوث الانتاج الزراعي النباتي والحيواني الذي نستورده نحن منهم .

فاذا كانت سحب التلوث قد انعقدت هناك ، وهطلت أمطاره ، وتجمعت في أراضيهم ، فطوفان التلوث لن يلبث أن يشق نهرا جبارا مليئا بالمعلبات والحبوب واللحوم ليصب في بلادنا نحن . وقراءة سريعة لعينة عشوائية من عناوين بعض صحف الغرب تكفي لايضاح حجم مشكلة التلوث هناك . وقد أخذت هذه العناوين من بعض الصحف الألمانية الغربية : « نفايات سامة ملقاة على قارعة الطريق » أحدث صيحة : «نفايات بها سيانيد» ، هل تسرب اللبن المحظور المحتوي على هرمونات الى الأسواق في الخفاء ؟ ، « اهمال في تخزين النفايات المشعة » . ومشاكل التلوث التي تثار يوميا في دول الغرب المتقدمة لاتنتهي . لم ينس أحد بعد ـ فيما أتعشم ـ كارثة تشيرنوبيل وماخلفته من آثار رهيبة لن تنتهي سريعا . وهناك قضية شغلت الرأي العام الالماني الغربي في الصيف الماضي ، تتعلق بخمسة آلاف طن من اللبن المجفف الذي ثبت أنه ملوث بالاشعاع ، وظل هذا اللبن مشحونا في قطار يتجول بين ولايات المانيا المختلفة ، حيث تأبى كل ولاية منها تفريغه فيها من أجل تنقيته . ولا يعلم الا الله الى أين انتهى هذا اللبن المشع الآن . أخشى ما أخشاه أن أحد مستوردي العالم الثالث من ذوي الضمائر الخربة قد تطوع بحل هذه المشكلة لهم ، وأصبح اللبن الآن في أجواف الأطفال من أبناء العالم الثالث . وهناك قضية أخرى شغلت غرب أوربا في العام الماضي ، عرفت باسم « فضيحة مافيا الاشعاع النووي » ، وقد جرت هذه الفضيحة شركات صناعية كبرى الى

قفص الاتهام ، مثل « نيوكم » و « ترانس نيكليار » وغيرهما . وتعمل هذه الشركات في العادة على استعادة المواد المشعة من النفايات النووية المستخدمة في الطب والبحث العلمي وما الى ذلك . وتردد أن رشاوي كبيرة قد دفعت لهذه الشركات كي تسرب مواد مشعة تصلح لانتاج الأسلحة النووية لدول أجنبية بصورة غير مشروعة ، كما أن هذه الشركات قد اتهمت بالاهمال في تخزين هذه المواد المشعة ، وفي التعامل معها أثناء شحنها ، مما عرض البيئة للتلوث . ومسألة تخزين النفايات المشعة في الدول الصناعية مشكلة ملحة في حد ذاتها ، تعقد من أجلها الصفقات المشبوهة على المستوى الدولي ، كما تسعى الدول الغنية باستمرار لاستغلال الدول الفقيرة لتخزين هذه النفايات في أراضيها ، بعد أن تغريها بأموالها .

ومايعنينا هنا هو أن نذكر القارىء بأن المادة المشعة يتسرب منها الاشعاع ببطء شديد . ومن ثم فالزمن اللازم لتخزين النفايات النووية لكي تفقد اشعاعها تماما وتصبح آمنة من الناحية البيئية يمتد مئات الألوف من السنين ، ومعنى ذلك أن مثل هذه النفايات المختزنة هي في الواقع مصدر مزمن لتلوث التربة هناك ، بل وأيضا لتلوث المياه الجوفية ، ومن ثم المحاصيل الزراعية التي مصيرها أن تصدر الينا . فان لم يكن التلوث بالاشعاع ، فهناك التلوث بقائمة لاتنتهي من المواد الكيميائية الضارة التي تشبعت بها البيئة في هذه الدول الصناعية ، وينبغي أن نعلم أن هناك مواطنين أمريكيين وأوربيين ممن يتصفون بالوعي البيئي الراقي ، يرفضون اليوم أن يتناولوا غذاء مما تطرحه الأسواق في بلادهم ، بل هم يهجرون المدن ويسعون الى أحضان الطبيعة في الأماكن النائية ، ليزرعوا ، ولينتجوا غذاء غير ملوث هناك يقتاتون به .

وهذا هو الحل :

لن تتمكن الامة العربية في القرن القادم من حماية استقلال أقطارها ، ولا من امتلاك زمامها بيديها ، مالم تتمكن من انتاج غذائها بجهودها الذاتية . ولابديل أمامها سوى أن تنجح في هذا التحدي ، وهي قادرة على النجاح اذا قدرت المخاطر المنتظرة حق قدرها . فهل تغنينا أموال الدنيا شيئا اذا نحن سعينا لشراء غذاء لايريد البائع ـ أو قل لايستطيع ـ بيعه لنا ؟ ولن تنجح الأمة العربية في هذا التحدي الصعب الا من خلال استراتيجية زراعية متكاملة ، يخطط لها الخبراء من الآن قبل الغد . ولن تجدي كثيرا جهود الأقطار العربية منعزلة بعضها عن بعض فكل قطر منها يملك بعض المقومات اللازمة لتحقيق هذا الحلم القومي ، لكن لايملك أي منها جميع المقومات دفعة واحدة . وتقوم الزراعة الناجحة كما هو معروف على التربة الزراعية ، ومياه الري ، والأيدي العاملة ، والخبرة ورأس المال . أماالتربة الزراعية فمتوفرة في قطرين عربيين هما السودان والعراق ، ففيهما مئات الملايين من الأفدنة الصالحة للزراعة التي لاتنقصها الا الفلاحة . أما المياه فهناك النيل ، وهناك دجلة والفرات ، وهناك بحيرات من المياه الجوفية العذبة ، ينبغي أن تسعى الاستراتيجية العربية للكشف عنها ، وأظن أن أعداء الامة العربية كانوا أفطن منها الى امكاناتها الزراعية المعطلة ، فحاولوا دائما ضرب الأمة في امكاناتها » أما الأيدي العاملة والخبرة فأعتقد أن مصر وأقطارا أخرى غيرها كفيلة بتوفيرهما . أما الأموال فيكفي رأس المال العربي من عائد النفط اغترابا ، وأظنه يحن الى أن يجند نفسه لشرف انقاذ الأمة العربية من الهلاك اذا هو رأى أمامه استراتيجية جادة مدروسة باتقان فمثل هذه الاستراتيجية ضمان أكيد لازدهاره على أي حال ، ولايدعي أحد أن النجاح في هذا التحدي أمر سهل المنال من قبل اخوة عرف تاريخهم الحديث من الخلاف أكثر مما عرف من الوفاق . وأعترف أن هذه أماني حسان . فهل ياترى لم يتبق للمواطن العادي في وطننا العربي ، في هذا الزمن الصعب ، سوى الأماني ؟ لست متشائما الى حد الظن أن يوما سوف يأتي تصبح فيه حتى أمانينا ترفا فارغا . وعلى العموم مازال من الضروري لنا أن نبقي على أمانينا ، وألا نفرط فيها أبدا . □

حنين

شعر :
الدكتور عبدالحميد محمود*

دمي إلى دمي يحنّ
تركت من دمي على الرمال زهرة
فصارت الشموسُ فوقَها ندى
وصارت الرمالُ حولَها مياه
فأورقتْ
وأورقتْ
وباحَ عطرُها بروْعةِ الحياة
وأذّن الحمامْ
فراحتْ الصقورَ فى تسبيحةٍ طويلة
وغابتْ الصخورُ فى الصلاة

* *

مسافرٌ
وكلما مددتُ خطوتى
تمدّدت على المدى الرمالْ
فأضربُ الرمالْ أضربُ الرمالْ
لكنّ خطوة الفتى لم تُخرج المياه
فأستديرُ مُتعبا
وبين دمعة . . .
. . . وزفرة
يُهلّ عطرُكَ الندى



* شاعر وكاتب من القطر المصري

فتنبض الحياةُ فى العروقْ
وتنطق المياه في الشقوق
وأستديرُ للمسيرِ من جديد
للبعيدِ
للبعيدْ
دمى إلى دمى يحنّ

* *

هذى خيامُهم على مشارف الزمنْ
ونكهةُ التاريخ فى إبريق قهوةٍ يدورُ بينهم
ناديتُهم
من فوق نخلةٍ على ضفاف كوثر
يسيرُ مجهدا إلى نهاية المدى
دُعيتُ أم دعوتُهم
وحين فاض تنور اللقا
أدرْتُ وجهي للأمام بيننا
فلم أجد على مشارف السماء
غير الربى الصفراء
ناديتُ نخلنا فلم يُجبْ
ناديت . . سيفنا فلم يجبْ
مُضيَّعٌ صراخُنا هباءٌ

فالمبتدى صحراء
والمنتهى صحراء

* *

النارُ فوقَ قشرة الأمان
من لفحة الشموس
لا بل إنها من لفحة النفوس
واشتهاء الصولجان .
فلْنضربْ الرمال .
لعلّ حين تبزغُ المياه . .
. . تنطفى النيرانْ
دمى إلى دمى يحنّ
جمعتُ فوقَ هودجى مباخرى
وسبحتى
وبسْملات سجْدتى
والسيف والدروع
وعطر أُمّتى
لعلّنى إذا فرشتها على المدى
تجمعَتْ هناك زهرة
تدورُ حولها المياه
وتصبحُ الشموسُ فوقها ندى



أرقام

بقلم : محمود المراغي

الفقر في عيون الأغنياء

لفترة غير قصيرة كان العالم فخورا أنه يتخلص تدريجيا من عار الفقر ، فالجوعى يشبعون ، والعرايا يلبسون ، ومن لا مأوى لهم يسكنون ، ويجدون العلاج والغذاء والتعليم .

كانت أدبيات التنمية وإحصاءات النمو ترصد كلها زيادة في الدخل والانتاج والاستهلاك، كما كانت تسجل تراجعا في نسب الوفيات ، لكن في السنوات الأخيرة أصبح الاتجاه عكسيا ، وجاء آخر تقرير عن التنمية في العالم يقول : « نعم ، الفاقة تتزايد » .

لم يستطع البنك الدولي ـ وهو صاحب التقرير الصادر في صيف ١٩٨٨ ـ أن يحصي عدد الفقراء ، لكنه ـ وهو المؤسسة التي تضم أغنياء العالم ـ لم يستطع أيضا أن يتجاهل ظاهرة الفقر .

في مناسبات سابقة كانت منظمات الأمم المتحدة قد سجلت ما يشير إلى تراجع الدخل في عديد من البلدان ، وفي دراسات عدة جرى رصد الشرائح التي تعيش تحت خط الفقر .

الجديد هو ما يقوله البنك بأن الفاقة تتزايد ، وأن مؤشرات ذلك واضحة .

في حقبة الثمانينيات ، وفي كثير من بلدان العالم تباطأ معدل النمو الاقتصادي ، وسجلت بعض البلدان نموا سالبا ، أي أن الدخل كان يتناقص عاما بعد عام ، وفي التفاصيل كان سكان الريف يحصلون على عائد أقل لمحاصيلهم ، وكانت الأجور الحقيقية ـ تحت مطرقة التضخم ـ تتراجع قيمتها ، وكانت البطالة ـ حيث لا أجر ولا دخل ـ تنتشر نتيجة للركود في المشروعات .

وكانت موارد الحكومات تدخل دائرة الفقر أيضا ، وتعجز عن أن تخصص قدرا مناسبا للخدمات ، وكان معظم هذه المؤشرات مالية أو نقدية .

الغذاء والصحة ـ الحياة والموت

على الجانب الآخر كانت هناك المؤشرات المادية المباشرة . الفقراء لا يأخذون كفايتهم من الغذاء الذي بات، جزء كبير منه في العالم الثالث مستورداً . لذا سجلت الأرقام أنه بين عامي (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠) زاد عدد الذين يعانون من نقص التغذية في البلدان النامية ـ باستثناء الصين ـ من (٦٥٠) مليون شخص إلى (٧٣٠) مليونا . وفي دراسة أخرى جرت حول (٣٥) بلدا ناميا اتضح أن (٢١) بلدا منها قد تراجع فيها نصيب الفرد من السعرات الحرارية ، وذلك إذا قارنا بين ما كان يحصل عليه الفرد عام ١٩٦٥ و ١٩٨٥ .

الصحة وجه آخر للفقر والثراء ، والتعليم وجه ثالث ، ونصيب الفرد من السكن الصحي والماء النقي والكهرباء وأدوات العصر كلها مؤشرات لا تخطىء حول القدرة الاقتصادية .

وقد تراجع نصيب الفرد في الصحة والتعليم في البلدان النامية المنخفضة الدخل بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٢ . وتشير دراسات البنك الدولي أنه في بحث حول بلدان نامية اتضح أن حصة الفرد من الأطباء تتراجع . وفي بحث آخر حول (١٢) بلدا افريقيا - جنوب الصحراء - اتضح أن نسبة الملتحقين بالتعليم الابتدائي تقل عن ذي قبل ، وعلى عكس الاتجاه التاريخي الذي يشير إلى أننا نعيش عصر التعليم .

هناك إذن - ولأسباب اقتصادية - نقص في الغذاء ، ونقص في الرعاية الطبية ، ومن الطبيعي أن يكون لذلك انعكاسه على نسبة الوفيات ومتوسطات الأعمار .

ومرة أخرى - وعكس الاتجاه التاريخي - تسجل الدراسات أنه من (١٩٦٩ - ١٩٨٣) انخفض متوسط العمر المتوقع في تسع بلدان افريقية جنوب الصحراء . وكذلك في النصف الاول من الثمانينيات زادت الوفيات بين الأطفال ، نتيجة لسوء التغذية وقلة الرعاية الصحية في عديد من البلدان ، ووصلت النسبة إلى الضعف في بعض البلاد مثل زامبيا .

وكل هذه المؤشرات تتجمع لتقول : الفقر يتزايد ، ومن يعيشون تحت خط الفقر في بلدان كثيرة تتضاعف أعدادهم .

لكنهم لا يفسرون

يذيع البنك الدولي هذه الأرقام ، لكنه لا يتحدث عن الأسباب : هل هي الظروف الطبيعية : الفيضانات والجفاف والتصحر وفساد الهواء من حولنا ؟ هل هي الظروف الاقتصادية التي أعقبت زيادة أسعار النفط ، وزيادة أسعار السلع الصناعية ، ونقص أسعار الخامات التي ينتجها العالم الثالث ؟ هل هي الديون التي أثقلت كاهل الفقراء ، فأصبح همهم الأول أن يسددوا شيئا مما فات ، حتى يستمروا في الاقتراض ، ويواجهوا ما هو آت ؟ هل هي الإدارة السيئة في البلدان النامية - سواء كانت الإدارة السياسية أو الإدارة الاقتصادية وإدارة الموارد - أو أن الأمر غير ذلك ، ويتعلق باستغلال العالم الأول للعالم الثالث ، وهو استغلال يبدأ بتحكمه في الأسعار العالمية ، ويمتد لإلقائه بالنفايات النووية السامة إلى بحار وأراضي العالم الفقير ، وكأنها قد أصبحت مزبلة العالم ؟

البنك الدولي لا يقدم ردا واضحا ، لكنه يطلب من الجميع التكيف مع الظروف ، ويضع بالتعاون مع صندوق النقد الدولي السياسات اللازمة لذلك . ويروح ضحيتها في العادة الفقراء أيضا !

ومن الطبيعي - أو هكذا نفترض - أن يكون للعالم الثالث تفسيره للأزمة ، واجتهاده للحل .

من الطبيعي أن نقول إن كل الأسباب السابقة صحيحة ، لكن ليس من الطبيعي أن نأخذ موقف المراقب ، أو المترقب ، أو التلميذ البليد في فصول المؤسسات الدولية .

نعم ، هناك ظروف طبيعية ، لكنها ليست كل شيء ، وبعضها يمكن مقاومته ، مثل التصحر ، وفساد الجو .

ونعم ، هناك ظروف دولية ومحلية ، لكن المهم كيف نواجه هذه الظروف ؟

المطلوب : نمط آخر من التفكير ، نمط آخر من الحياة والاستهلاك والإنتاج ، المطلوب نمط آخر من السياسات الاقتصادية والاجتماعية .

المطلوب : عالم ثالث مستقل ، يتفاعل مع الآخرين ، لكنه لا يقع أسيراً لما يقررون . وبالأمس ، كان خير العالم تجرى قسمته دون عدل ، وكان الثراء لدول الاستعمار ، والفقر والتخلف لدول الجنوب التي داستها أقدام الرجل الأبيض .

أما اليوم فإن هذا الخير نفسه تجري قسمته بنفس القدر من الظلم الإنساني ، لكن تحت ثياب جديدة ، فالمعرفة أغلى من المادة الأولية ، والخبير أهم من الآلة ، وسوق السلاح أهم من سوق الخبز ، وساعة عمل لرجل في الشمال تفوق قيمتها عدة ساعات عمل لرجل جنوبي ، حتى لو أنتج الشيء نفسه بالجودة نفسها ! □



جبران بين أبناء جيله

بقلم / الدكتور علي شلش

في عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، ولدت كوكبة من المبدعين والمفكرين كان لهم دور عظيم الأهمية في النهضة الفكرية والأدبية العربية المعاصرة ، وما تزال نتائجها تتفاعل مع مكونات واقعنا بعد رحيلهم جميعا . من بين هؤلاء برز جبران خليل جبران بابداعاته في اللغتين العربية والانجليزية .
فأين هو منهم ؟

ولد جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) في عقد الثمانينيات من القرن الماضي وهو عقد قد شهد مولد جهرة من الشعراء والأدباء العرب ، عاصروا جبران ، وكان لهم واياه دور مرموق في نهضة الأدب العربي الحديث وتوجيهه نحو دروبه المعاصرة . ومع أن جبران نفسه لم يكن منعزلا عن معاصريه فمن المهم والمفيد أن ندرس أدبه داخل اطار المعاصرة الذي جمع بينه وبين هؤلاء ، لنرى إلى أي مدى اختلف عنهم أو اضاف إليهم ، وكيف نظروا إلى كتاباته ، وصدى ذلك عنده .

وإذا كان معظم البارزين من معاصري جبران ولدوا في مصر ، فبعضهم ولدوا في لبنان وسورية .
أما الذين ولدوا في مصر فيأتي على رأسهم :
مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧) واحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨) وعبدالرحمن شكري (١٨٨٦ - ١٩٥٨) واحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤) ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦) وطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) وعباس العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٣) وابراهيم عبدالقادر المازني (١٨٩٠ - ١٩٤٩) .

وأما الذين ولدوا فى لبنان وسورية فيأتى على رأسهم :

أمين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠) وبشارة الخورى أو « الاخطل الصغير » (١٨٨٥ - ١٩٦٨) ونسيب عريضة (١٨٨٧ - ١٩٤٦) ورشيد سليم الخورى أو « الشاعر القروى » (١٨٨٧ - ١٩٨٦) وميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨) وايليا أبو ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) .

ومن الملاحظ أن اثنين من هؤلاء ولدا على اطراف الثمانينيات ، وهما الريحانى والمازني ، أما الباقون فولدوا على مدارها . ومن الملاحظ أيضا أن ابداع الأدب ، شعرا ونثرا شغلهم جميعا . ومنهم أربعة زاملوا جبران فى أمريكا الشمالية ، وهم الريحانى وعريضة ونعيمة وأبو ماضى . والثلاثة الآخرون ساهموا معه فى تأسيس « الرابطة القلمية » فى نيويورك عام ١٩٢٠ . ومن هؤلاء وأولئك أيضا واحد شاركه فى تجربة الاغتراب ولكن عن بعد ، وهو الشاعر القروى الذي عاش فى امريكا الجنوبية . بل إن ثلاثة منهم كانوا أكثر قربا من القدماء فى الشعر وأقل اقبالا على التجديد ، وهم الرافعي والأخطل الصغير والقروى ، ومع ذلك كانت روح المعاصرة ترفرف على انتاجهم بشكل عام ، وتربط بينهم فى سعيهم المشترك نحو مواكبة العصر ، والإحساس بمسؤولية الكلمة وتبعة الأديب .

فإلى أي مدى - إذن - اختلف جبران عنهم ؟

جيل الإستمرار والتجديد

من المعروف أن عقد الثمانينيات شهد بداية التغلغل الأوروبى الرسمي عن طريق الغزو أيضا . فقد سقطت تونس فى أيدى الفرنسيين عام ١٨٨١ ، وسقطت مصر فى أيدى الانجليز فى العام التالى . وكان معنى هذا ازدهار الصلة الثقافية بين العرب وأوروبا ، بالاكراه أو بالاختيار . وفى هذا الاطار كان جيل جبران مطالبا بالمحافظة على الهوية العربية من ناحية ، والاستمرار فى الأخذ من الثقافة الغربية من ناحية أخرى ، لا سيما فى مجال الأنواع والأشكال الأدبية التي لم يطورها العرب ، مثل الرواية والمسرحية والمقالة والنقد ، فضلا عن المضى فى العطاء والابداع .

نجح جبران وأبناء جيله هؤلاء فى تحقيق هذه المعادلة الصعبة بوجه عام ، فاستطاعوا أن يحافظوا على الهوية العربية فيما يبدعون ، وأن يطوروا الأساليب الشعرية ، وان ينضجوا تجارب الجيل الأسبق - مثل المويلحى والمنفلوطي فى المقالة والرواية والقصة القصيرة . لكن جبران نفسه لم يصل إلى ما وصل إليه بعض أبناء جيله فى القصة والرواية والشعر بشكل خاص ، لافى الكم ولا فى الكيف كما سنوضح بعد قليل .

إذا كان معاصرو جبران هؤلاء قد تميزوا بتنوع الأنواع والأشكال الأدبية فى الشعر والنثر ، فقد تميزوا أيضا بعمق الصلة التى ربطت معظمهم بالآداب الأوروبية . لكن جبران والريحانى ونعيمة تميزوا بأنهم كتبوا بلغة غير لغتهم ، ثم تميز جبران نفسه على زميليه باتساع تجربته إلى حد القسمة العادلة تقريبا بين ما كتبه بالعربية (ثمانية كتب) وما كتبه بالانجليزية (ثمانية أخرى) . وإذا كانت المؤثرات الأوروبية قد ظهرت بوضوح فى انتاج أبناء جيله - باستثناء الرافعي والخورى والقروى - فقد ضم اليها جبران مؤثرات أخرى من الفلسفةالبوذية والشعر الأمريكى ، فضلا عن الكتاب المقدس بعهديه .

ومن الطبيعى أن يتفاوت جبران ومعاصروه فى الأخذ من الثقافة الأوروبية ، والتجريب داخل مجال الأنواع والأشكال التى تركها قدماؤنا دون تطوير ، بل داخل مجال الشعر الذى لم يكونوا فى حاجة إلى العنف فى تطويره بمقدار ما كانوا يريدونه على مستوى عصرهم شكلا وموضوعا ، ولذلك تفاوتت حصيلة اجتهاداتهم النظرية والتطبيقية على السواء .

وبينما نجح محمد حسين هيكل فى تقديم نموذج ناضج فنيا من الرواية قبيل الحرب العالمية الاولى ، وهو روايته « زينب » ، نجح ميخائيل نعيمة ايضا فى

تقديم نماذج ناضجة مماثلة فى القصة القصيرة جمعها فى مجموعته « كان ما كان » التى ظهرت عام ١٩٣٧ ، وان كان نشر بعضها فى نيويورك فى الفترة من ١٩١٤ إلى ١٩٢٥ . وبينما كان هيكل ونعيمة رائدين فى هذا المجال القصصي ، لا نجد فى محاولات جبران القصصية ما يرقى من الناحية الفنية إلى صنيع زميليه . وبينما جرب معظم معاصرى جبران الكتابة فى النقد ونظرية الأدب وتاريخه لم يقترب هو من هذا المجال . وفى الوقت الذى كتب فيه بعضهم ألوانا من أدب الرحلات والسيرة العامة والذاتية لم يدخل هو مثل هذه المجالات . وإذا كان قد جرب كتابة الدراما التمثيلية فلم تكن حصيلة ما كتبه فيها تضارع فى نضجها الفنى حصيلة زميله نعيمه منها . ولذلك تظل أهم الأشكال والأنواع الأدبية التى شارك فيها معاصريه هى القصيدة منثورة أو منظومة ، والمقالة .

لقد كتب الجميع الشعر باستثناء ثلاثة ، هم هيكل والزيات وأحمد أمين ، وكتب الجميع المقالة الأدبية باستثناء ثلاثة ايضا هم الخوري والقروي وأبو ماضي . لكن ظل الجميع ـ بغير استثناء ـ يولون الشعر جل عنايتهم . ومع ذلك يمكن أن نلاحظ مستويين واضحين فى القصيدة عند من كتبوها منهم : مستوى يلتزم بنموذج القدماء ويضم طه حسين فى شعره القليل غير المجموع ، كما يضم الرافعي والاخطل الصغير والقروى . ومستوى آخر يتطلع الى نموذج عصرى حتى وهو يستخدم بحور القدماء ، ويضم جبران والريحاني ونعيمة والعقاد وشكرى والمازني وأبا ماضى وعريضة . وهذا المستوى يشكل أغلبية أبناء الجيل ، كما هو واضح . وفيه حرص اصحابه على الدعوة النظرية إلى التجديد مع تقديم تطبيقاتها العملية باستثناء جبران وأبي ماضي وعريضة الذين كانوا أقل زملائهم تشريعا للشعر وسنا لقوانين الابداع . وكان جبران أقلهم فى المعاصرة مع الشكل باستثناء شعره المنثور الذى خرج فيه نهائيا على نظام العروض والقوافى . بل إن ما جمع من قصائده السائرة على هذا النظام الموروث يقل عما جمع لكل من زملائه باستثناء الريحانى الذى استقر على الشعر المنثور . وبينما لا تزيد مغامرة جبران فى الأشكال الموروثة على المقطوعات والتنويع فى القوافى ، نجد بعض زملائه من أصحاب المستوى الأخير يتوسعون فى إرسال القافية مثل عبدالرحمن شكرى ، أو التقطيع داخل الأبيات مثل نسيب عريضة .

وكان أصحاب هذا المستوى المتطلع إلى نموذج عصرى للقصيدة يطلبون من الشاعر أن يحرص على الوحدة العضوية والفنية فى القصيدة ، وأن يصور وجدانه ويترجم مشاعره ، لا أن يحاكى أو يتكلف .

وكانوا يطلبون من هذا وذاك المنطق والتحليل والنقد العميق ، مثلما فعل العقاد والمازنى ونعيمة الذين كانوا أكثر زملائهم تنظيرا وتشريعا . لكن جبران كان مختلفا ، فلم يكن ناقدا ولا عارفا بالمنطق والتحليل ، وإنما كان يقول ما يحسه بطريقة أقرب إلى الخيال والتهويم ، مع أنه لم يخرج على ما قاله زملاؤه من أصحاب المنطق والتحليل .

لنتوقف هنا عند مثال يوضح ما نقوله ، وليكن المثال حول مفهوم اصحاب هذا المستوى ـ ومنهم جبران ـ للشعر . فقد قال العقاد « إن الشعر هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق » وقال طه حسين « إن الشعر كلام مقيد بالوزن والقافية يقصد الى الجمال الفنى » وقال المازني « إن الشعر خاطر لايزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجا ويصيب متنفسا » قال نعيمة « إن الشعر لغة النفس » ، ومع أن هذه الأقوال ليست كل ما قاله هؤلاء عن الشعر ، فهى تتميز بالمنطق وتتسربل بالوضوح ، على نقيض قول جبران « إن الشعر ياقوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيى القلب أو تنهدة تسرق من العين مدامعها ، أشباح مسكنها النفس ، وغذاؤها القلب ، ومشربها العواطف ، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب ، نبذه أوقى » .

ومع ذلك لم يختلف هذا التعريف المموه بالخيال مع تلك التعريفات المنطقية الواضحة التى يتمم أحدها الآخر

شاعر النثر

لكن جبران لم يكتب شعره على طريقة العقاد وطه حسين والمازنى ونعيمة وحدها ، وما كتبه على هذه الطريقة التقليدية ـ إذا صح أن نسميها كذلك من حيث الشكل ـ قليل كما أشرنا ، وهو قليل تفوق عليه ـ كما وكيفا ـ الكثير الذى كتبه العقاد والمازنى وشكرى وأبوماضي على وجه التخصيص . ومع ذلك عوض جبران هذا القليل بالكثير من النثر الذى كان أقرب إلى الشعر فى الروح والخيال والصور ، وإن كان غير موزون أو مقفى . وهذه حال ابن جيله مصطفى صادق الرافعى أيضا الذى كتب شعرا اكثر مما كتب جبران ، ولكن نثره يظل أفضل من شعره لا سيما فى ثلاثيته : رسائل الأحزان ، السحاب الأحمر ، أوراق الورد . وعلى الرغم من هذا يظل جبران أيضا شاعر النثر بين زملائه ومعاصريه . ومن هذه الناحية تفوق على الرافعى الذى يبدو أنه تأثر به فى ثلاثيته المذكورة . فقد انتجها بعد اشتهار جبران فى العربية ، كما تفوق على زميل مهجره أمين الريحانى الذى نشر شعرا منثورا فى مجلة « الهلال » منذ ١٩٠٥ ، أى فى نفس الوقت تقريبا الذى ظهر فيه أول اعمال جبران بعنوان « الموسيقا » وليس من الغريب أن يكون نثره فى هذا المقال المطول وما تلاه من أعمال من أهم المؤثرات ـ بعد ذلك ـ فى تطور ما سمي « قصيدة النثر » فى أدبنا المعاصر .

بم يتميز نثر جبران الشعرى أو شعره المنثور ؟
أبرز خواص هذا النثر أنه أشبه برشاش
ـح أن تحل الصور محل الرصاص . فهو
ـصور فى اندفاع لا يوهنه إلا احساسه
بانتهـ مهمة الرش ، ولا يوقفه إلا سكون الانفعال الذي يحركه . وهذه فقرة من « الموسيقا » يخاطبها جبران بقوله :

« يا ابنة النفس والمحبة . يا إناء مرارة الغرام وحلاوته . يا أخيلة القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة . يالسان المحبين ومذيعة أسرار العاشقين . يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة . يا موحية الشعر ، ومنظمة عقود الأوزان . يا موحدة الأفكار مع نتف الكلام ، مؤلفة المشاعر من مؤثرات الجمال ، يا خمرة القلوب الرافعة شاربها إلى أعالى الأخيلة . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين ، يا أيتها التموجات الأثيرية الحاملة أشباح النفس . ويابحر الرقة واللطف إلى امواجك نسلم أنفسنا ، وفى أعماقك نستودع قلوبنا ، فاحمليها إلى ما وراء المادة ، وأرينا ما تكنه عوالم الغيب » .

فى هذا المثال المبكر من النثر الجبرانى يتمثل رشاش الصور . وتنهمر هذه الصور علينا غير تاركة لنا فرصة التأمل فيما تحمله من أفكار . ومع أن أكثر الصور غير محسوس ، فثمة شيء ما يربط بينها ، ويعوضنا عن رتابة أدوات النداء وضعف الايقاع ، هو وحدة الانفعال والعاطفة . لكن هذه الوحدة لا تغنى ـ على المدى الطويل ـ عن الفكر الشاحب هنا ، ولا عن الثرثرة.وتلك هى مشكلة النثر الجبرانى في النهاية ، لاسيما فيما كتبه بالعربية . فما اكثر ما نواجه فيه من تكرار واستطراد ، ولف ودوران ، وما أقل ما يخرج منه بزاد فكرى معمر . ومع ذلك فهو نثر يتميز بالسيولة أيضا ، كما يتميز بشحنات عاطفية قوية ، وخيال واسع ، وجمال مغر ، بغير كدح ولا نحت . لكن أليست هذه كلها خصائص بعض نثر طه حسين أيضا لا سيما فى كتابه « على هامش السيرة » ؟

بقي على رومانتيكيته

لم تطل حياة جبران مثلما طالت حياة معظم أبناء جيله . ولم تمكنه حياته القصيرة نسبيا من التجريب فى أنواع أخرى من الأدب مثل السيرة والسيرة الذاتية اللتين جربهما العقاد وطه حسين وميخائيل نعيمة ، ولا فكر فى تدوين أسفاره وكتابة رحلاته مثلما فعل أمين الريحانى ، ولا كانت قدراته الثقافية والعقلية تؤهله لكتابة النقد . ولم ينفرد من بين أبناء جيله

هؤلاء إلا بالرسم والانقطاع تقريبا عن الكتابة بالعربية بعد عام ١٩٢٠ .

غير أن من أهم الملامح الفنية العامة في أدب جبران ومعاصريه ذلك المزاج الرومانتيكي الذى وحد بينهم ـ في مرحلة الشباب بصفة خاصة ـ وطبع كتاباتهم المبكرة بالعديد من الخصائص الرومانتيكية الأوروبية ، وعلى رأسها التمرد ، والعاطفة ، والخيال ، والحزن ، والشعور بالغربة ، والميل إلى الفطرة والطبيعة ، واتخاذ المرأة حبيبة ملهمة . ولكن معظم زملائه مالبثوا أن تحولوا ـ شيئا فشيئا ـ إلى العقلانية والوضوح ، ومالوا إلى الصياغة الكلاسيكية ، وبقي هو على رومانتيكيته ، وزاد عليها شيئا من الرمزية ، وقاوم كلاسيكية التعبير وعقلانيته حتى النهاية . ولهذا كان من أكثر ابناء جيله جذبا للشباب ، كما حدث في الثلاثينيات حين ألهم كثيرين من شعراء جماعة أبوللو ، وأثر في بواكير أعمالهم .

هل أخذ بنصيحة العقاد ؟

كيف نظر معاصروه وأبناء جيله إلى أدبه ؟ تفاوتت هذه النظرة ـ على أى حال ـ لكنها لم تخفِ الاعجاب العام بكتاباته . فشاعر مثل ايليا أبي ماضي أزعجته شكوى جبران شبه الدائمة من الغربة والناس والزمان فقال فيه قصيدة جميلة منها :

أيهذا الشاكي وما بك داء
كيف تغدو ، إذا غدوت عليلا
إن شر الجناة في الأرض نفس
تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمى
أن ترى فوقها الندى اكليلا
هو عبء على الحياة ثقيل
من يظن الحياة عبئا ثقيلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا
ايهذا الشاكي وما بك داء
كن جميلا تر الوجود جميلا

شاعر آخر مثل نسيب عريضة لم يدع فرصة دون الثناء على شعر جبران ونثره في مقدماته لأعماله التى نشرها له بمجلته « الفنون » في نيويورك . كذلك فعل ميخائيل نعيمة الذى كتب عنه أول مقال في حياته عام ١٩١٣ . ثم تلاه بمقالين في كتابه « الغربال » عام ١٩٢٣ . وعده « ثورة قبل كل شيء . . ثورة بحد ذاته » ووصفه بأنه صاحب مفهومية جديدة عن الجمال في التنسيق والبيان . وتنبأ لأدبه بتقديس الذكر وطول العمر ، لانه « ثورة زعزعت اركان حصوننا الأدبية المتداعية ، وجاءتنا بمقاييس جديدة للجمال في البيان » على حد تعبيره .

ومع ذلك لم يثبت نعيمة على هذه الآراء المجاملة طويلا . فعندما قدم الطبعة التى ضمت أعمال جبران العربية عام ١٩٤٩ بدأ في إعادة النظر في أحكامه السابقة ، واضاف ملاحظات سلبية على كتابات جبران . ومن هذه الملاحظات أن الحياة لم تُعِدّ جبران لفن القصة ، فلم يبدع فيه أو يحلق ، وأنه ما دان يوما بقوة الواقع وحقيقته . ودان كل حياته بحقيقة الخيال وسلطانه ، وأن مقطوعات الشعر المنثور والمثل والموعظة كانت « الأقرب إلى ذوقه ومزاجه وفطرته الفنية من كل ما عداها من ضروب الأدب » وأن فكره بسيط ، لم يقو إلا في كتاباته الانجليزية .

لم يكن معاصرو جبران في مصر في حاجة إلى مجاملته على أى حال . ولكن مما يلفت الانتباه أن هيكل وطه حسين والمازنى والعقاد أجمعوا في وقت متقارب على الإعجاب بكتابات جبران وموهبته وخياله واستقلال روحه ، وتجديده ، ثم أخذوا عليه في الوقت نفسه تساهله في اللغة وأصولها إلى حد الركاكة والضعف والخطأ . وكان العقاد أولهم وأوضحهم في بيان هذا الموقف . فقد كتب مقالا عام ١٩١٩ في نقد قصيدة « المواكب » التي قدمها نسيب عريضة بأنها نموذج للشعر الصحيح . وانكر العقاد هذا الحكم ، وإن اعترف بأن « ناظمها يفكر تفكير شاعر » على حد قوله . ثم أخذ على القصيدة ما وقعت فيه من الخطأ اللغوى ، وضعف التركيب ،

وغلبة العبارة النثرية على النغمة الشعرية . وذكر جبران بأنه « إذا كان يحترس من الوقوع في مثل هذا الخطأ لو كتب باحدى اللغات الغربية ، فالاحتراس في الكتابة العربية أولى » ، ومع ذلك أشار العقاد إلى أنه قرأ في القصيدة « أبياتا من أصدق الشعر وأحكمه » ثم اختتم نقده ناصحا بقوله « عندنا أنه لو طرق باب الشعر المنثور لكان ذلك أفسح مجالا لآرائه وأقرب إلى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون . وحبذا لو أقل من المعاني الرمزية ، فإنها بقية من بقايا ابهام الكهان الأقدمين ، لايقبلها في العصور الحديثة إلا اشباه أتباع الكهان فيما تصرم من العصور » .

ويبدو أن جبران أخذ بالشطر الأول من نصيحة العقاد ، فلم يكرر تجربته مع الشعر الموزون ، وانصرف إلى الشعر المنثور حتى بعد انصرافه عن الكتابة بالعربية في العام التالي . وقد اتفق حكم نعيمة هنا مع حكم العقاد بعد ٢٠ عاما حول قرب الشعر المنثور إلى ذوق جبران ومزاجه وسليقته .

التعالي على النقد

غير أن جبران ـ كما ذكر نعيمة في سيرته التي كتبها له بعد وفاته ـ كان يسعى وراء المدح ، وينفر من النقد والقدح ، وهذا ما يفسر ضيقه الشديد ـ في بعض كتاباته ـ بما كان يكتبه عنه معاصروه . وكثيرا ما كان هذا الضيق يتحول إلى عناد وغضب أعمى ، فينفس عنه بالتعالي على النقد والملاحظات السلبية .

ومن أشهر مقالاته في هذا الصدد مقاله « لكم لغتكم ولي لغتي » ومقاله « نحن وأنتم » وإذا كان المقال الأول واضح المرمى في عنوانه ، فقد جاء في المقال الآخر قوله في الرد على لوم ابي ماضي وزملائه : « نحن ابناء الكآبة ، والكآبة غيوم تمطر العالم خيرا ومعرفة وانتم اولاد المسرات . ومهما تعالت مسراتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمها الرياح ، وتبددها العناصر » وفي مقال ثالث بعنوان « الشاعر » قال في مستهله : « أنا غريب في هذا العالم » وقال في ختامه : « أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة ، وأنثر ما تنظمه . ولهذا أنا غريب ، وسأبقى غريبا حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني » .

وفي هذه المقالات الثلاث ـ بصفة خاصة ـ يكمن سر جبران ، ويمشش جوهر رؤيته ، ويتضح مفتاح عالمه . ويتكون هذا المفتاح نفسه من ثلاث مفردات اشبه بالأعمدة ، وهي : التمرد والتحدي والتعالي ؛ فهو يتمرد أولا على ما لا يروق له أو يخالفه ، ثم يتحداه ، لكنه يتعالى عليه في النهاية ويتجاوزه .

وكأن الأمر دورة ثلاثية المراحل في تفكيره وابداعه على الرغم من بعض الاستثناءات القليلة التي تؤكد هذا النمط ولا تنقضه . وقد كان التمرد والتحدي خاصيتين بارزتين في فكر بعض أبناء جيل جبران ، لا سيما طه حسين . ومع ذلك كان طه حسين يزيد عليهما المواجهة بدل التعالي . ويبدو أن التعالي أو الهروب ، كان صعب التحقيق داخل الوطن العربي ، حيث الاشتباك اليومي مع الحياة والبشر والأفكار والصراعات . أما في المهجر فكان أمرا لا مفر منه أمام المغترب الذي تفصله آلاف الأميال عن وطنه ، وكان التعويض عنه يتم عن طريق الحنين والتعبير عن الشوق إلى الوطن ، أو ذكر الوطن كلما ألمت به نازلة من النوازل .

نستطيع أن نخلص مما سبق إلى أن جبران لم يختلف كثيرا في كتاباته العربية ، شعرا أو نثرا ، عن معاصريه وأبناء جيله . وإذا كان هؤلاء تميزوا بتنوع الأشكال الادبية والإجادة في هذه الاشكال ، فقد تميز هو بالشعر المنثور وأجاد فيه . وإذا كانوا قد واصلوا رحلتهم مع الكتابة العربية فقد خلطها هو بالرسم والتصوير الزيتي ، ثم قطعها ، واتجه نحو الكتابة بالانجليزية التي لا نستطيع ادخالها في مجال المقارنة بينه وبينهم ومع أن أبناء جيله رحبوا بكتاباته وأثنوا على موهبته ، بوجه عام ، فهم لم يغفروا له التهاون في حق اللغة والتعبير ، مما كان مثار غضبه وتعاليه□

الكوكايين

شمبانيا المخدرات

بقلم : الدكتور جمال الدين موسى *

الكوكايين من المخدرات التي بدأت في الانتشار مؤخرا في أماكن مختلفة من العالم . وعلى الرغم من أنه من العقاقير القديمة التي عرفها الانسان منذ عهد بعيد ، إلا أن الاهتمام الحديث به قد يعود الى الثمن الخيالي لهذا السم الأبيض الذي أصبح يغري عصابات المهربين على تهريبه وترويجه ، والكاتب يناقش بالتفصيل موضوع الكوكايين وأثره على الانسان .

لن نتناول في حديثنا هنا عن الكوكايين ، الصراعات الدامية المختلفة التي تجري في ساحات التهريب ، أو كيفية مكافحة هذا المخدر الذي تحرم التشريعات المدنية والدينية حيازته أو استخدامه أو ترويجه أو تعاطيه ، ولكننا سنعرض لأثره كمخدر على هذا المخلوق الذي ميزه الله على سائر المخلوقات ، وحباه بالعقل الذي يميز بين الخير والشر وبين الصالح والطالح .. الانسان .. !

وبداية ، قد يتساءل القاريء : ما هي العلاقة التي تربط الكوكايين بالشمبانيا ؟

والإجابة ببساطة : إنه إذا كانت الشمبانيا بين الخمور هي من أغلاها وأبهظها ثمنا ، فان الكوكايين بين المخدرات هو أيضا من أغلاها وافدحها ثمنا ، وهو السبب في أن الكوكايين يطلق عليه اسم مخدر الرجل الغني ، وفي بعض الأحيان يعرف باسم شمبانيا المخدرات .

والكوكايين منتج طبيعي نباتي يستخرج من أوراق شجرة الكوكا .

وهذه الشجرة موطنها الأصلي في أمريكا الجنوبية ، خاصة في بيرو وبوليفيا حيث تتواجد في الوديان الدافئة التي ترتفع فوق سطح البحر مدى خمسة آلاف قدم .

وفي الأحوال الملائمة فان النبات يعطى محصولا أربع أو خمس مرات في العام الواحد ، وذلك على

* استاذ بكلية العلوم ـ جامعة عين شمس .



الأفيون يصبح هيروين

مدى ٤٠ سنة متعاقبة . . .

والكوكايين من أقدم العقاقير ، وقد عرفه هنود الأنكا ، السكان الأصليون لامريكا الجنوبية فكانوا يقومون بمضغ أوراق الكوكا في الفم لعدة ساعات للاستحلاب فتمدهم بالمادة الفعالة وهي الكوكايين التي تنشط جهازهم العصبي ، ويكون لها تأثير مخدر على المعدة فلا يشعرون بالجوع . .

قرابين للآلهة :

وكان هنود الانكا يقصرون استخدام أوراق الكوكا على النبلاء ورجال الدين وذوي المكانة المرموقة الجليلة بين الناس ، وكانت الأوراق تقدم قرابين للآلهة ، وتمضغ في الفم خلال العبادات ، وتوضع في أفواه الموتى لضمان الترحيب بالمتوفين في العالم الآخر طبقا لمعتقداتهم .

وبعد الغزو الاسباني لبيرو منع تعاطي الكوكا ، وحرم استخدامها واستعمالها لفترة من الزمن . ولكن لم يلبث الإسبان أن اكتشفوا أنهم هم الخاسرون في عملية التحريم المشار اليها إذ وجدوا أن الهنود ـ وهم السكان الأصليون في بيرو ـ يمكن استغلالهم في القيام باعمال أكثر مع تناول وجبات أقل من الطعام إذا ما سمح لهم بتعاطي الكوكا ، ومضغ أوراق هذا النبات خلال قيامهم بالعمل .

وهكذا بدأ صرف جراية يومية من أوراق الكوكا لكل عامل ، واستمر اتباع هذا التقليد حتى أصبح عادة سارية متبعة .

وقد يتساءل القارىء : وما فائدة هذا الكيس الثاني الذي يحوي رمادا نباتيا ، والاجابة على ذلك أنه لكي تمضغ أوراق الكوكا تغمس الأوراق في

قدر ضئيل من الرماد النباتي ، فتتحول في الفم الى قطعة يسهل مضغها ويستمر المضغ لمدة ساعات ويستمر الاستحلاب ويستمر الشعور بأثر المخدر وتأثيره . . .

فرويد والكوكايين :

وقد عرفت اوروبا نبات الكوكا في القرن السادس عشر لكنه ظل في طي النسيان حتى قرب نهاية القرن التاسع عشر حين بدأ الاهتمام به .

ففي عام ١٨٨٤ بدأ سيجموند فرويد سلسلة من التجارب على النبات ، ونشر عديدا من التقارير عن نبات الكوكا وعن الكوكايين .

ولسيجموند فرويد قصة مع الكوكايين . .

لقد كان سيجموند فرويد مدمن أفيون وكان يريد أن يتخلص من أسر هذا المخدر ومن طغيانه ومن جبروته ، وان يقلع عن تعاطيه ، وظن للوهلة الاولى أنه يمكن أن يجد ضالته في الكوكايين للخلاص من أسر الأفيون والفكاك منه .

بدأ فرويد يتعاطى الكوكايين ، وكان من المتحمسين له في باديء الامر، بل إنه أطلق عليه اسم « العقار السحري » وادعى أن له قدرة علاجية، وانه يمكنه أن يخلص المدمن من ادمان الافيون والمورفين ومن أعراض الهبوط والتعب الشديد .

ولكنه لم يلبث أن وجد في نهاية الامر وبعد التجربة أنه واهم، وانه كان يسعى الى سراب ، وانه عاش لكذوبة كبرى فاعترف في نهاية الأمر بأخطار الكوكايين ، وبأنه فشل كعلاج لحالة ادمان الافيون . .

كوكا كولا بالكوكايين . . . !

وكان للكوكايين في أمريكا في نفس الفترة ، أي خلال القرن التاسع عشر قبول عند الجمهور ، وشيوع ورواج كعلاج لكثير من الآلام ، وكان يُضمَّن في كثير من الوصفات الطبية . وكان أكثر استخداماته وأعمها وأكثرها شيوعا استخدامه في مشروب الكوكا كولا الأصلي الذي كانت تدخل في تركيبه مواد نكهة مستخلصة من أوراق الكوكا .

ولكن لم تلبث الحكومة الأمريكية أن أصيبت بالفزع من تفاقم عدد الامريكيين الذين تكونت لديهم عادة تعاطي الكوكايين فمنعت استخدام العقار . وفي عام ١٩٠٦ عدلت لائحة الأغذية والعقاقير الامريكية لتتضمن بندا يمنع استخدام الكوكايين . وبعد ذلك بثماني سنوات أي في عام ١٩١٤ صدر تشريع هاريسون الذي بمقتضاه تم تضمين الكوكايين في قائمة المخدرات .

ومنذئذ أصبح احراز الكوكايين يواجه نفس العقوبات التي تطبق على احراز المخدرات الاخرى كالافيون والهيروين والمورفين .

وفي الأربعين سنة التالية قل الاقبال على تعاطى الكوكايين وخف الطلب عليه .

عود على بدء :

ولكن حدث خلال السبعينيات في القرن العشرين أن عاد الكوكايين الى شارع الاستهلاك ، وأصبح من أكثر المخدرات شيوعا . وكانت الظواهر التي تدل على ذلك هي كثرة كمية الكوكايين التي تضبطها أجهزة مكافحة التهريب والتقارير الطبية عن أحوال المدمنين ومتعاطي المخدرات ونوعية المخدر .

واليوم فان الكوكايين يباع بأسعار فادحة باهظة لأنه نادر باهظ الثمن، فقد أصبح يطلق عليه كما أسلفنا شامبانيا المخدرات . كما يعرف هذا المخدر في أوساط التهريب والمخدرات باسم « مخدر الرجل الغني » وإن ندرته وشبكة توزيعه المعقدة تضاف جميعاً الى سعره الباهظ .

ويأتي الكوكايين في ثلاثة أشكال ؛ الشكل الصخري ثم الشكل القشري أي في صورة قشور ، أما الشكل الشائع فهو البودرة .

وغالبا ما يتم اضافة مواد أخرى تصنع في المعمل . ومن هذه المواد مادة البروكين ، ومادة البنزوكين ومادة السبيد . . .

ويكون الكوكايين النقي في صورة مسحوق بلوري أبيض أشبه بالسكر ومن هنا كانت تسميته بالجليد .



المخدرات بواسطة الحقن ، النوع الأكثر شيوعا

آثار الكوكايين على من يتعاطاه :

إن الكوكايين مخدر فائق القوة يمكنه أن يحدث تغييرا واضحا في الحالة « السيكوفسيولوجية » لمن يتعاطاه ، أي في حالته النفسية وفي وظائف أعضاء جسمه ، وهو بطبيعة الحال تغيير وتأثير الى الأسوأ .

وخلال التاريخ كانت أوراق الكوكا وهو النبات الذي يستخرج منه الكوكايين كما أسلفنا ، تستخدم كأحد المعطيات الطبيعية للطاقة ، فقدرة النبات على تقليل الاحساس بالجوع والتعب وحفز النشاط العضلي كانت شيئا معروفاً،وهو تأثير يعتقد البعض أنه يرجع الى ما يصاحب تعاطي الكوكايين من زيادة الحامضية في الدم وتنشيط عملية تحويل المواد الكربوهيدراتية في الجسم الى الطاقة . .

ومع ذلك فان البحوث التي أجريت في هذا الصدد لم تصل الى علاقة مباشرة توضح أثر الكوكايين على أعصاب الحركة والعضلات .

إن الكوكايين كعقار مخدر ينتج عنه أثران مختلفان وغير متصلان . أما الأثر الأول فهو أنه يعمل كمخدر موضعي فيتسبب في ايقاف توصيل الاشارات الكهربائية والنبضات في الألياف العصبية لفترة قد تتراوح بين عشرين دقيقة الى أربعين دقيقة ، وذلك لقدرته على التدخل في حركة ايونات الصوديوم خلال الخلية العصبية .

أما الأثر الثاني أو الفعل الثاني فهو أنه منبه ومنشط قوي للجهاز العصبي المركزي ، وهذا التأثير على الجهاز العصبي المركزي هو الذي يخلق الانتعاش الوقتي والشعور بالاثارة ، ويمثل الحافز الأساسي والدافع الرئيسي لتعاطي مخدر الكوكايين .

الآثار العضوية والجرعة المميتة !!!

واذا نظرنا الى أثر الكوكايين على المتعاطي من الناحية الفسيولوجية أي من ناحية وظائف أعضاء الجسم ، فاننا نجد أن له أثراً سيئا جداً بل شديد السوء .

إن الكوكايين يسبب زيادة في سرعة التنفس وسرعة النبض ، وعدم انتظام دقات القلب ، وانقباض الأوعية الدموية وانكماشها ، وارتفاع ضغط الدم ، وارتفاعاً في درجة حرارة الجسم ، وتصبب العرق ، واتساع انسان العين وانبساطه وتمدده ، وارتعاش اليدين ورجفة الساقين .

ونظرا لأن مفعول الكوكايين قصير الأجل فان تعاطي المخدر يتكرر عدة مرات في اليوم الواحد ، وبذا يمكن أن تصل الكمية التي يتعاطاها الفرد في مجموعها الى عشرة جرامات في اليوم الواحد .

وجرعة الكوكايين المميتة أي التي تؤدي الى الموت هي جرام وربع تقريبا من المخدر ، وذلك اذا تم تعاطي الكمية كلها مرة واحدة ، والموت في هذه الحالة يرجع سببه الى القصور الشديد في عملية التنفس .

القلق والهلوسة ومرض العظمة الكاذبة :

غالبا ما يؤدي تعاطي كميات كبيرة من الكوكايين وتأصل عادة تعاطيه الى القلق والهلوسة والأرق والسهاد ، والى الشعور الكاذب بالقوة والتفوق ، وإن هذا الشعور بالقوة وهذه الهلوسات الحسية والسمعية والبصرية التي يؤدي اليها الافراط في تعاطي الكوكايين تكون نتيجتها أن يصاب المتعاطون لهذا السم وخاصة من يتعاطونه عن طريق الحقن بمرض يطلق عليه اسم مرض « العظمة الكاذبة » .

إنهم يصبحون غير اجتماعيين وخطرين على من حولهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه ، ويتواجدون في رحابه . إن قدرتهم في الحكم على الأشياء وتقديراتهم تختل، كما تحدث في بصيرتهم ، وإدراكهم الحسي تغيرات سريعة الى الأسوأ .
إن شخصيات المتعاطين للكوكايين تهتز بشدة ، ويبرز الى السطح كل ما لديهم من صور الكبت وكل المخزون والمدفون في حنايا نفوسهم من طباع مكبوتة ممنوعة لا يرضى عنها المجتمع .

اما من ناحية السلوك الاجتماعي والسلوك مع الأقران والزملاء ، فإنه يتميز بالعدوانية والتهجم كما تتصف تصرفاتهم بعدم الثبات والخلل ويستولي عليهم الفزع والهلع لغير ما سبب معقول .

وفي النهاية يكون الشعور العام لمتعاطي الكوكايين هو انقباض النفس والقلق والاضطراب والكآبة والركود النفسي وانحطاط الروح المعنوية .

أعمال العنف :

إن الكوكايين عقار شديد السمية وخاصة على المخ الذي يصبح من تأثير هذا السم مزدحما بالأوهام والترهات ، فمتعاطي الكوكايين ينشأ لديه شعور بأن الحشرات تزحف على جسمه ، وبأن الناس يتحدثون عنه ، وبأنه مراقب من الجميع ، وأن هناك عيوناً ترصد حركاته وتحركاته وتتعقب خطواته ، بل يعتقد أن هناك من يدبر لقتله .



مراهق يدخن الكوكايين

وعادة ما يحمل مدمن الكوكايين سلاحا ، وتحت تأثير الوهم الذي يملأ رأسه ويسيطر عليه يصبح قادرا على استخدامه . وان التقارير الطبية وتقارير رجال الامن ومكافحة المخدرات توضح وتتضمن الكثير من أعمال العنف التي ارتكبها ويرتكبها المتعاطون للكوكايين وخاصة من يفرطون في تعاطيه .

الكوكايين والادمان :

والآن نأتي الى نقطة هامة والى سؤال مهم مطروح . .

هل يسبب الكوكايين الإدمان لدي متعاطيه ؟؟
هل يسبب الكوكايين الاعتماد الطبيعي على المخدر ؟؟

وفي الإجابة على هذا نقول إنه على الرغم من أن

المتعاطي للكوكايين يتكون لديه اعتماد نفسي قوي على الكوكايين إلا أن استخدام العقار لا ينتج عنه اعتماد طبيعي كما يحدث في حالة من يتعاطون الأفيون والهيروين والمورفين ، ولا يتعرض المتعاطي لأعراض جانبية خاصة لدى الامتناع عن تعاطيه .

ومعنى الادمان،أي الاعتماد الطبيعي على المخدر أن المدمن يصبح أسيرا للمخدر فلا يمكنه أن يستغني عنه ، أو يعيش بدونه ، واذا لم يجده وإذا لم يتعاطاه يتعرض لآلام مبرحة وأعراض مفجعة تؤدي به الى الموت . .

ونظرا الى سرعة تمثيل الكوكايين في الجسم فان كميات كبيرة منه يمكن تعاطيها في وقت قصير نسبياً ، وليس هذا دليلا أو اشارة الى الاعتماد الطبيعي على المخدر وعلى الرغم مما يبدو من أن تعاطى الكوكايين لا ينجم عنه اعتماد طبيعي ، إلا أن هذا المخدر يتميز باتجاه قوي من جانب المتعاطين للاستمرارية في استخدامه وتعاطيه ، فهو يتسبب في ايجاد مستوى عال من الاعتماد النفسي لدى المتعاطي ، وعادة ما ينتج عنه نوع من أنواع الافراط المدمر . .

وهذه الصورة غالبا ما يصعب فهمها حيث أن كثيراً من الذين لا يسرفون في تعاطي المخدر ويتعاطونه بين حين وحين يقررون أنه لا تتكون لديهم عادة الإدمان . ومع ذلك فهناك تقارير لا حصر لها عن الافراط في استخدام الكوكايين . ما هو التفسير اذن ؟؟

الذي يحدث أنه بعد تعاطي العقار بفترة قصيرة تنتج حالة من فقدان الحساسية في فراغ الفم ، وغالبا شعور بأن اللسان غير موجود،ويتبع ذلك احساس بالدفء في الجسم كله ثم إحساس بدرجة عالية من الإثارة . ويشعر المتعاطي بأنه قوي مبتهج يمكنه أن يقوم بأي عمل وأن يفعل أي شيء ، ويتقلص شعوره بالتعب كما ينتابه شعور بالقوة والغنى .

هذا الاحساس بالابتهاج والفرحة يستمر من حوالي خمس وأربعين دقيقة الى ساعتين تبعا لنوعية الكوكايين الذي يتم تعاطيه . وعندما تضمحل الآثار الاولى للمخدر تبدأ آثار الهبوط والكآبة والتعب والانقباض النفسي في الظهور على المتعاطي . ويتسبب الصداع والشعور بعدم الراحة والركود النفسي في رغبة قوية في الصعود مرة أخرى الى قمة البهجة . . .

وبذلك وعلى الرغم من أنه لا ينشأ اعتماد. فسيولوجي على المخدر إلا أنه ليس من الصعب أن ندرك الرغبةفي استمرارية التعاطي للمخدر التي توضحها هذه الصورة التحليلية والتي جاءت في احدى الدراسات النفسية التي نشرتها المجلة الأمريكية لعلم النفس .

معالجة التسمم بالكوكايين :

إن معالجة التسمم بالكوكايين تتم على أساس وصف العلاج المناسب لحالة المريض . فالقلق الزائد من تأثير تعاطى العقار يمكن علاجه بإعطاء المريض المهدئات مثل الفاليوم .

وفي حالة تعاطي الجرعات الزائدة وما تسببه من آثار صعبة قاسية مؤلمة ، وضيق شديد في التنفس يعالج المريض في المستشفى الخاص مع عناية مركزة من ناحية التنفس . وبعد العلاج العضوي يتم العلاج النفسي . . . □

□ المعرفة تؤدى إلى الصداقة ، والحقيقة تؤدى إلى النور .

(جوليوكورى)

□ لاقيام للفن الحقيقى إلا إذا كان بشيرا بحياة أفضل يتمتع بها جميع البشر .

(فاجنر)



فاجنر

حكايات .. في الأدب والفن والتاريخ

بقلم : الدكتور عبدالحميد يونس

يعد الدكتور عبدالحميد يونس الذي فقدناه منذ شهرين واحدا من رواد الادب الشعبي ، وأول من أدخل دراسة علم الفلكلور وفق مناهج البحث العلمي في الجامعات المصرية والعربية الأخرى . ولقد خلف للمكتبة العربية عددا من الكتب والدراسات عن الحكايات والفنون الشعبية ، بالإضافة إلى موسوعة الأدب والفنون الشعبية .

و « العربي » التي كانت واحدة من المجلات العربية التي تلقت انتاجه ، تنشر اخر مقالاته لها ، عن حكايات في الأدب والفن والتاريخ .

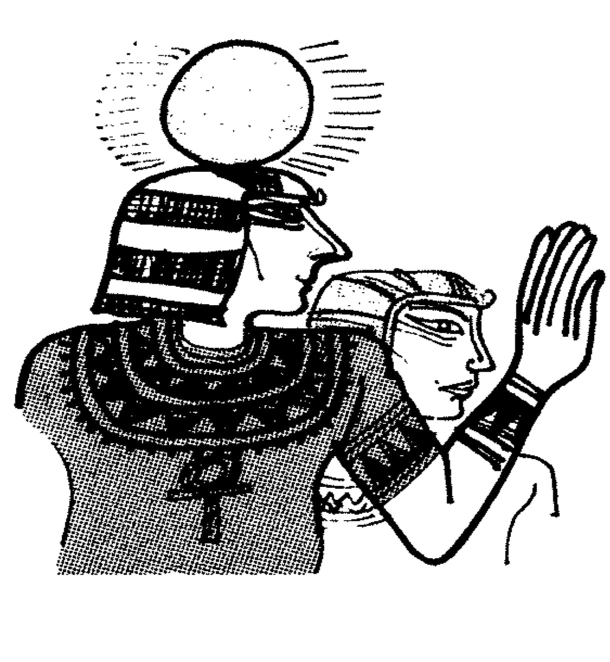
لايزال الذهب هو المعيار الأساسي في وسيلة التعامل بين الناس في المجال الاقتصادي ، وهو الركيزة الأساسية لقدرة دولة ، او مجتمع على التعامل في المجال الدولي . ولا يقوم ذلك على حصيلة التجربة الانسانية الواقعية في المجال الحضاري ، وإنما يقوم أولا وقبل كل شيء ، على ارتباطه ، منذ أقدم العصور ، بالاساطير . ومن الضروري أن نفيد من الدراسات الميثولوجية الحديثة التي لا تعد الأسطورة مجرد خرافة ، ولكنها كانت المرحلة الاولى في الفكر الانساني ، وهي التي فسر بها الانسان مظاهر الحياة والطبيعة والكون ، ولذلك وجدنا ان الذهب ارتبط ، منذ القدم ، ارتباطا وثيقا بالعقائد الدينية ، ومايتصل بها من طقوس .

وكان الذهب من أقدس مافي الارض من معادن . ولذلك نجد مكانته في تراث الشعوب ، على اختلاف أوطانها ، ومعتقداتها ، ومراحل ثقافتها ، ومن الشواهد على ذلك أن بعض القبائل ، في جزر الهند الغربية وامريكا الوسطى ، تعتقد أن للذهب روحا ، ولذلك فرضوا على انفسهم كثيرا من المحظورات ، حتى لا تغضب عليهم تلك الروح وسجل بعض الدارسين أن العاملين في مناجم الذهب في بعض المناطق يحرصون على تلاوة دعاء خاص قبل استخراج هذا المعدن النفيس . ومن المعتقدات السائدة قديما أن الشمس هي التي وهبت الذهب لونه الجميل ، وبريقه الخلاب ، ومن ثم فإنه يستمد بريقه من نور الشمس ، ويعد مصدرا للحياة والخصب والنماء .

وسجل المؤرخون أن الذهب لم يكن مجرد معدن نفيس ، له قداسته ، ولكنه كان عنصرا حيا عند الفراعنة ، ومن هنا ساد الاعتقاد بأن الذهب هو سائل الشمس المضيء ، الذي يجري في عروقهم . وبالغوا في استعمال الذهب ، لأنهم رأوا أن عودة الحياة اليهم بعد الموت وخلودهم يقتضي إعداد الوسائل المادية التي تحقق لهم هذا الهدف .

ومن أهم الأساطير القديمة ، التي تدل على ارتباط الذهب بالحياة ، أسطورة ميداس ملك فريجيا بآسيا الصغرى ، فقد كان هذا الملك يعشق الذهب اكثر من أي شيء آخر ، وكان يقتنيه ، ويختزنه في الطابق الاسفل من قصره ، ولقد اعتاد ان يقضي ساعات طويلة كل يوم ، يتطلع فيها الى ذهبه ، ويتغزل فيه ، كما يتغزل العاشق في محبوبته .

وتسجل الأسطورة أن ميداس تمنى أن تمنحه الآلهة القدرة على تحويل أي شيء يلمسه إلى ذهب ، وتحققت أمنيته ، وفرح عندما وجد أن كل شيء يلمسه في قصره يتحول إلى ذهب . وما لبث أن اكتشف أن طعامه وشرابه قد تحولا الى ذهب خالص ، وأدرك أنه سوف يموت لا محالة وكانت المفاجأة الكبرى عندما زارته ابنته ، تشكو إليه أن ازهار الحديقة كلها قد صارت ذهبا . ولما انحنى عليها ليسري عنها ويقبلها تحولت إلى تمثال بارد من الذهب . وتقول الاسطورة إن الملك ميداس استطاع أن يتخلص من هذه اللعنة باستحمامه في مياه ينبوع يقع عند مصب احد الانهار . وحمل معه بعض الماء وصبه على ابنته ، فعادت اليها الحياة ، وادرك الملك ميداس أن هناك اشياء أثمن بكثير من الذهب .



الامارات البغدادية

اتسعت رقعة العالم الاسلامي ، وازدهرت حضارته ، واشتهر كثير من عواصمه ومدنه ، بيد ان بغداد اتخذت لها مكانا بارزا بين هذه العواصم ، حتى اصبحت في مخيلة المسلمين والعرب رمزا للصقل الحضاري في قمة تاريخنا الوسيط . وكلما تذكرنا العصر الذهبي ، وجدنا بغداد هي التي ترمز إلى تلك المرحلة المزدهرة.ومن اسم هذه المدينة وجدنا لفظا يعبر عن الفخر بانتساب الانسان اليها ، وفي معاجمنا لفظ تبغدد فلان أي انتسب الى بغداد وتشبه بأهلها ، وعليه زها وتكبر ، لأن الانتساب الى هذه المدينة ظل مزية ، يفاخر بها صاحبها ، ويتصور أنه ارقى وأصقل من الناحية الحضارية ، التي جعلت بغداد هي المعلم الأول في العصر الذهبي في الوطن العربي والعالم الاسلامي .

والدارسون احتفلوا بعراقة هذه المدينة واصولها . وأطلق الخليفة العباسي المنصور على المدينة التي أنشأها اسم مدينة السلام تيمنا بجنة الخلد ، وكان هذا هو الاسم الرسمي ، الذي يكتب به في الوثائق والسكة والاوزان ، إلخ . واستعملت من الاسم صيغ مختلفة ، وبخاصة بغدان ، وتسميات مثل مدينة ابي جعفر ، ومدينة المنصور ،ومدينة الخلفاء، والزوراء . والاقتناع بأن بغداد هي قصبة العصر الذهبي هو الذي دفع الخليفة المنصور إلى أن يشيد قصرا على نهر دجلة ، تحيط به بساتين فسيحة ، وأطلق عليه اسم قصر الخلد تيمنا بجنة الخلد ، ودفع الخليفة هارون الرشيد أيضا إلى تشييد قصر الرصافة . واتسعت رقعة بغداد بسرعة ، فكثرت مبانيها ونشطت فيها الحركة التجارية ، وازدادت ثروة وسكانا ، وتكالب الناس على السكنى في شرقي بغداد ، إذ اجتذبتهم هبات المهدي ، ثم عطايا البرامكة الذين كان لهم حي خاص في بغداد .

وتغنى الشعراء ـ وهم لا يزالون يتغنون إلى الآن ـ بجمال بغداد ، ووصفوها بأنها جنة الله في أرضه . وقد اشتهرت ببساتينها الرائعة وريفها النضير ، وقصورها الفخمة الشاخة المزينة بزخارف فاخرة على الابواب وفي القاعات ورياشها البديعة الثمينة .

وأصبحت بغداد مدينة دولية ، لأن سكانها كانوا أخلاطا من شتى الامم والالوان والنحل ، ممن وفدوا إليها من أجل العمل والتجارة ومن المجندين والارقاء ، أو ممن جاءوا لممارسة مهن أخرى ، واستمرت بغداد من اعظم مراكز الفن والعلم والادب على مدى التاريخ ، وأدى ذلك ، إلى أن يحتفل بها التراث الشعبي ، وأن نجد ذكرها في هذا التراث على اختلاف مجالاته . والدارسون المتخصصون استطاعوا ، وهم يحللون « الف ليلة وليلة » ، أن يضعوا أصابعهم على الامارات البغدادية في الكثير من تلك الليالي ، وأن يجدوا القصاص الشعبي يتخذ من الخليفة هارون الرشيد بطلا ممتازا ، يتجاوز الواقع التاريخي إلى الخيال الشعبي .



الرشيد في الخيال الشعبي

يذكر الزركلي في معجم « الأعلام» أن هارون الرشيد (١٤٩ ـ ١٩٣ هـ) (٧٦٦ ـ ٨٠٩م)ابن محمد المهدي ابن المنصور العباسي ، أبو جعفر : خامس خلفاءالدولة العباسية في العراق ، واشهرهم . ولد بالري ، لما كان ابوه اميرا عليها وعلى خراسان ، ونشأ في دار الخلافة ببغداد ، وولاه ابوه غزو الروم في القسطنطينية ، فصالحته الملكة ايريني وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار،تبعث بها الى خزانة الخليفة في كل عام . وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ ، فقام باعبائها ، وازدهرت الدولة في ايامه . واتصلت المودة بينه وبين ملك فرنسا كارلوس الكبير الملقب بشارلمان ،فكانا يتهاديان التحف . وكان الرشيد عالما بالادب ، وأخبار العرب ، والحديث ، والفقه ، فصيحا ، له مشعر ، وله محاضرات مع علماء عصره ،شجاعا كثير الغزوات ، يلقب بجبار بني العباس ، حازما كريما متواضعا ، يحج سنة ويغزو سنة ، لم ير خليفة أجود منه ، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابه من العلماء والشعراء والكتاب والندماء . وكان يطوف أكثر الليالي متنكرا . قال ابن دحية : « وفي ايامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزياراته العلماء في ديارهم » . وهو أول خليفة لعب بالكرة والصولجان . له وقائع كثيرة مع ملوك الروم ، ولم تزل جزيتهم تحمل إليه من القسطنطينية طوال حياته . وهو صاحب وقعة البرامكة ، وهم من اصل فارسي ، وكانوا قد استولوا على شؤون الدولة ، فقلق من تحكمهم ، فأوقع بهم في ليلة واحدة . واخباره كثيرة جدا . ولايته ٢٣ سنة وشهران وأيام .

توفي في سناباد من قرى طوسي ،وبها قبره . وأهم ملامح شخصية هارون الرشيد إحساسه بالملك ، فقد ولد في قمة الكيان الاجتماعي ، ولد أميرا ، وقدر عليه أن يكون مجاهدا في سبيل الدولة ، ووليا للعهد ، ثم خليفة للمسلمين . ومع أنه من بني العباس الذين قضوا على البيت الاموي ، فقد ورث تقاليد الملك . وكان المحيط الذي يدرج فيه ، إنما يصدر عن ذلك الصراع التقليدي بين الأخوة ، وما يمكن أن ينشب من خصومات بين الاعمام وأبناء اخوتهم . ولا فرق هناك بين ملك اقترب من القيصرية في دمشق ، وآخر كادت تظلله الكسروية

في بغداد ، كلاهما شرف موروث ، يتناحر عليه أبناء الأسرة الواحدة ، ويتحارب دونه الاخوة وبنو الاعمام . ولقد أفاد هارون من هذا الجو . ناظره أخوه ابن أمه وأبيه ، واحتمل خوفه وحرصه ، ووجد النصراء الذين يمكنون له ، حتى انقادت له المقادير ، وكان التحول من الاسم « هارون » إلى اللقب «الرشيد» بمثابة التحول من الخلافة إلى الملك، وجمعت شخصيته ، بصورة متناقضة حينا ومتكاملة احيانا أخلاقيات شيخ القبيلة ، والخليفة الرشيد والملك الذي يستند إلى الحق الالهي والشرف الوراثي .

واذا كان الوجدان الشعبي قد انتخب هارون الرشيد دون غيره ، فذلك لما أدركه فيه من الفضائل التي اراد تجسيمها وتصعيد الافراد إليها . ومهما اختلف أصحاب المذاهب حول شخصة وفعاله ، فإنه كان نموذجا يصلح للانتخاب والتمثيل . ولقد اختلف في الحكم عليه بعض ، فوجدنا من ينقده ويجرحه ، ولكنه علم ، سجلت عليه فضائل الفكر العربي والحضارة الاسلامية . كان بمثابة القمة من التاريخ الاسلامي ، وكان الممثل لما أسهم به العرب والمسلمون في بناء حضارة الانسان ، وكان الشرق في ايامه هو الذي انتهى إليه السلطان . ومن هنا اقترن اسم الرشيد بالشرق وسحره وفتنته . واختيار هذا اللقب كان له اثره في الحكم على سلوك هذا الخليفة ، واشتهاره بغلبة الحكمة والتعقل والاتزان . وظلت هذه الشخصية محفورة في ذاكرة الشعب العربي ، يتخذها نموذجا في السلوك، كما يجعلها مثالاً للانسان العربي ، وأسبغ الشعب عليه ما يطمح إليه من حكمة وعدالة ومجد . والرشيد من أهم الروائع التي لاتزال حية ومؤثرة في المأثورات الشعبية .

الأدب والشخصية العربية

تلك مجرد التفاتة إلى مسار الحضارة في الشرق الاسلامي ، وهذه الالتفاتة فيها من سعة الأفق ما يستوعب جانبا من التقدم الانساني الزاهر ، ومساحة كبيرة من العالم الانساني في فجر العصور الوسطى .

والمؤرخون يضعون أصابعهم على التقدم الفكري في مجال الفلسفة والفكر ، وهو على قدر كبير من الوضوح . بيد أن الشخصية العربية إنما تبرز ملامحها في الأدب ، بصفة عامة ، وفي الشعر ، بصفة خاصة . وللشعر العربي أصالته في الاحتفال بالجانب الموسيقي للكلمة ، ولذلك يجمع مؤرخو الأدب على أن اللغة العربية هي أولى اللغات التي كانت تصر على اعتبار القافية الصحيحة عنصرا أساسيا في صوغ الشعر . كانت كل قصيدة من قصائده لابد أن تبدأ بالبكاء لفراق محبوب أثارت ذكراه نظرة إلى مابقي بعده من أطلال ودمن .

ولما رحل الشعر العربي إلى المدن ، ثبتت دعائم الحب أكثر من قبل ، واكتسب الشعر رقة جديدة ، حلت محل صراحة البادية في إظهار الحب ، كما حلت محل القصائد الشعرية المطولة مقطوعات غنائية قصيرة ، يعبر فيها الشاعر عن عواطفه ، ويظهر فيها شخصيته .

ونجد في الشعر الشعبي ما يشبه الطفرة التي أثمرت جنسا ادبيا في مجال الغناء وهو الموال . ونحن جميعا نعلم أن الموال ضرب من الأغاني الشعبية . وتقول الرواية إن هذا النوع من الشعر ابتكره أهالي



٢

واسط ،ولكن أهالي بغداد هم الذين طوروه . ويقال إن هارون الرشيد لما نكب البرامكة حرم البكاء عليهم أو رثاءهم ، ولكن الوفاء حمل جارية لجعفر على أن تنظم في كل يوم مرثية لمولاها ، وكانت في نهاية كل موشح تصيح « ياموواليا » . ومن هنا أطلق اسم مواليا على هذا النوع من الشعر . والموال سمي من المواليا .

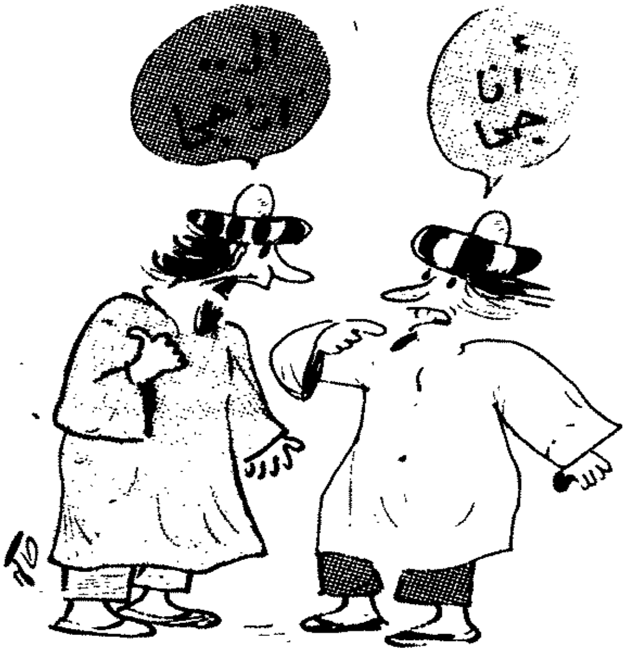
وتطور الموال ، وانقسم إلى ضربين ، هما الموال الأحمر ، ويتناول موضوعات الحرب ، والموال الأخضر ، ويتناول موضوعات الحب . وفي جميع الحالات يجب أن يكون الموال باللهجة العامية الدارجة .

جحا .. والألغاز والأحاجي

هناك شخصية عربية بارزة ، ظهرت في عصر هارون الرشيد ، وهي شخصية جحا . وبلغ من عالمية هذه الشخصية أن العلماء كثيرا مايخلطون بين شخصيتين قوميتين : بين جحا العربي الذي ينسب إلى قبيلة فزارة ، والذي قيل إنه عاش في عصر هارون الرشيد ، والذي أثرت عنه أقوال أصبحت على ألسنة الناس أمثالا سائرة ، والذي اشتهر بمواقف وتصرفات ، سجلت على انها من النوادر والملح .

وبين جحا الرومي الذي قيل إن اسمه نصر الدين خوجة ، وعاش في عصر السلاجقة . ومن اليسير أن يضع الدارس خطا فاصلا بين هاتين الشخصيتين . ونحن نعلم أن جحا العربي يحتفظ في جميع أقواله وتصرفاته بمقومات المزاح العربي ، وانه معروف في البيئات العربية كلها بالاسم نفسه ، لا يصيبه من التحريف إلا قليل ، يتمثل به المتعلمون وغير المتعلمين في الحواضر والبوادي على السواء .

ومن اهم أجناس الأدب الشعبي « الألغاز والأحاجي » ومن روائعها ماورد في « ألف ليلة وليلة » ،وهي أيضا فيما يذكر الرواة ، وفيما تسجل الحكايات رائعة عالمية . هي حكاية تودد الجارية . وتروى الحكاية أنها كانت جارية لتاجر ضاع ماله ، فطلبت منه أن يعرضها على هارون الرشيد ليشتريها ، لأنها تجمع بين الجمال والذكاء ، وقبل الخليفة أن يشتريها بالثمن الغالي الذي طلبه اذا ثبت



له صحة ما ادعاه من رجاحة عقلها ،وتعدد مواهبها . وقام باختبارها نفر من العلماء، فأجابت على جميع ما وجهوه إليها من اسئلة في علوم الدين والنجوم والطب واللغة ، واستطاعت أن تحل جميع الأحاجي التى طرحت عليها ، وأظهرت براعة تامة في لعبتي الشطرنج والنرد ، وأبدت مهارة فائقة في العزف على العود . ثم وجهت إليهم بدورها أسئلة كثيرة ، عجزوا عن الرد عليها . وعند ذلك طلب منها الخليفة أن تتمنى عليه ، فتمنت أن يردها لسيدها ، ففعل ، وخلع عليها خلعة ،واتخذ سيدها نديما له .

ومهما ردد الباحث في غلبة الاختيار والمغالاة فيما سجل ،أو روي عن أسطورة العصر الذهبي ، كما شخصها هارون الرشيد فان الاهتمام بالتراث الشعبي الحي المتطور ، وبالعراقة فيما يحتفظ به الشعب في ذاكرته من معرفة وفن وأدب يستتبع بالضرورة أن نضيف إلى التاريخ ، بمنهجه التقليدي ، ما بهر الشعب العربي من ناحية ، والعالم من ناحية أخرى ، وما جعل هذه الأسطورة تتسم بالسحر والروعة . وتثبت في الوقت نفسه تبادل التأثر والتأثير بين مختلف القوميات والعصور . □



أفـــق المعرفـة

الجغرافيـة عند العرب في العصور الوسطى

بقلم : الدكتور محمد علي القرا

إن من يطلع على التراث ... العربي يدرك الاتساع الكبير ...
المعرفة الجغرافية بشكل ... . وقد ظلت الجغرافية العربية ...
مهما ... البحث والاطلاع ، عن مناطق العالم ...
وأقطاره ، لأنها ... بيانات غزيرة ، جديدة ، شاملة عن ...
لم تكن معروفة ... اليونان ...

ولاشك في أن ... الإسلامية ،
والأنشطة ... الجغـ...
كانت من أهم ال... كل ر...
إثراء الجغرافية الإ... أفقه...
رافقت الفتوحات أو... في عصر الدولة الأ...
حتى أصبحت الدولة الإسلامية تمتد ... الصحراء
الكبرى والسودان في افريقية جنوبا حتى ...
شمالا ، والمحيط الأطلسي غربا إلى ...
شرقا .

وقد نشطت الحركة ...
الأقطار الأفريقية الواقعة ...
والغربية ، وكذلك مع البلد...
« كانتون » . وقد أنشأ العرب الم...
التجارية مثل ميناء « قلا » ... الحقل للقارة

... (ماليريا حالياً) ، وميناء الديبل عند مصب نهر
... بالقرب من كراتشي الحالية . أما موانئ
... العرب فأهمها : مسقط وصحار وسيراف .
... يختص بالرحلات الجغرافية وحركات
الار... نشط الرحالة العرب في كل الاتجاهات في
آسيا وأفريقية وأوروبا . وسنعرض في هذه المقالة
لأهم الر... العر... القارة الآسيوية .

آسيا ... الجغرافيين

لقد ... بالشرق في المقام
الأول ...
وش...

[illegible] أول من زار من [illegible] أقاصي [illegible] آسيا فيما وراء نهر الجانج (الكنج) .

وتذكر كتب التراث بأن هناك نفراً من التجار والرحالة والجغرافيين الذين تجولوا في مناطق واسعة من القارة الآسيوية ، وأمدونا بمعلومات غزيرة ، وبيانات وافية عن طبيعة تلك المناطق ومعالمها الجغرافية ومظاهرها الطبيعية ، وحياة سكانها ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وأعمالهم وأنشطتهم ، وغير ذلك من المعلومات مفيدة ، وكان من أهم هذه الرحلات تلك التي قام بها « سلام الترجمان » بتكليف من الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧م) للكشف عن أقاليم عديدة شمالي الدولة الإسلامية ، وبصفة خاصة للبحث عن يأجوج ومأجوج ، وسد ذي القرنين الوارد ذكره في القرآن الكريم . وقد تعرض لهذه الرحلة بالدراسة والتحليل نفر من المستشرقين أمثال [illegible] « [illegible] » و « مينورسكي » و « فاسيلييف » [illegible] ذكرها « بيزلي » في كتابه « فجر الجغرافية الحديثة » و « بيكر » في كتابه « تاريخ الارتياد والكشف الجغرافي » ، ومن الجغرافيين العرب الذين أشاروا إليها : ابن خرداذبة ، وابن رسته ، وياقوت الحموي وغيرهم .

وعلى أي حال فإن « سلام الترجمان » غادر بغداد متجهاً صوب أرمينيا وبلاد الكرج (جورجيا حالياً) ، وعبر القوقاز ، ووصل بحر الخزر (قزوين حالياً) ، وطاف حوله ، وزار بحيرة « بلكاش » ، وسار مع نهر الفولجا ، وكشف قسماً كبيراً من جبال « أورال » وسلاسل « التاي » ، غربي منغوليا ، ثم عاد إلى العراق عبر بخاري وخراسان .

وفي السنوات الأخيرة من القرن التاسع الميلادي بلغ اتصال العرب بالصين أوجه ، وبخاصة عشية ثورة ٨٧٨م ، فقد قام كل من « سليمان التاجر » و « أبي زيد السيرافي » و « ابن وهب القرشي » بزيارة للصين ، وقد جاء ذكرها في كتب الأدب الجغرافي [illegible] التاجر [illegible] على الساحل الإيراني للخليج العربي إلى ساحل مليبار بالهند (الساحل الغربي) ، فسيلان (سريلانكا حالياً) ، فخليج البنغال حتى جزر « نيكوبار » ، ومنها إلى « قلا » ، فمضيق ملقا ، فساحل « سايجون » (هوشي منه حاليا) ، فجزيرة « هينان » حتى وصل خانفو (كانتون) .

ويبدو أن أبا زيد السيرافي قام برحلة مماثلة . ويذكر لنا سليمان التاجر وصفا للسواحل والبحار المختلفة والمدن والموانيء وسكانها ، ومحاصيل البلدان ، والسلع التجارية لتلك الجهات ، والمسالك فيما بينها . ويطلعنا على علاقة العرب بالتجار الصينيين والأجانب على طول الخط التجاري الممتد من الخليج العربي والبصرة غرباً حتى البحر الأصفر وخانفو شرقاً .

[illegible] أبو زيد [illegible] رحلة صديقه ابن وهب الذي [illegible] القرشي ، [illegible] وصوله إلى الصين ، وزيارته لبلاط امبراطورها ، ومثوله بين يديه ، [illegible] عن العرب والمسلمين ونبيهم ، وأحوالهم قبل الإسلام وبعده ، وحواره معه عن ملوك ذلك الزمان وأممه وشعوبه . وقد سجل أبو الفداء في كتابه المسمى « تقويم البلدان » ذلك الحوار المثير بين ابن وهب وامبراطور الصين .

لقد غادر ابن وهب البصرة على إثر ثورة الزنج المشهورة في عام ٢٥٧هـ إلى سيراف ومنها إلى الصين .

وتسجل لنا هذه الرحلات معلومات كثيرة ومثيرة عن الصين والجزر الواقعة في البحار التي عبرتها تلك الرحلات ، ومن أهم هذه المعلومات ما يتعلق بوصف العادات والمعتقدات الدينية ، والحياة الاجتماعية والسياسية لأهل الهند والصين ، [illegible] وفنونهم ، وإقبالهم على شرب الشاي ، ومنقوع الأرز ، ووصف لشجرة الشاي ، وما يفرض عليهم من ضرائب [illegible] الرؤوس ، وشهرة بلادهم بصنع الخزف الصيني ، وعادة حرق

كل امرأة يتوفى عنها زوجها ، وتعذيبهم لأنفسهم ، ونظام الطبقات الذي يقسم المجتمع إلى منبوذين وغير منبوذين .

رحلة ابن خرداذبة

وعلاوة على الرحالة سابقي الذكر ، فإن الجغرافي الشهير « أبا القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه » الفارسي الأصل المتوفى في عام ٣٠٠هـ = ٩١٢م كان أول جغرافي قدم للجغرافية العربية معلومات جديدة وقيمة عن مناطق واسعة في القارة الأسيوية ، وذلك بحكم عمله في البريد إبان حكم الخليفة العباسي المعتمد ، وكان والده من قبل والياً على طبرستان جنوبي بحر قزوين .

ويصف لنا « ابن خرداذبة » في كتابه « المسالك والممالك » بالتفصيل الطريق البحري من عدن ، وموانيء الخليج العربي حتى البحر الأصفر بالصين ، حيث يصف ميناء « خانفو » العظيم ، وحاصلات الصين ، وأنهارها . وقد أمدنا بمعلومات قيمة عن بلاد تقع خارج الصين ، مثل « كوريا » وجزر « الواق واق » التي من الجائز أن تكون هي جزر اليابان ، بينما يعتقد بعض بأنها زنجبار ، وكذلك أورد معلومات مثيرة عن جزر المحيط الهندي ، مثل « سيلان » التي كانوا يسمونها « سرنديب » ، وسجل لنا عما شاهده وسمعه من الغرائب والعجائب ، مثل الأسماك الطائرة ، والحيتان التي يبلغ طولها مئات القامات ، ووحيد القرن والفيل . وتحدث عن البوذيين وعاداتهم ومعتقداتهم . وقد تخلل ذلك كثير من الخرافات التي تقلل من قيمة الكتاب .

لكن أكثر الطرق أهمية من حيث الوصف الطريق الممتد من بغداد إلى وسط آسيا ، وقد أعطانا « ابن خرداذبة » معلومات مهمة عن الأمم والشعوب الآسيوية التي تقطن تلك المناطق ، كالأتراك والتتار والمغول والقبائل التي تعيش في البلاد الممتدة بين الصين وبحر قزوين مثل القرغيز . وقال بأن هذه الجهات تشتهر بالمسك . وبذلك يكون « ابن خرداذبة » أول جغرافي في العالم كتب عن المظاهر [illegible] الأقصى ووسط آسيا فالجغرافيون اليونان [illegible] تتمد [illegible] وسط آسيا حتى حدود [illegible] السند .

ومن الذين زودونا بمعلومات جغرافية قيمة عن وسط آسيا في نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العاشر الميلاديين نذكر « الجيهاني » ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر ، وينسب إلى « جيهان » في بلاد ماوراء النهر ، وكان وزيراً في بلاط السامانيين . ويصف « الجيهاني » بصفة خاصة سكان « هندستان » بشكل مفصل .

ومن الجغرافيين الرحالة الذين ساهموا في اتساع أفق الجغرافية العربية نذكر « الاصطخري » الذي تكلم في كتابه المشهور « المسالك والممالك » أو « كتاب الأقاليم » عن التركستان والسهوب الأوروبية . هذا وقد أمدنا معاصره « ابن حوقل » في كتابه « صورة الأرض » بمعلومات قيمة عن إقليم سمرقند ، ونهر سيحون ، والمنطقة الممتدة من جبال طوروس حتى هضبة البامير ، ويصف بإعجاب شديد إقليم « الصغد » الذي يقع جنوب شرق بحر « أرال » . وهو يستغرق ـ كما يقول ـ مسيرة ثمانية أيام ، ويتميز بحدائق وبساتين وحقول الذرة ، وأنهاره وخزاناته ونافوراته ، وقراه ومساكنه .

ولعل المسعودي كان أكثر الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن مناطق واسعة في آسيا ، وبخاصة الأراضي الممتدة من فرغانة حتى بحر قزوين وبحر أرال . وقد اعتمد في معظم كتاباته عن تلك المناطق على رحلاته ومشاهداته لمعالم تلك المناطق وأحوالها وأوضاعها .

رحلة ابن فضلان إلى روسيا

ربما كان من أهم الرحلات العربية إثارة في القارة الآسيوية تلك التي قام بها « ابن فضلان » ، وسجلها في مؤلفه الذي أطلق عليه اسم « الرسالة » . ففي عام ٣٠٩هـ = ٩٢١م أرسل الخليفة العباسي المقتدر بالله سفارة إلى الروس ، وكان يطلق عليها اسم

[illegible] ضفاف نهر الفولجا [illegible] حديثاً في الإسلام ، ولذلك طلبوا من الخليفة أن يرسل إليهم من يفقههم في الدين . وقد ضم الوفد « أحمد بن فضلان » الذي قام بتسجيل خط السير ابتداءً ببغداد ومروراً بهمذان والري ونيسابور ومرو وبخارى ، ثم بمحاذاة نهر جيحون (أموداريا حالياً) إلى خوارزم عند بحر أرال الذي كان يطلق عليه اسم بحيرة خوارزم . ثم عبر « ابن فضلان » هضبة « الست أورت » بين بحري قزوين وأرال حتى حوض نهر الفولجا .

وترجع أهمية رسالة ابن فضلان لأنها تعطينا أول صورة يمكن الاعتماد عليها عن روسيا في العصور الوسطى . لقد استطاع « ابن فضلان » أن يصف لنا بدقة ـ من واقع اهتمامه وإحساسه الجيد ـ الاستبس الواسعة التي قطعها أثناء الرحلة ، وقال عن سكانها بأنهم أكثر خلق الله جهلاً ، وهم على عكس جيرانهم من البلغار ، فقد ظلوا على الوثنية ، وهم سفاكون للدماء [illegible] الحروب [illegible] الحروب والنزعات الدموية [illegible] فيهم السرقة [illegible] القتل ، حتى [illegible] عندهم [illegible] عرفهم أن الحكم النهائي للقوة ، فإذا احتكموا إلى ملكهم ولم يقتنعوا بحكمه يطلب منهم المبارزة بالسيوف . ومنذ ولادتهم يدربون على القتال ، فحينما يولد الطفل [illegible] والده سيفاً [illegible] قائلا له : هذا السيف لك [illegible] تستطيع أن تنتصر لنفسك .

ووصف ابن فضلان طقوس الوفاة عندهم ، فقال بأن الروس ـ سواء كانوا فقراء أو أغنياء ـ يحرقون موتاهم . وقد جرت العادة أن يموت الرجل بمحض إرادته حالما تموت زوجته . هذا وقد انكب بعض المستشرقين الروس على دراسة المؤلفات العربية عن البلاد التي تقع حالياً في جنوب الاتحاد السوفييتي وبخاصة المستشرقين « فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد » مؤلف كتاب « تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي » الذي ترجمه إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، ونشره المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت سنة ١٩٨١ .

ولعل رحلة ابن بطوطة وهو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي ـ نسبة إلى لواته إحدى قبائل البربر ـ (٧٠٤ ـ ٧٧٩هـ = ١٣٠٤ ـ ١٣٧٧م) كانت أكثر الرحلات شمولاً ، لأنها زودتنا بمعلومات قيمة ، وبيانات غزيرة عن أقطار آسيوية كثيرة . وقد روى ابن بطوطة مشاهداته وملاحظاته وانطباعاته في كتابه المسمى « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » الذي يعرف برحلة ابن بطوطة .

بدأ ابن بطوطة رحلته قاصداً الحج ، فهو يقول : « كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة (١٣٢٤م) معتمداً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام » لكن ابن بطوطة ما لبث أن انساق بحبه إلى الأسفار والتجوال في أقطار العالم المعروف في أيامه ، [illegible] في مصر [illegible] وشبه جزيرة العرب وشرق [illegible] والبلاد التي [illegible] اليوم جنوب الاتحاد السوفييتي ، والهند والصين و[illegible] الأندلس ، والسودان . وقد استغرقت رحلات ابن بطوطة زهاء تسع وعشرين سنة . وكان أكبر رحالة عرفه التاريخ آنذاك حتى قيل بأنه قطع ما يزيد على مائة وخمسة وعشرين ألف ميل ، مما جعله أكبر منافس للرحالة الإيطالي « ماركوبولو » الذي كان معاصراً له [illegible] .

وقد انكب كثير من الدارسين والباحثين في الشرق والغرب على دراسة رحلات ابن بطوطة لما حوته من معلومات وبيانات قيمة ، وحقائق جغرافية مهمة عن سكان الأقطار التي زارها ، وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، ونظم الحكم عندهم . لقد وصف ابن بطوطة سكان الهند والصين وشعوب وسط آسيا وجزر المحيط الهندي . وكان أميناً في سرد أقواله ، [illegible] رواياته بالطرافة ، وبخاصة حينما يصف أخلاق الشعوب وعاداتها وتقاليدها الغريبة ، مثل عادة إقدام الأرملة في الهند على إحراق نفسها اذا مات زوجها ، وفي ذلك يقول :

« ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي [illegible] [أزواجهن] على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا ، وتأتي إليهن النساء من كل جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس ،

فركبته وهي متزينة متعطرة ، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي ، وهي تقول : نعم ، وتضحك لهم » .

ويصف ابن بطوطة بعد ذلك عملية الإحراق فيقول :

« . . . وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، وبين أشجاره [illegible] قباب ، وفي كل قبة صنم من الحجارة ، وبين [illegible] صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، و[illegible] الأشجار ، فلا تخللها الشمس ، فكأن ذلك الموضع بقعة من جهنم أعاذنا الله منها . ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج ، وانغمسن فيه [illegible] ما عليهن من ثياب وحلي ، فتصدقن به ، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض ، وصب عليها زيت الجلجلان [حب السمسم] فزاد في اشتعالها ، وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم ، لئلا يدهشها النظر إليها . فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف ، وقالت لهم : أبالنار تخوفونني ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها [illegible] الأطبال والأنفار والأبواق [illegible] عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشب [illegible] وارتفعت الأصوات ، وكثر الضجيج [illegible]

بعض أحوال أهل الصين

وقد حرص ابن بطوطة على وصف أهل البلاد التي زارها . نقتطف هنا شيئا من وصفه لأهل الصين ، ليقف القارىء الكريم على أسلوبه ومنهجه :

« وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود . وملك الصين تتري من ذرية تنكيز خان . وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها . وهم معظمون محترمون ،

وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها في أسواقهم ، وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس .

وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة .

وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ، ويقولون هو الرجل الثالثة . والحرير عندهم كثير جداً لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منه ، فلا تحتاج إلى كثير مؤنة ، ولذلك كثر ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير .

وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار مما فوقه وما دونه ، ويجعل ذلك على باب داره ، ومن كان له خمس قطع منها جعل في أصبعه خاتماً ، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه الستي ، وهو بمعنى الكارمي بمصر ، ويسمون القطعة الواحدة منها بَرْكالة » . □

حكايات من دفتر الوطن

مصرع مأمور البداري



بقلم : صلاح عيسى*

« في تاريخ كل وطن . . وفي ثنايا دفاتره . . توجد قصص وحكايات أبطالها مغمورون لم يسمع بهم أحد . . أو أسقط الاعلام أسماءهم من ذاكرة شعوبهم عن عمد . . فليس مطلوبا أن يحفظ الناس قصص أناس عاديين مثلهم لايتمتعون بأى فوارق أو معجزات ولكنهم وقفوا ضد الظلم والقهر والقمع . . في دفاتر الوطن أحداث يومية انتصر فيها افراد من عامة الشعب للحق والكرامة والكبرياء . . وهذه صفحة من دفاتر الوطن . . واقعة من تاريخ مصر الحديث . . وعلى الرغم من ان وقائعها ملأت الدنيا ، الا أن المؤرخين والاعلاميين أغفلوا ذكرها كثيرا . على الرغم من أن ذيولها ووقائعها تفوق كل ما يتصور الخيال » .

لم يكن الشيخ « جميدى حسين عبدالحق » يتخيل حين رزق باكبر ابنائه ، « احمد » ـ في عام ١٩٠٨ ـ أن يوما سوف يأتي ، تشتبك فيه خيوط هذا الابن ، بخيوط « اسماعيل صدقي باشا » ـ رئيس وزراء مصر ووزير الداخلية ورئيس « حزب الشعب » ـ وتتداخل قصته البسيطة مع الرواية الضخمة التي كان الباشا الديكتاتور يمثلها على مسرح السياسة المصرية ، والعالمية !

أسباب كثيرة كانت تحول دون هذا الاشتباك بين الرجلين ، ليس التفاوت الطبقي الشاسع سوى واحد منها ، لكنه أساس معظمها . فقد سبق « اسماعيل صدقي » « أحمد جميدى » في الوجود ، بأكثر من ثلاثين عاما ، وكان الأول قد ولد عام ١٨٧٥ في الاسكندرية ، وهي مدينة ـ كانت آنذاك ـ نصف أوروبية

* كاتب وصحافي من القطر المصري

معمارا وسكانا وسلوكا اجتماعيا ، وولد الثاني في « البداري » إحدى المدن الصغيرة التابعة لمحافظة اسيوط في منتصف الجنوب ، حيث الحياة أكثر جهامة ، وأصعب بما لايقاس . فشتان بين الاسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط ، وتلك المدينة الصغيرة التي كانت قريتين كبيرتين ، تتاخمت حدودهما ، فأصبحتا مشروع مدينة .

كان محتما إذن على كل من الرجلين بحكم المنشأ أن يختط طريقاً موازيا لطريق الآخر في الحياة ، وألا يصطدم أحدهما بالآخر ، فبعكس أسرة « جميدى » التي لم يسبق لأحد منها أن اقترب من السادة ، أو احتك بهم كانت أسرة « اسماعيل صدقي » تحتفظ بذكريات عن علاقات الود التي جمعتها بعدد من ولاة الأسرة العلوية التي تتوارث عرش مصر . . فقد كان والده « احمد شكرى باشا » من كبار رجال الحكومة في عهد « الخديوى اسماعيل » وابنه « الخديوى توفيق » . . وكانت والدته « فاطمة هانم » ، كريمة « محمد سيد احمد باشا » رئيس ديوان الأمير « محمد سعيد باشا » ـ ابن الأمير محمد على الكبير ـ وثالث ولاة الأسرة العلوية ـ وحين ارسل الأمير أول بعثة تعليمية الى فرنسا للتخصص في العلوم السياسية ، كان طبيعيا أن تضم زوج ابنة رئيس ديوانه الذي عاد من البعثة ، ليتقلب في وظائف الحكومة ، حتى شغل منصب وكيل وزارة الداخلية في السنوات العشر الأخيرة من عمره ، قبل أن تدركه الوفاة في عام ١٨٩٥ . .

وكان منطقيا أن يجد « اسماعيل صدقي » الفرصة ميسرة ليتعلم ويترقى فالتحق بالمدارس الفرنسية بمصر وانتقل منها وهو في سن مبكرة للالتحاق « بمدرسة الحقوق » ـ معمل تفريخ الوزراء ورجال الادارة في ذلك العهد ـ وما أن أنهى دراسته العالية ، حتى بدأ رحلة سريعة للصعود إلى المناصب العليا ، وقد بدأها وكيلا للنائب العام ، ثم عمل مدة عشر سنوات متواصلة سكرتيراً إداريا لمجلس بلدية الاسكندرية ، ورئيسا لقسم القضايا بها !

الصعود

وفي العام الذي رزق فيه الشيخ « جميدى عبدالحق » بابنه « احمد » ـ ١٩٠٨ ـ كان « اسماعيل صدقي » في الثالثة والثلاثين من عمره . وكانت اقدامه قد رسخت في الطريق الى القمة ، فأصبح ـ وهو ما زال في مقتبل رجولته ـ سكرتيرا عاما لوزارة الداخلية : أهم الوزارات المصرية ، ثم قفز في عام ١٩١٤ فأصبح وزيرا للزراعة ، ثم للاوقاف ، وفي ٢٠ مايو عام ١٩١٥ تخلى عن الحقائب الوزارية ، عقب فضيحة اخلاقية ، مع ابنة أحد زملائه الوزراء ، كان لها دوى أى دوى في ظلام الحرب الاولى !

وانتهت الحرب ، فظهر « اسماعيل صدقي » على خريطة « الوفد المصرى » الذي شكل آنذاك ليطالب باستقلال مصر ، ثمنا لما قدمته للحلفاء في الحرب من معونة وتأييد ، وكانت البداية مذكرة عن ديون مصر ، كلفه « الوفد » بكتابتها ، كواحد من المشتغلين بشئون المال والاقتصاد ثم اقترح بعض اعضاء « الوفد » ضمه الى عضويته ، فعارض « سعد زغلول » ، وقال إن وضع « اسماعيل صدقي » في القيادة يعطى مثلا سيئا للناس ، لانه خرج من الوزارة بفضيحة اخلاقية مدوية ، ثم اضطر « سعد زغلول » للخضوع لرأى زملائه ، فانضم « صدقي » الى « الوفد » ، وكان أحد الباشوات الأربعة الذين نفوا الى مالطة ـ بين ٨ مارس (آذار) و٧ ابريل (نيسان) ١٩١٩ ـ سافروا بعدها الى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح . . وهناك كشف عن نوعه ، فهو ـ كما يقول في مذكراته ـ لا يميل الى تحكيم العواطف ، ولا يثق كثيرا بما يسمى بالشعب ، لذلك كان من أوائل الذين دعوا الى التعامل مع الأمر الواقع . وبمجرد أن اعترف مؤتمر الصلح ـ في معاهدات فرساى ـ بالحماية البريطانية على مصر ، طالب « اسماعيل صدقي » بأن يتجه « الوفد » للتفاهم مع انجلترا . وأن يقبل التفاوض مع « لجنة ملنر » ، وهى لجنة تحقيق كانت بريطانيا قد اعلنت عن تشكيلها للاستماع إلى أسباب شكاوى المصريين التي ادت الى ثورتهم ، ولوضع نظام للحكم الذاتي في اطار استمرار الحماية البريطانية على مصر . وفي ٢٤ يوليو ١٩١٩ فصله « الوفد » هو زميله « محمود ابو النصر » ، فعاد الى مصر ، وخفتت الأضواء التي لمعت حوله كواحد من قادة الحركة الوطنية ، وانضم الى جناح « المعتدلين » من ساسة ذلك الزمان ، وفي عام ١٩٢٢ نجح مع زميله « عبدالخالق ثروت » في استصدار تصريح ٢٨ فبراير الذي ألغى الحماية البريطانية ، ومنح مصر استقلالا ذاتيا مقيدا بعدم التصرف بعيدا عن بريطانيا في أربع مسائل أساسية هي السودان والديون ، والامتيازات الاجنبية ، وحقوق الأقليات .

وهكذا غرس « اسماعيل صدقي » نفسه على خريطة

السياسة المصرية ، كواحد من المتساهلين الذين يرون التشدد في الوطنية ممالأة لتلك الحشود الكبيرة من « الغوغاء » التي لم يكن ـ بحكم تربيته في وسط ارستقراطى شبه أجنبي ـ يكن لها كبير احترام ، فهي تتحرك ـ في رأيه ـ بغرائزها لا بعقلها ، وبعواطفها وليس بمنطقها .

باشا تحت الطلب

وفي عام ١٩٢٥ أثبت « اسماعيل صدقى » انه سياسى موهوب في بعض المهام ، فهو قادر على البطش بخصومه ، وعلى اسكاتهم ، يملك جلدا على المقاومة ، ولا يستنكف في صراعه السياسى من شيء ، فحين قضت الظروف السياسية التي اعقبت مقتل « السير لى ستاك » ـ سردار الجيش المصرى وحاكم السودان ـ بإقالة الوزارة الدستورية الأولى التي كان يرأسها « سعد زغلول » وحل مجلس النواب الأول ـ وكانت أغلبيته وفدية ـ وتطلب الانقلاب الدستورى الذي تلا ذلك ، وزيرا للداخلية ، يستطيع شل مقاومة « الوفد » ، وسيطرته المطلقة على الشارع المصرى ، وقادر ـ وهو الأهم ـ على اجراء انتخابات مضمون سلفا أنها لن تعيد « سعد زغلول » وانصاره من الافندية المتشددين الغوغائيين إلى الحكم ، حتى يستريح الانجليز ، ويستريح القصر من شغبه وتشدده ، هنالك تقدم « اسماعيل صدقى باشا » ليبرز مواهبه الممتازة فاستخدم كل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة ، ووضع كل الخطط التي استخدمت فيما بعد لتقنين عملية تزوير أى انتخابات ، فتلاعب في القوانين ، وأمر بتزوير كشوف الناخبين ، ومحاولة شراء ضمائر انصار « سعد زغلول » بالمال ورسم خريطة لتوزيع قوات الأمن حول لجان الانتخابات التي تضم أنصارا له ، طبقا لعدد هؤلاء الانصار . كانت المعركة صراعا بين مكر « اسماعيل صدقى » ودهائه السياسى ، ومكر هذه الجموع من الدهماء والصعاليك الذين يسمون بالشعب .

وانتهت المعركة بهزيمة « صدقى » هزيمة منكرة : تظاهر كثيرون من انصار « سعد زغلول » انهم يؤيدون الحكومة ، فانضموا الى حزبها ، واستفادوا من امكانياتها ، وحين فازوا بمقاعد مجلس النواب ، كشفوا عن وجههم الحقيقى ، وانتخبوا « سعد زغلول » رئيسا لمجلسهم ، واسقطوا مرشح الحكومة ، وهكذا خدع الدهماء « صدقى » للمرة الثانية فكشف عن وجهه « الديمقراطى » بلا حياء وعلى الرغم من أن الدستور يحظر حل مجلس النواب لنفس السبب مرتين ، فقد استصدر قراراً بحل المجلس الجديد وشارك في الحكم بلا برلمان ، سواء كان مزورا أو غير مزور ، واستبدل البرلمان بمواكب من المؤيدين ، كان يأمر حكام الأقاليم ، ومديرى الأمن بحشدهم في الشوارع ، أو في الطرق العمومية ، ليهتفوا للحكومة ، ويعلنوا تأييدهم لها . وهي مواكب كانت تضم عادة فريقاً من المتشردين ، والمسجونين ، والخفراء ، ومن اكرههم رجال الشرطة بالوعيد أو بالاغراء ، على الخروج والهتاف .

كان « اسماعيل صدقى » قد انتهى الى أن الديمقراطية ، هي مجرد تمثيلية ، وأن الشعب هو زحام من العقول الفارغة التي تتميز بالغباء ، وأن يداً باطشة كفيلة بأن تحركه حيث تريد ، وأن توقفه عند الحد الذي تريد ، وفي صيف ذلك العام ، وضع « اسماعيل صدقى » بصمته الثانية الكبيرة على طابع السلطة في مصر ، حين أعاد إحياء احد اساليب الحكم التي كانت شائعة في العصور الوسطى ، والتي طبقها المحتلون في محاولتهم لاخماد الثورة ، وهو « العقوبات الجماعية » . .

قص شوارب الرجال

ففى قرية « إخطاب » ـ احدى قرى وسط الدلتا ـ طبق الملازم « احمد فريد التهامى » ـ ملاحظ نقطة الشرطة ـ التعليمات التي أصدرها وزير الداخلية « صدقى باشا » ، فطلب من أهالى القرية أن يحتشدوا جميعا ، لتحية فريق من وزراء العهد ، كانوا سيمرون بظاهر القرية ، في طريقهم الى عاصمة الاقليم لافتتاح بعض المشروعات . . وكانت « إخطاب » وما يجاورها من القرى ، من مناطق نفوذ « محمود الاتربى باشا » أحد انصار « سعد زغلول » وكان إكراههم على الخروج لتحية وزراء الانقلاب ، ورفع لافتات تحمل عبارة تعيش ((وزارة جلالة الملك)) ، هو نوع من الاذلال المقصود ، تعمده ملاحظ النقطة ، فأشرف بنفسه على التنبيه على أهالى القرية بالخروج لتحية الحكومة !

وخرج أهالى « إخْطاب » الى الطريق الزراعى بلافتاتهم وحميرهم . ووقفوا ينتظرون مرور موكب الوزراء ، وقبل دقائق من مروره ، علق الأهالى اللافتات على حميرهم ، ثم بدأوا يتسربون بخفة الى الحقول المحيطة بالطريق الزراعى ، وعبر الموكب . ودهش الوزراء ،



● صورة من الزمن السعيد تجمع بين سعد زغلول واسماعيل صدقي ومحمد محمود وحمد الباسل .. الباشاوات الأربع الذين نفوا إلى مالطة في مارس ١٩١٩ .

حين لم يجدوا بشراً يستقبلونهم ، بل وجدوا صفا من « الحمير » يحمل كل منها لافتة تقول « تعيش حكومة جلالة الملك » .. بينما كانت ضحكات مكتومة تتصاعد من أهالي « إخطاب » المختفين في الحقول !

واستشاط « صدقي » غضبا .. وأمر بتأديب القرية المشاغبة والإلا تمرد الفلاحون ورفضوا الاشتراك في مواكب التأييد المرتبة ، فقاد ملاحظ الشرطة « أحمد فريد التهامي » حملة تأديبية من ٢٠ جنديا مسلحا ، أمرت بفرض حظر التجول على القرية ، وضرب كل من يغادر منزله واعتقاله ، وتعرض ٣٠٠ من الفلاحين لضرب مبرح ، اثبت الطب الشرعي - فيما بعد - آثاره على أجساد مائة منهم .. وجمع ملاحظ الشرطة عشرات الرجال وأمر جنوده بأن يقصوا شواربهم بمقصات الحمير على مشهد من نسائهم ، وأجبر كل منهم تحت الضرب بالسياط على أن يختار لنفسه اسم امرأة ، ثم يجيب النداء حين ينادي بهذا الاسم على مسمع من الناس .. وأكرههم على أن يمرغوا أنفسهم في الوحل . ومنع أذان الفجر حتى لا يكون ذلك دعوة لكسر قرار حظر التجول . وامتد « العقاب الجماعي » من « اخطاب » الى قرى تجاورها من مناطق نفوذ « محمود الاتربي باشا » .

وأثارت العودة الى هذه الطريقة من طرق ممارسة السلطة ثائرة الجميع ، فقد كانت مصر - من الناحية الشكلية المحضة - بلدا دستوريا ، ينص دستوره على أنه لا عقوبة دون قانون ، ويشدد على أن « العقوبة شخصية » لا تتعدى شخص من يرتكب الجريمة إلى أقربائه أو أهل قريته ، أو حتى المنتمين لطائفته أو جماعته السياسية .

وهكذا فشل « صدقي » في أن يتكتم على الفضيحة ، أو يحول دون محاكمة « احمد فريد التهامي » ، فعاقبته محكمة جنايات المنصورة بالسجن مع الاشغال الشاقة مدة خمس سنوات . وقضت على آخرين من رجال الشرطة بعقوبات أخف . وقالت في حيثيات حكمها الذي صدر في ١٥ يناير ١٩٣٠ - اي بعد خمس سنوات من وقوع الحادث : إن « صدقي » قد استخدم السلطة التنفيذية آلة عذاب وانتقام وإكراه وتعذيب ، واستعرض الحكم القضائي آثار ذلك ، فقال « إنه متى انتهكت الحرمات على هذه الصورة ، لم يَقُم للنظام في أمة قائمة .. وأن في هذه الاعمال الشنعاء احتقار للشعب بتمامه وتعويد للناس على الاستخفاف بسلطة القانون » .

تمرد الفتى أحمد

وربما في تلك السنة نفسها التي فشل فيها « صدقي » في تزوير الانتخابات ، وانتقل الى الحكم بالتعذيب والعقوبات الجماعية . . بدا للشيخ « جعيدى حسين » أن حياة ابنه « أحمد » الدراسية لا تَعِدُ بمستقبل مشرق ، فقد أثبت الفتى المولود في « البداري » تمرده على قيود الدراسة ، وكشف عن أنه شغوف بالحياة لا بالكتب . . وكان أبوه قد اختار له « مدرسة الفنون والصنائع » في أسيوط ، ولم يكن هدفه الوحيد من ذلك أن يجد ابنه عملا أرقى من الفلاحة ، بل كان يطمح لأن يكون أحد أبنائه « افنديا » من المتعلمين . . وكان للتعليم ـ آنذاك ـ بريق يخطف عيون كثيرين من أعيان الريف ، ويدعم مكانتهم ، ويعلو بثرائهم . . ويضيف الى جاههم . . ومع أن « الفنون والصنائع » كانت مدرسة متوسطة تخرج عمالا مهرة . . الا أن الفلاحين كانوا يمنحون خريجيها لقب « المهندس » . . على سبيل الجهل . . والكرم . لكن أكبر الأبناء خيب آماله . . وبدأ يتعثر في دراسته . . ثم ما لبث أن غادر المدرسة دون أن يفوز بشهادتها أو حتى علومها . . ليجد نفسه يعيش في « البداري » كمن رقص على السلم . . ذلك أنه لم يعد طالبا . . ولم يصبح أفنديا أو موظفا ، كما أنه لم يتعلم أن يكون فلاحا .

ولم تكن « البداري » هي أكثر قرى المركز التي تحمل اسمه أهلية لأن تشغل مكانة المركز ـ أو العاصمة ـ اذ لم تكن أكثرها تقدما أو حضارة ، أو اتصالا بما يتبعها من قرى ، ولم يكن مستواها يختلف كثيرا عن مستوى القرى التابعة لها . . فالبندر وقراه ، هو أحد مراكز « محافظة أسيوط » الواقعة شرق النيل ، حيث يسود الفقر والجدب والتخلف ، بعكس المراكز الواقعة غرب النيل التي كانت في وضع اقتصادي واجتماعي افضل نسبيا ، حيث توجد الطرق ومزارع قصب السكر ومصانعه ، لذلك كانت « البداري » ، بندراً بلا خدمات ، ومدينة بلا مرافق ، فلا منازل للسكنى بالايجار . ولا مطاعم ولا فنادق .

وكانت سنوات الدراسة في « أسيوط » ، قد كشفت أمام « أحمد جعيدى » عالماً من المباهج المحرمة التي تعود عليها فأحبها . . فبدت « البداري » ـ حين عاد ليقيم فيها ـ سجنا لا يعد بتسلية ، ولا يرفه عن نفس ، ولا يجد فيه صاحباً يغري بالصداقة ، بين هؤلاء الفلاحين الذين لم يعودوا انداداً له . . فاتخذ من زميل له في مثل ظروفه هو « حسن عاشور » صاحبا وصديقا ورفيقا في جولات التسكع ، ومغامرات الليل ، وعاشا في القرية نموذجا لعاطِلَين ليسا في حاجة ملحة الى العمل ، يمارسان ألوانا من « الشقاوة » لم تكن جميعها محظورة قانونا أو عرفا ، لكنها يمكن أن توقعه تحت طائلة القانون في أي ظرف !

واحد من تلك القوانين التي كان يمكن أن تطول شقاوة « أحمد جعيدى » ، هو قانون « المشبوهين والمتشردين » . وهو قانون يجيز للسلطة الادارية ـ اي الشرطة ـ أن تضع الذين لا عمل معروف لهم ، ولا مورد رزق محدد ، تحت رقابتها فيكون من حق الشرطة أن تأمرهم بالمبيت في دورها ، من مغرب الشمس إلى مشرقها ، واحتجازهم كاجراء وقائي .

وبالقطع فان « أحمد جعيدى » الذي كان قد هجر المدرسة ليمارس البطالة لم يهتم بهذا القانون حين صدر ، ولم يهتم بقانون آخر ، اصدره بلدياته وسيد « البدارى » وما يحيط بها ، « محمد محمود باشا » عام ١٩٢٩ ، هو قانون « حماية الموظفين » الذى يمنع رفع دعاوى الجنح على الموظفين أو المستخدمين أو أحد رجال الضبط إلا عن طريق النيابة العمومية ، وهو قانون صدر ليطمئن الذين يتجاوزون اختصاصاتهم القانونية من الموظفين ، بأنهم لن يحاكموا دون إذن رؤسائهم ، بعد أن سلب من المواطنين حق اللجوء الى القضاء مباشرة لاختصام هؤلاء الموظفين . .

ولم يكن للبدارى اهتمام كبير بالسياسة وشئونها وأحوالها ، وكانت أوضاعها الخاصة قد اقتضت أن تتوزع السلطة المحلية فيها بين الحزبين الكبيرين اللذين كانا يتداولان السلطة آنذاك ، فاصبح لها عمدتان . . أحدهما يمثل « الأحرار الدستوريين » وينتمي لعائلة « همام » ، والآخر يمثل « الوفديين » وينتمي لعائلة « نصار » . . ومع ذلك فقد كانت بعيدة الى حد ما ، عن الصراع الحزبي الذي كان مضطرما في تلك السنوات ، بين « حزب الوفد » ـ صاحب الأغلبية الشعبية ـ وبين عدد من أحزاب الأقليات السياسية على صلة وثيقة بدار المندوب السامي البريطاني ، أو بالقصر الملكي ، أو بالاثنين ، تبذل جهدها لاقصاء « الوفد » عن الساحة السياسية . كان الارتباط بين القضية الديمقراطية . . أي حق الأمة في أن تحكم نفسها بنفسها ، وبين القضية الوطنية ، أي تحرير إرادتها من كل تدخل أجنبي ، قد وصل إلى مداه . . وخلال السنوات العشر التي تلت إصدار دستور ١٩٢٣ أدرك

المحتلون أن الانتخابات الحرة تأتي إلى الحكم بحكومات متشددة مع الاحتلال ، ترفض تسليم البضاعة ، وتصر على ما كانت تسميه « الاستقلال التام » ، فقرروا مساندة كل انقلاب دستورى ، يبعد هؤلاء المتطرفين عن مقاعد الوزراء والنواب !

ثلاثون شهراً من القهر

ذلك صراع لم يكن فيه « أحمد جميدى » منحازا ، ولم يكن مستقلا ، فقد كان يجهله جملة وتفصيلا ، لكن « اسماعيل صدقى » كان يعرفه جيدا ، ومع أنه كان يقف موضعيا حيث تقف أحزاب الاقلية المكروهة من الشعب ، فقد اختار أن يظل مستقلا عن الاحزاب ، ربما لانه كان شديد الثقة في مواهبه ، والاغترار بقوته وذكائه ، مما جعله لا يقبل أن يكون فردا في جماعة ، ولعله ـ وهذا هو الأرجح ـ رأى أن المعركة مستمرة ، وأن احتمال الخسارة فيها وارد ، فآثر أن يكون « ورقة اللعب » التي تصلح لكي تحل محل كل ورقة اخرى !

وهكذا جاءته الفرصة التي كان ينتظرها : ضاق الانجليز بوزارة « مصطفى النحاس » الثالثة ، لانه رفض توقيع مشروع المعاهدة التي كان قد توصل اليها خلال مفاوضاته مع وزير خارجيتهم « هندرسن » ، بسبب تشدده في موضوع السودان ، وتوقع « الأحرار الدستوريون »ـ كما يقول د . هيكل في مذكراته : ان ترحل الوزارة ، شأنها شأن كل وزارة تتولى المفاوضة ولا تصل فيها الى نتيجة ، فبدأوا يدسون لها الدسائس ، وبدأ رجال القصر يعطلون توقيع المراسيم التي ترفعها للتوقيع ، وانتهى الأمر بأن أجبرت الوزارة على الاستقالة . . . لكن الثمرة لم تقع في يد « الاحرار الدستوريين » . . كان الذين يلعبون بخيوط السياسة المصرية ، قد قرروا المراهنة هذه المرة ، على « ورقة اللعب » التي لم تجرب بعد . المجازف الجسور ، والقوى القادر على ادخال الغوغاء الى الشقوق : « اسماعيل صدقى » !

حتى أول ديسمبر (كانون الاول) ١٩٣٢ ، كان « اسماعيل صدقى باشا » قد بلغ ذروة النجاح !

ثلاثون شهرا توشك أن تنقضى على النظام الذي أنشأه ، فوق أنقاض دستور ١٩٢٣ ، وأسس به دستورا جديدا ، واصطنع له حزبا حصل ـ بالتزوير ـ على اغلبية في البرلمان ، وصحيفة يومية تنطق باسمه ، وتحمل ـ أيضا ـ اسمه ، ومجلس وزراء يرأسه هو لأنه زعيم لحزب الاغلبية البرلمانية : « حزب الشعب » . .

وليس مهما ـ في موازين النجاح كما كان يراها « اسماعيل صدقى » ـ أن المصريين قد تدافعوا جميعا يتصدون لنظامه منذ اللحظة الاولى ، ويقاومونه



● اسماعيل صدقى باشا



● الشاعر حافظ ابراهيم .

بالتظاهرات الطلابية والعمالية ، وبمشاغبات الفلاحين ومقالات الصحف وسخريات الشعراء وائتلاف الاحزاب المعارضة ، وحتى بالقنابل والرصاص ، فالرجل لم يكن ممن يعنيهم رضاء الناس عنهم ، فايمانه الثابت الذي لم تزعزعه الحوادث ، أن الشعب طفل قاصر جاهل ، تجمعه زفّة ، وتفرقه عصا ، فهو ـ عنده ـ ليس أكثر من زحام من الغوغاء يحركه مهيِّجون محترفون ، إذا تصدى لهم بعصا السلطة الغليظة ، وأرهبهم بسياطها وحشودها ، قضى على رأس الأفعى فسكن جسدها ، واستنامت لما يريده لها من صلاح الأحوال واستقامة الامور .

ألا يحق له أن يشعر بالفخر والرضى ، بعد أن نجح اخيرا في البرهنة على صحة نظريته عن الشعب ، فقد خمدت المقاومة أو كادت . . دون أن تتطلب سوى بعض الاجراءات « العنيفة » ، وكان أهونها فرض الغرامات الباهظة على عمد ـ مختاري ـ القرى الذين استقالوا من مناصبهم جماعة إثر جماعة ، احتجاجا على الغاء دستور ١٩٢٣ ، واصدار دستور جديد يعلي سلطة الحكومة على سلطة الامة ، حتى اضطر كثيرون منهم لرهن أو بيع ممتلكاتهم ليسددوا الغرامة ، وكف الباقون عن الشغب وعن الاستقالات المسببة .

أما الصحف المشاغبة التي اطلقت على دستور « صدقي » وصف دستور الحكومة ، وتمسكت بوصف دستور ١٩٢٣ ـ الذي الغاه ـ بانه « دستورالامة » وروجت للمصطلحين حتى اصبحا على كل لسان في مصر ، فقد عطلها وسحب رخص اصدارها ، وتعقب كل صحيفة أخرى تتخذها ستارا للتحايل على قرار التعطيل ، فسحب رخصها هي أيضا !

ودعا عليك الله

ثلاثون شهرا ونظام « صدقي » باق رغم المقاومة ، مستمر على الرغم من محاولات اغتيال صاحبه ومؤسسه : ببلطة حادة مرة ، وبمسدس سريع الطلقات مرتين ، وبقنابل وضعت مرة في فناء داره ، واستهدفت نسف القطار الذي يستقله مرة أخرى ، فضلا عن الرصاص الذي أطلق على « محمد توفيق رفعت » ـ رئيس مجلس النواب ـ والقنابل التي ألقيت على الكثير من دور الحكومة ، والمقرات التابعة لدار المندوب السامي البريطاني ، وعلى دار « محمد علام باشا » ، وكيل مجلس النواب ، ووكيل حزب الشعب الحاكم ، والرجل الثاني في الحزب والحكومة بعد صدقي . .

ثلاثون شهرا و « صدقي » يرزح على قلب مصر ، على الرغم من مقاومة المقاومين ، ودعاء الداعين ، وأهاجي الشعراء والمتكلمين :

استقبل شاعر النيل « حافظ ابراهيم » ذلك العام ـ ١٩٣٢ ـ بميمية في هجاء « صدقي » ، كانت من أواخر قصائده ، لذلك ضاعت ، ولم يبق منها سوى ابيات قليلة منها :

قد مرَّ عام يا سعاد وعام
وابن الكنانة . . في حِماه يضام
صبّوا البلاء على العباد فنصفهم
يجبي البلاد . . ونصفهم حُكّام
اشكوا الى قصر الدوبارة ما جنى
« صدقي » الوزير . . وما جنى « علاّم »

ويقى منها ـ ايضا ـ قوله مخاطبا « صدقي باشا » :

ودعا عليك الله في محرابه
الشيخ والقسيس والحاخام
لاهم احيي ضميره ليذوقها
غصصا وتنسف نفسه الآلام

وحين كان الناس يتبادلون سراً نسخ قصيدة « حافظ ابراهيم » ، والشاعر الكبير يخشى أن يصل نبأ القصيدة الى الطاغية ، فيفصله من عمله في « دار الكتب » ، لم يكن يتوقع أن ينهار « صدقي » قبل نهاية العام نفسه ، ولم يتح له أن يعيش ليرى انهياره ، فقد رحل الشاعر الكبير بعد دعائه على « صدقي » بشهور قليلة !

كيف ينهار نظام لا يسنده القصر الملكي فحسب ، بل ويتغاضى المندوب السامي البريطاني في مصر ، « السير برسي لورين » عن التدخل في شأنه ، معلنا أنه من أمور السياسة الداخلية المصرية التي تحرص بريطانيا العظمى على عدم التدخل فيها ، صونا لاستقلال مصر ، طالما أنها لا تمس أحد التحفظات الأربع التي وردت في تصريح ٢٨ فبراير (شباط) من عام ١٩٢٢ . ولأن المندوب السامي البريطاني ـ أيا كان اسمه ـ لم يتعفف يوما عن التدخل في شئون مصر الداخلية بصرف النظر عن استقلال تصريح فبراير ، فإن هذا الحياد الظاهري المزيف كان مظهراً لتأييد باطني ودعم غير منكور ، تقدمه الحكومة البريطانية لصدقي ودستوره ونظامه ، آملة أن يصمد ويقوى ، فيستتب النظام في مصر ، ويبتعد شبح المتهورين من الوفديين ، ويختفي في الشقوق مثيرو البغضاء ضد



● السيد برسي لورين المندوب السامى البريطانى ١٩٣٢ م .

انجلترا ، ليتقدم الحكماء والعقلاء ـ بقيادة « صدقى » ـ ويصل البَلَدان إلى تسوية للمشاكل بينهما . . وكان الرضا البريطانى على « صدقى » قد صعد إلى ذروته في خريف عام ١٩٣٢ . . بعد أن التقى في « جنيف » مع وزير الخارجية البريطانى السير « جون سيمون » الذي أعرب لصدقى عن سروره بالتعرف عليه ، وألمح إلى أن تقارير « السير برسى لورين » ، تمدح في صفاته كرجل ادارى صاحب الفضل في توطيد النظام في مصر واضاف :

ـ إن بريطانيا تعرف الآن الرجل الذي تتعامل معه . . ويسرها أن ترى امضاءكم على اتفاقية تنهى المشاكل بين البلدين !

في تلك الشهور من صيف وخريف ١٩٣٢ كان « صدقى » قد وصل إلى ذروة المجد ، وكان « احمد جعيدى عبدالحق » يرتدى بدلة الاعدام الحمراء ، ويعيش في زنزانة منفردة بسجن اسيوط في انتظار بت محكمة النقض في الطعن الذي قدمه محاموه ضد الحكم . . ولم يكن كبير الامل في أنه سيغير من وضعه !

أما صدقى ، فان الظروف الحزبية كانت تتهيأ لمصلحته . . فقد سرب المندوب السامى البريطانى خبراً لأحزاب المعارضة ، بأن حكومته مستعدة للتفاوض مع حكومة مصرية قومية تضم كل الأحزاب ، على أن تتم المفاوضة على الأسس التي انتهت اليها مفاوضات « النحاس/ هندرسن » ، وأنها سوف تشير في هذه الحالة على الملك بأن يعيد دستور ١٩٢٣ . . ومع أن المشروع في البدايةقد أزعج « صدقى باشا » إلاّ أن الفكرة سرعان ما أثارت خلافا بين المتحالفين على معارضته ، فقبلها « الأحرار الدستوريون »،وثمانية من قادة « الوفد » ، بينما رفضها « النحاس » ، وانتهى الخلاف بفصل المعارضين الثمانية ، وبانشقاق في صفوف « الوفد » . . وفي جبهة المعارضة ضد « صدقى » !

كان « صدقى » قد وصل إلى قمة المجد . .

وكان قضاؤه « احمد جعيدى عبدالحق » الذي يَجِد في أثره « أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

طغاة بلا قلب

كانت « البدارى » قد أصبحت منفى لأسوأ الموظفين في الجهاز الحكومى ، هؤلاء الذين يريد رؤساؤهم فصلهم أو نفيهم أو تأديبهم ، فيصدِّرونهم إليها ليتحالفوا مع الفقر والجدب والظلام على تحويل حياة أهلها إلى جحيم ، وينفِّسوا مشاعر الغيظ والقهر وعقد السلطة في أبدانهم النحيلة ، المكشوفة دون دفاع !

ولم يكن البكباشى « يوسف الشافعى » ـ مأمور « البدارى » ـ يختلف عن كثيرين من زملائه ضباط الشرطة الذين يتولون مثل منصبه ، ويتوزعون على خريطة مصر في تلك السنوات . . كان ـ كمعظمهم ـ يملك احساسا عاليا بالتفوق والتعالي ـ وربما الازدراء ـ على هؤلاء الفلاحين الذين كان يحكمهم ، ويتصرف ـ دون حساب ـ في القسم الأكبر من شئون حياتهم . . إنه لم يكن ـ فحسب ـ ابنا للزوجة الفرنسية لأحد أعيان الدقهلية ، بل كان ايضا ضابطا كبيرا في جهاز الشرطة الذي يسود أفراده ، إحساس بأنهم السلطة الثابتة والدائمة في الوطن . . فالوزراء يأتون ويذهبون . . والأحزاب تحكم ثم تقال حكوماتها أو تستقيل . . والمحافظون ومن في حُكمهم من المديرين في الاقاليم ـ يغيرون ويتبدلون . . أما الثابت والدائم ، بعد ـ أو مع ـ الملك ، فهم تلك الشبكة من مأمورى الشرطة وضباطها التي تنتشر

كخيوط العنكبوت فوق خريطة الوطن .

كانت سلطة « مأمور البداري » تتجاوز نطاق « بندره » ـ أي مدينة « البداري » ، لتشمل أيضا نطاق « مركز البداري » ، أي القرى التابعة له . . ولم تكن هذه السلطة قاصرة على حفظ النظام والأمن ، وصيانة الضبط والربط ، وغيرها من الأعمال الشرطية المحضة ، كمطاردة اللصوص والقتلة وتجار المخدرات ، والتفتيش على السلاح غير المرخص ، والبحث عن الغائبين والهاربين من تنفيذ الأحكام القضائية ، بل كانت تمتد بلا انتهاء ،لتجعل من « مأمورية الشرطة » ، حكومة مستقلة أو شبه مستقلة ، تنوب عن كل الوزارات في الاشراف على أداء مهامها في هـ [illegible] المكان النائي من الصعيد .

وكان العهد قـ [illegible] ع الكل بطابعه ، فأعطى الاذن لحكام الاقاليم في أن يكونوا مثله ، طغاة بلا قلب وبلا ضمير ، لا يعتصمون بخلق ، ولا يخافون من حساب ، ولا يقيمون وزنا لدستور أو قانون . . ولم لا ؟ ، وهم الأداة الباطشة التي استخدمتها حكومة « صدقى » في تزوير الانتخابات من أولها إلى آخرها . . وكلّفتها بمطاردة خصومها السياسيين في أرزاقهم وموارد معاشهم ، وإجبارهم على الذل والاستكانة والكفّ عن المعارضة والاحتجاج . . بل وكافأتهم على هذا العسف وذاك التنكيل ، فطلبت لمن تميزوا في التزوير ، وتفوقوا في التلفيق ألقاب « الباشوية » و« والبيكوية » . . ثم إن هناك القانون الذي يحميهم من القضاء ، ويسلب المواطنين حق رفع الدعاوى ضدهم إلا عن طريق النيابة العمومية !

وكان « يوسف الشافعى » ـ كوزيره « اسماعيل صدقى » ـ حريصا على أن يبدو أمام الجميع نموذجا للحاكم المخيف الذي يرهبه الجميع ، ويعملون له ألف حساب ، ويعترفون بأنه السلطة الوحيدة في البندر والمركز . وكان من ذلك النوع الذي يؤمن بأن السلطة هيبة وسُمْعة وثقة بالنفس وجسارة لا تتردد ولا تهتم بعرف أو قانون . . [illegible] وكان مما يثيره فيخرجه عن طوره ، أن يرى فلاحا « شايف نفسه » ـ أي معتزاً بها ـ أو « مِفْجبانيا » ـ أي يختال واثقا من نفسه ، إذْ كان من رأيه أن من أصول الضبط والربط أن يظهر الجميع إمارات الخضوع والتوقير ، ويعتقد أن الاعتداد بالنفس ، أو التخايل بها ، قد يوحى بأن هناك من لا يخاف الشرطة ، أو لا يحترم هيبة الحكومة . .

البداية

ومن سوء حظ « أحمد جميدى » أنه لم يكن يستطيع إلاّ أن يكون « مِفْجبانيا » ، فهو افندى متعلم ، قضى عامين باسيوط ، فاختلط بأهلها وطاف بمقاهيها ومباغيها وعرف أن الدنيا أوسع حدوداً وآفاقا من « البدارى » . إنه الأعور الذي لا بد أن يكون ملكا في بلد من العميان ، هم هؤلاء الفلاحين الذين لا يقرأون ولا يكتبون ولم يذهبوا إلى « اسيوط » . كان لا بد أن يكون معجبانيا ، ليغطى فشله في الدراسة ، وهكذا اندفع يجوب شوارع القرية ويتسكع في أنحائها ، حرصاً على مظهره ، يتنقل من المقاهى والغرز ، وتلتف حوله شلة من أصدقاء الفراغ والشباب ، كان أقربهم إليه صديقه « حسن عاشور » أو « حسونة » .

ولم يكن ممكنا ألا يلفت سلوك « أحمد جميدى » ذاك نظر « الشافعى افندى » ، فقد كانت شلة الافندية العاطلين موضوع شبهاته وشبهات أهل القرية ، كلما وقعت سرقة ، صحيح أنهم من أسرٍ مستورة ، ولكنهم شبان طائشون ، ولا بد أن مواردهم تقصر عن إشباع أمزجتهم الفاسدة . . وكان العمدة « محمد همّام » هو الذي عقد الصلة بين الاثنين وأتاح لهما اللقاء . . فما كاد يلى العمودية ـ في بداية عهد « صدقى » ـ [illegible] حتى دس اسم أحمد حمدى » وصديقه « حسن عاشور » بين الذين يرشحهم [illegible] القانون المشبوهين والمتشردين باعتبارهما عاطلين [illegible]

استدعى المأمور الشابين . [illegible] النوع « المِفْجبانى » الذي يستفز غضبه . . فهو [illegible] رأسيهما ، ويترك كل منهما خصلة من شعره تتدلى جبهته من تحت الطاقية ، ثم إن طريقتهما في الوقوف أمامه ، وأسلوبهما في الرد على اسئلته قد برهن له على أنهما في حاجة إلى مزيد من التأديب ، يخضعهما لهيبة الحكومة ، ويجعلهما يدوران في فلكها المغناطيسى ، وهكذا أمر بضربهما وقص شاربيهما بمقص الحمير ، وادراج اسميهما ضمن الذين تراقبهم الشرطة ، لأنهما من مشبوهي « البدارى » . . وبذلك ارتفع عدد المشبوهين المقيدين في دائرة البندر إلى ٣٦ مشبوها . .

كان وضع « أحمد جميدى » و « حسونة » على قائمة المشبوهين يعنى اخضاعهما لمراقبة الشرطة ، فلا يغادر كل منهما داره بعد الغروب ، ولا يغادر البلدة دون اخطار وإذن من « المأمور » وإلاّ جاز له القبض عليهما وتكليفهما

بالمبيت في مقر الشرطة ، ومن حق المأمور أن يقبض عليهما ويحتجزهما في حالة وقوع أي جريمة في المدينة ، دون أن يستأذن النيابة ، وحين كانا يهربان من المراقبة ، كانا يقادان إلى مبنى المركز ، ليتولى الكونستابل « أحمد خالد الهجرسي » - تحت اشراف المأمور - عملية التأديب ، فيضربان بالسياط ومؤخرات البنادق ، ويجبر كل منهما على أن يقول : أنا مَرَه .. ويختار المأمور لهما اسماء نسائية ، فيطلق على « حسونة » اسم « حُسْنَة » ، ويربطان في مرابط الخيل .. ويوضع امامهما التبن ، ويؤمران بأكله ومضغه ، ويمتطي الجنود ظهريهما كما لو كانا فرسين ، ثم توضع عصوان في دبريهما (!!)

كانت أشكال التعذيب التي يمارسها المأمور ومعاونوه ، تنتمي إلى النوع نفسه الذي مارسته الادارة من قبل ، ومن بعد : خلط الانواع والاجناس ، بتحويل الانسان إلى حيوان ، والذكر إلى أنثى ، والهدف هو تحطيم اعتداد المتمردين بأنفسهم ، وكسر شوكتهم ، والانتقاص من كرامتهم أمام من قد يفتنون بهذا الاعتداد ، وخاصة في الصعيد الذي تسود فيه مفاهيم خاصة للرجولة ، تجعل حتى الدموع أو الشكوى أو الأنين من علامات الأنوثة التي لا تليق بالرجل ..

القصاص

وقع مأمور « البدارى » في المحظور ، واستنفد احتمال الناس على الصبر ، وآن أن يدفع الثمن : قرر « أحمد جميدى عبدالحق » أن يثأر لكرامته المهدورة ،ورجولته المهيضة ، وأن يثبت للناس أنه لم يسكت على الاهانة ، ولم يرض بالاذلال ، فقرر انهاء حياة المأمور .. وفاتح صديقه « حسونة » في المشروع ، فوافقه عليه .. وقضيا عدة أيام يراقبان « الهدف » ، حتى عرفا أن المأمور تعود أن يخرج بعد غروب كل يوم للتنزه مع صديقه « فهيم افندى نصيف » - مهندس الرى - وأنه لا يصطحب معه حراسة ، بل ولا يحمل سلاحا .. كان يتوهم أنه غرس هيبته في كل القلوب ، وأن أحداً لن يجسر على التعرض له ، فالكل خائفون ومستذلون ومهانون !

السبت ١٩ مارس ١٩٣٢

غادر « اليكباشي (العقيد) يوسف الشافعي » - مأمور البدارى - منزل صديقه المهندس « فهيم نصيف » ، بعد الغروب .. ليتنزها على الاقدام .. وسارا يتجاذبان اطراف الحديث ، إلى أن بلغا دار المدرسة الابتدائية بالبلدة ، فأصبحا في مرمى نيران بندقيتين مشرعتين للثأر ، تستتران وراء دغل من البوص .. وانطلق وابل من الرصاص يشق ظلام الليل بوهجه ، ويخدش صمته بازيزه !

وبقلب بارد تماما تقدم « احمد جميدي » و « حسونه » من مكمنهما بين عيدان البوص ، إلى حيث سقطت الجثتين ، فوجدا مهندس الري ما يزال على قيد الحياة ، ولكن ذلك لا يعنيهما ، اذ لم يكن هو الهدف المطلوب وعندما اطمأنا الى أن المأمور قد فارق الحياة ، غادرا مكان الحادث مسرعيْن ، وعاد كل منهما الى بيته ، وأبدل ملابسه ، وجلس يتناول العشاء مع اسرته .. وكأن شيئا لم يكن ! . وكانا ما يزالان حول طبلية العشاء ، حين اندلعت الزغاريد تشق اجواء الفضاء ، من كل بيوت « البدارىْ » ، وحين خرجا يستطلعان الخبر ، كان الناس يتبادلون التهاني وكل منهم يقول للآخر :

- مبروك « الشافعي افندي » قُتِل ! وانقلبت الدنيا !

فهمت الدولة معنى الرصاصات التي اطلقت على مأمور « البدارى » والزغاريد التي انطلقت في شوارع المدينة - عقب شيوع الخبر - فهما صحيحا ، فالرصاصات تتوجه اليها ، والقتيل هو « النظام » وليس « يوسف الشافعي » والزغاريد تلعلع تشفيا فيها .. وتحذيرا لها .. طال رصاص المستذَلِّين المهانين صدر أعمدة النظام الحقيقية ، وقطع أحد أذرعته الضاربة .. وأنذر الآخرين ، بأن يلتزموا بالقانون ، ويمارسوا سلطانهم وفقا له ، وأن يكونوا هيئة نظامية تتبع حكومة نظامية ، وإلا فالجزاء من جنس العمل .. وكان الصمت على ما حدث في « البدارى » يعني أن يقاوم الناس محاولة « صدقي » لادخالهم الى الشقوق !

« من هذه النقطة ، بدأت الخيوط تشتبك بين اسماعيل صدقى باشا وبين أحمد جميدى حسين عبدالحق .. فلم تظل طرق حياة كل منهما متوازية .. لاتلتقى أبدا .. فتقاطعت وتداخلت وامتزجت .

ولم تصبح القضية بعدئذ مجرد قضية قتل بل صارت قضية وطن ، أثارت وفجرت وهزت وأسمعت ، ولذا فالقصة لم تنته ولكنها بدأت .. فصل جديد من دفاتر الوطن سنقرؤه معا في رحلة أخرى . □

واحة العربي

في الصميم

- النساء لايصدقن كل ما نرويه لهن ، لكن هذا لايمنعهن من روايته للآخرين .

« جان كلود باسكال »

- الفقر جريمة والدليل أن عقابه الأشغال الشاقة .

« مارسيل جوهاندو »

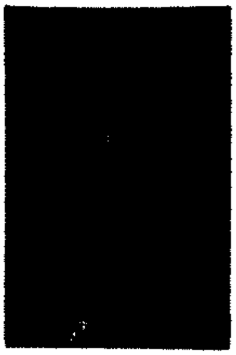
- منحنا الله الذاكرة/ لكي نتمكن من شم عبير الورود في شهر « ديسمبر » .

« أوسكار وايلد »



ظرفاء العرب

إلى أين ؟



نجيب الريحاني

كان نجيب الريحاني يسير مهرولا في طريقه إلى المسرح ، فحاول أحد المارة أن يستوقفه ، فقال : أرجوك ياعم ، إلى أين يذهب هذا الشارع ؟ فقال الريحاني وهو مستمر في سيره : « طول عمري أعرف هذا الشارع ثابتاً ولا يذهب إلى أي مكان » .

ضحكات عربية

بعير باثنين

شرد لهبنقة القيسي بعير ، فجعل بعيرين لمن دل عليه . فقيل له : أتجعل بعيرين في بعير ؟ فقال : إنكم لاتعرفون فرحة من وجد ضالته .

لو . إذا

قال أحدهم لآخر : لومت أنا ماكنت تفعل ؟ قال : كنت أكفنك وأدفنك . قال : فاكسني الساعة ما تكفنني به . وإذا مت فادفني عريانا .

الخبير

سأل أبو عون رجلا في مسألة ، فقال له : على الخبير بها سقطت .

لقد سألت عنها أبي ، فقال لي : سألت عنها جدك ، فقال : لا أدري .

ضحكات عالميّة

وأنا كذلك

أرادت إحدى الممثلات أن تدعو برنارد شو بطريقة مبتكرة، فكتبت إليه: «سأكون في منزلي في الساعة السابعة مساء يوم السبت القادم»، فرد عليها «وأنا كذلك».

* * *

وأنا كذلك أيضا

دعي الموسيقي الفرنسي سان صان إلى سهرة طلب فيها من فتاة أن تغني تكريما له مقطعا من أوبرا شمشون ودليلة، فتقدمت منه وقالت بصوت خافت:

ـ لكم أنا خائفة ياسيدي.

فقال لها: وأنا كذلك.

* * *

أعرف ذلك

في الجلسة التي تعرّف بها الصحافي اوريليان شول بالفيلسوف فيكتور كوازان قال الثاني للأول:

ـ أنا ياسيد شول لاأحب الظرف والذكاء. فأجابه شول على الفور:

ـ أعرف ذلك، لقد قرأت مؤلفاتك.

الضحك موزون ومقفى

تهوى خلافي

إن التي عذبتني في محبتها
كلُّ العذابِ فما أبقتْ ولا تركتْ
عاتبْتُها فبكتْ، فاسْتعْبرتْ جزعاً
عيني، فلما رأتْني باكياً ضحكتْ
فعدتُ أضحكُ مسروراً بضحكتِها
مني فلماّ رأتني قد ضحكتُ بكتْ
تهوى خلافي كما خُنْتُ براكِبِها
يوماً قَلوصٌ* فلمّا خنْها بركتْ

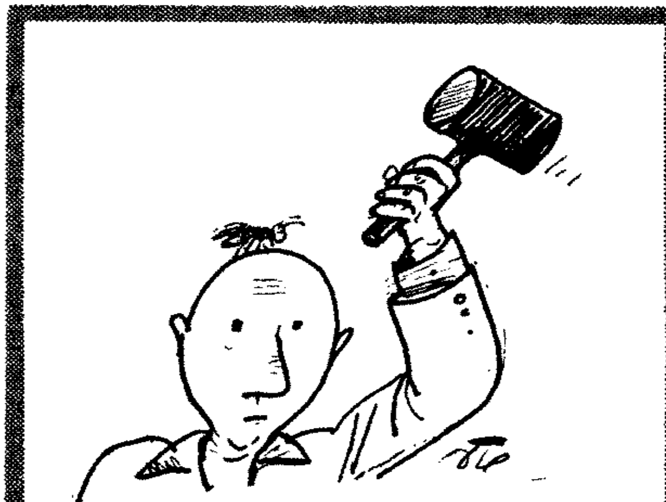
* قلوص: الناقة الشابة.

قاموس الظرفاء

الحظ: جندي مجهول ينسب إليه الناس الأخطاء التي يقعون فيها.

المتفائل: هو الذي يترك محرك سيارته يعمل وهو ينتظر زوجته عند دخولها أحد المتاجر لشراء بعض الحاجيات.

النصيحة: هدية رخيصة.

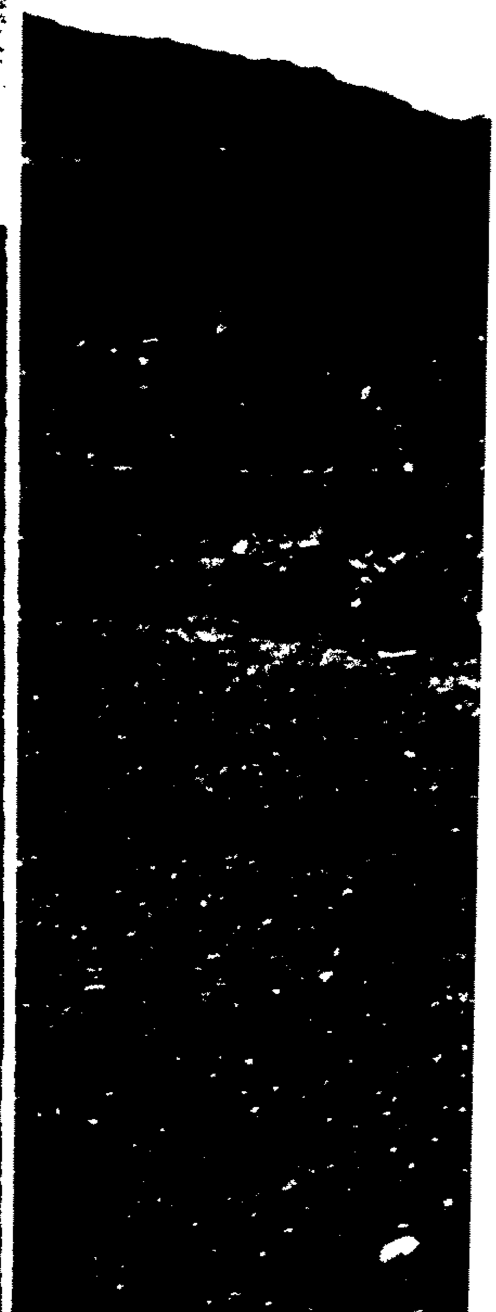



بعد ربع قرن على الثورة
ردفان..
العودة
إلى
"الجهاد"
الأكبر
!



استطلاع :
سليمان الشيخ
تصوير :
فهـد الكوح





معظم مساحة مديرية ردفان في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تتكون من جبال ، وجبالها مسننة وعرة ، نادرة الاشجار ، مع ذلك فإنها احتضنت المجموعات الاولى التي أعلنت الثورة على الانكليز ، بعد أن استعمروا البلاد منذ عام ١٨٣٩م وجعلوا ميناء عدن محطة مهمة تزودهم بالوقود والغذاء لمواصلة رحلتهم إلى مستعمراتهم في الهند أو العكس .

في مثل هذه الأيام منذ ربع قرن مضى ، إنطلقت الرصاصات الاولى للثورة على الانكليز من قمم جبال ردفان ، فكيف هي حياة الناس الآن ، بعد مضي هذا الزمن ؟ وما هي ذكريات الرعيل الذى واجه غطرسة المستعمرين ودباباتهم ، وطيرانهم ، وأسلحتهم المتقدمة ، وهو لا يملك إلا اسلحة الايمان بقضيته . . والاصرار على تحرير بلاده . . وبضع بنادق قديمة ؟ !

قبل الدخول في تفصيلات عن الزمن الذي كان،ووقائع الحاضر ، فإنه يجدر بنا تسجيل مجموعة من الحقائق عن المنطقة .

ـ إن مديرية ردفان تتبع الآن محافظة لحج ، أي المحافظة الثانية كما كانت تسمى من قبل ، وهي تقع شمال مدينة عدن . وتبعد عنها حوالي مائة كيلومتر ، وعندماوصلناها فإننا اكتشفنا أنه لا يوجد قرية أو بلدة ، أو جبل محدد اسمه ردفان . . بل إنه اسم يطلق على منطقة بأكملها بما فيها من جبال ووديان وقرى وسهول ، وأعلى ارتفاع سُجل لإحدى قمم جبالها وصل الى ١٨٦٢ متراً .

ـ يبلغ عدد سكان المنطقة حوالى مائة ألف نسمة ، وكان يغلب عليهم الطابع القبلي وأهم القبائل التي تسكنها هي : القطيبي ، العبدلي ، البكري ، الحجيلي ، الضنبري ، وغيرها .

وقد كانت هذه القبائل تتنافس وتتنازع فيما بينها ، ونتج عن ذلك مع غيره من أسباب حرمان المنطقة من كثير من مظاهر التقدم .

مع ذلك فإن هذه المنطقة نفسها كانت مهد الثورة التي انطلقت في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٦٣ !

ـ إن منطقة ردفان لا تحاذى حدود الشطر الشمالى من القطر اليمني ، الذي قامت فيه ثورة ضد الملكية في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ وأصبح يمثل سنداً حقيقياً لأي عمل ثورى في الجنوب ، وتفصل ردفان عن حدود اليمن الشمالي مناطق وأراضى الضالع والعلوى والحواشب من ناحية الغرب ، كما ويفصلها الحالمين والشعيب والمفلحي شمالاً ، وكلها مناطق جبلية وعرة . مع ذلك فإن الثورة انطلقت من منطقة ردفان بالذات وليس من غيرها !

ـ عند قيام الثورة في اليمن الشمالى سنة ١٩٦٢ وتعرضها لبعض المؤامرات والمواجهات ، فإن آلاف الافراد انطلقوا من جنوب اليمن للمشاركة في حماية الثورة في الشمال والدفاع عنها ، وكان من بينهم المئات من ابناء ردفان الذين « تسللوا » سيراً على الاقدام وقطعوا مئات الكيلومترات من خلال الجبال الوعرة . وقد لعبت القوات المصرية دوراً مهماً في حماية ثورة الشمال . ومساعدة الثورة في الجنوب .

ـ لقد كان بين أفراد النواة الاولى التي أشعلت فتيل الثورة في منطقة ردفان مجموعة من الشبان الذين عملوا في الكويت ، وسكنوا في منطقة « عشيرج » التى تحول اسمها الى الدوحة الآن ، وشاركوا في رصف الطرق والعمل في شركات النفط ، ومارسوا بعض الاعمال الاخرى ، وقد عايشوا النهضة في الكويت وتشربوا الأجواء الثورية التى كانت تسود المنطقة العربية كلها ، وتأسيس نواة الدولة الوحدوية الحديثة بين مصر وسوريا ١٩٥٨ .

وقد انتظم الكثير منهم في حركة القوميين العرب وغيرها من تنظيمات وأخذ بعضهم يعود الى المنطقة ويسهم بجهوده في توفير الأرضية المناسبة لانطلاق الثورة .

هذه بعض الحقائق التي تتعلق بالمنطقة وأبنائها . . فكيف هى الآن ؟ وما هى حكايتها مع « الجهاد » الأكبر ؟

أرض الجبال العالية

نغادر عدن ونتجه شمالا فنمر على ضواحي خور مكسر ، والمنصورة ، والشيخ عثمان .. نرى جمالاً تجر عربات .. فيستهوى المنظر زميلي المصور ويأخذ بالتقاط الصور المناسبة ! ثم نمر بدار سعد .. القرية التي تفصل بين محافظتي عدن ولحج ، ثم نصل الى الحوطة عاصمة محافظة لحج ، فنجد مزارع وبساتين حمضيات وموز ونخيل وخضراوات تحيط بالبلدة ، قيل لنا إن بعضها يسقى بواسطة الآبار ، وبعضها يسقى من وادي تبن الذي كان جافاً ويشكو الظمأ كغيره من الصحارى المحيطة به (في شهر يناير - كانون الثانى) ثم نمر بالقرب من قرية الشقعة يليها قرية العند ، وبعدها نصل الى مفرق الطريق الذى يتجه الى « كرش » حيث نقطة الحدود بين شطرى اليمن .

بدأ ارتفاع التلال يتزايد تدريجياً ، الطريق ممهدة ويمكن السير فيها على خطين .. بعض شجيرات الاثل ، والراك - تستعمل أعوادها كمساويك - والسومر وغيرها تظهر على حواف الطريق .. بدأ الطريق ينحصر بين التلال المتقابلة .

قال مرافقنا هذا المكان يسمى « سيلة بله » وهذه بعض الفجاج والمغارات التي كان الثوار يتحصنون فيها في بعض الأحيان . لقد كانت الطريق ضيقة من قبل وكان يمكن التحكم بها من خلال بعض المواقع في هذه التلال .

بدأت الجبال بقممها الشامخة تظهر وتسد أفق النظر ، هبات منعشة من الهواء بدأت تتسرب بين الفينة والأخرى ، بعض غيوم بيضاء وسوداء لاحت على وجه السماء ، وطبيعة الجبال الصخرية المدببة بدأت تبرز بين تلال كثيرة .

نخفف سرعة السيارة عند حاجز لرجال الشرطة ، ثم نمر بين مجموعة من الدكاكين ، ألمح مجموعة من الرجال يمضغون القات .. ثم يعلق مرافقنا :

إن زراعة القات وتعاطيه مسموح بهما في هذه المناطق لأنها هي التي تزرعه ، لكن المناطق التي مررنا بها من قبل فإن تعاطي القات مقنن فيها ليومين في الأسبوع (الخميس والجمعة فقط) .

ثم استدرك : نسيت أن أذكر بأننا نمر الآن من قلب قرية الملاح ، وهي كما يقال عنها مشهورة بنسائها ورجالها الملاح .



- موقع مديرية ردفان فى محافظة لحج بجمهورية اليمن الديموقراطية .

ثم مررنا بقرية الرويد ، وشعب الديوان .. ثم جدعة .. فالحمراء ، وكلها قرى صغيرة عدد بيوتها قليل ربما لا يصل الى خمسين بيتاً .

سألت : أين ردفان ؟

أجاب مرافقنا : هى كل هذه المنطقة التي نحن فيها .

علقت : ألا يوجد مكان معين يسمى بهذا الاسم ؟

أجاب : بل هى المنطقة كلها .

بيوت القرى موزعة على رؤوس الجبال والتلال ، هكذا دأب اليمني على بناء بيته ، إنه يبحث عن ما يمكنه أن يوفر له الحماية ، وكشف تحركات أعدائه وما يحيط به .

في الحبيلين

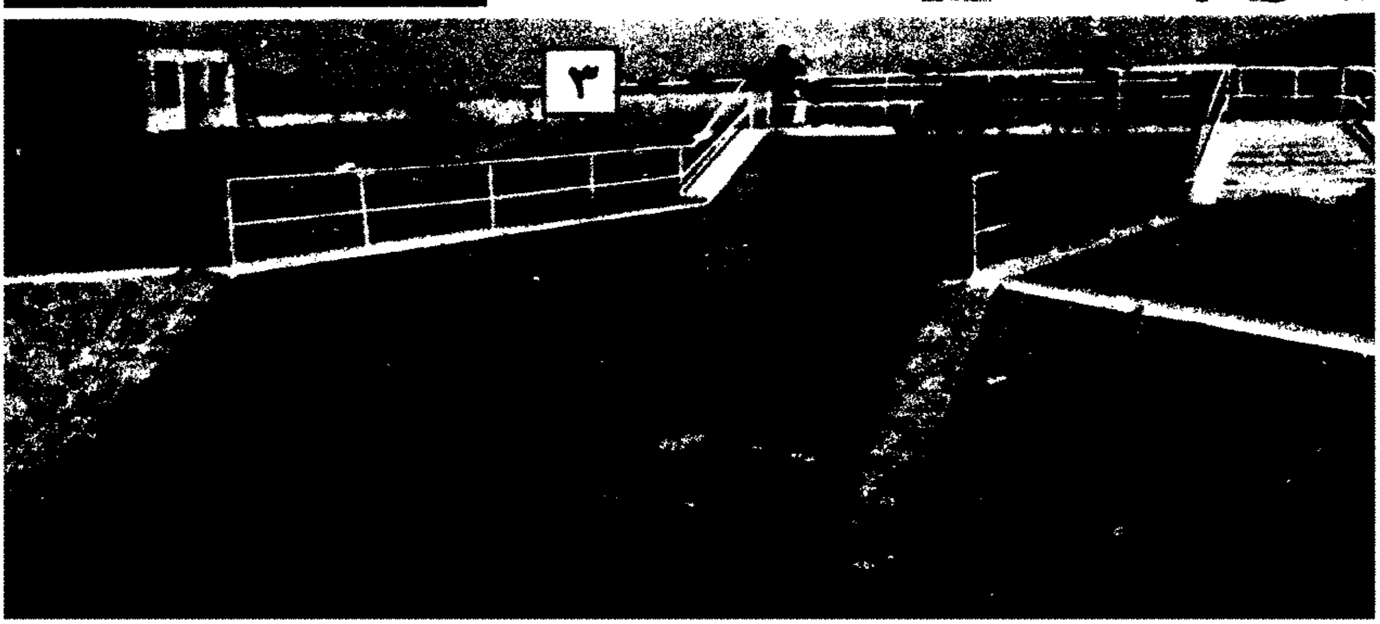
نصل الى مشارف بلدة .. إأنصبة بيضاء تحتل جانباً من الطريق ثم ندخلها ، معظم بيوتها مبنية من طابق أو طابقين ، ولا يوجد ما هو ضخم أو كبير هنا ، الطريق الرئيسي « مسفلت » وما عداه ما زال على حاله من تراب .

قال مرافقنا : إنها بلدة الحبيلين عاصمة المديرية ، ويصل عدد سكانها الى حوالى ١٨ الف نسمة ، والحبيل هو الأرض المنبسطة كما ترون ، والحبيلين هو




١


٢


٣





١ ـ متحف ردفان يحاكي الجبال التي تحيط به .

٢ ـ من أسلحة الثورة في متحف ردفان .

٣ ـ وأيضا سد سبا في ردفان !

٤ ـ السمسم عندما يدرس في الحبيلين .

٥ ـ بدون تعليق .. انه المصرف أو « البنك » .

مثل جبيل ، تقع البلدة في سهل تحيطه الوديان والتلال ، بعض الاشجار والزراعات القليلة تظهر بين الوديان ، محطة بنزين ومقاهي ومطاعم ودكاكين متواضعة تحاذي الطريق .

وصلنا الى بناء مكون من ثلاثة أدوار . . ربما هو اعلى بناء في البلدة ، استقبلنا مضيفونا على باب احدى شقق البناء التى تستعمل كمكتب ومضافة لاعضاء الحزب وزوار المنطقة .

ارتحنا قليلا واستأنفنا الحديث عن المنطقة وأوضاعها والمستجدات فيها ، والذكريات ، ذكريات من شاركوا في الثورة وخاضوا غمارها . .

وفد الى البيت قائد صالح حسين رئيس المكتب التنفيذى لمجلس الشعب المحلى في مديرية ردفان والسيد سلام أحمد علي مدير التربية والتعليم في المديرية والسيد قاسم ثابت سعيد سكرتير المكتب التنفيذي لمجلس الشعب المحلي . . . ومسؤول الحزب في المديرية ، ونائبه وأفراد آخرون .

السيد/ قائد من مواليد سنة ١٩٣٩ ، شارك في الثورة منذ بدايتها وكان راعياً ثم انضم الى الرعيل الذى عمل في الكويت ، وتنظم هناك في حركة القوميين العرب ، والتقى بعلي عنتر أحد القادة التاريخيين للثورة . . وعاد واياه مع مجموعة من أبناء ردفان والضالع في نهاية الخمسينيات ، وتزودوا بالسلاح من شمال الوطن . . وعادوا الى قراهم في الجنوب وبدأوا مع غيرهم بالعمل السرى وعقد المصالحات بين القبائل المتنافرة والمتنازعة .

علق أحد الحاضرين دعنا نعرفك بالمكان . . ثم نصل الى الناس والتاريخ .

لقد تم ضم ردفان بالقوة الى إمارة الضالع في الخمسينيات ولذلك فإن التمردات والثورات قامت لهذا السبب أو لأسباب عديدة أخرى أهمها وجود المستعمر الانكليزي ووجود مظالم كثيرة ، لذلك فإن المستعمر بنى معسكراً ومطاراً على هذه الأرض أى أرض هذا المبنى وما يحيط به ، كي يواجه التمردات .

لقد كان المعسكر يستوعب ١٣ ألفاً من جنود العدو ، أي إنه كان المعسكر الثاني بعد معسكرات عدن من حيث كبر المساحة وعدد أفراد جنوده .

إن منطقتنا كما ترى جبلية والمساحات السهلية أو القابلة للزراعة فيها قليلة ربما لا تزيد على ١٥٪ من مساحة المنطقة التي تصل الى حوالى ٢٥٠٠ كيلومتر مربع ، تحتوى على حوالى ١٣٥ قرية ، ربما لا يصل عدد أفراد بعض القرى الى ٢٠ أو ٣٠ فرداً ، وبالرغم من ان المساحة القابلة للزراعة قليلة ، إلا أن فلاحينا استطاعوا استثمارها وانبات الحبوب والخضراوات فيها ، واستصلحوا بعض التلال والجبال من خلال المدرجات التى اقاموها عليها ، هكذا فإن حياتنا متقشفة تعتمد على بعض الزراعات التى تقيم أود الناس وأود الماشية التي يملكونها . .

ولأننا قبائل . . ولأن بعض المنعنات والمشاكل كانت تقوم بيننا في بعض الأحيان ، لذلك فإن السلاح كان دائم الحضور بين أيدي الأفراد ، وكانت تتوجه هذه البنادق أحيانا الى غير العدو الحقيقي ، أى المستعمر . .

مجلس شعب محلي

● لقد ذكرتم أن السيد/ قائد صالح حسين هو رئيس المكتب التنفيذى فى مجلس الشعب المحلي . . هل تعطوننا فكرة عن كيفية قيام هذا المجلس ؟

ـ لقد صدر قرار عن مجلس الشعب الأعلى فى مارس سنة ١٩٨٧ بإنشاء مجلس محلى فى ردفان وسيؤن .

وفعلا فإن ترتيبات اجراء انتخابات في المنطقة قد تم اتخاذها بين (٢٥ و ٢٧ نوفمبر ١٩٨٧) وتم ترشيح ٤٣ مرشحاً كان المطلوب انتخاب ٣٠ عضواً من بينهم ، وترك للمرشح حرية الاتصال بالناس والاعلان ، وطبع برنامجه وصوره ، ويمكن أن تشاهد بقايا ذلك على حيطان بعض الدكاكين في السوق (رأيت ذلك في اليوم التالي) .

● هل كان المرشحون جميعهم من الحزب (الحزب الاشتراكى اليمني هو الحزب الوحيد في اليمن الديمقراطية بعد أن اندمجت فيه ثلاثة تنظيمات)

ـ سمعت أكثر من صوت ينفى ذلك ثم جاء التوضيح لا . . إن الأمر ليس كذلك ، إن القانون (قانون قيام المجلس) فصّل في هذا الأمر . . وجاء فيه ان عدد الحزبيين يجب أن يكون ١٣ نائبا في حين أن عدد غير الحزبيين يجب أن يكون ١٧ نائباً . وقد تم انتخاب مكتب تنفيذى من بين الثلاثين نائباً ، ورئيس المكتب يصبح عضواً في مجلس الشعب الأعلى في المحافظة .

● سألت : هل تم تعميم هذه التجربة في بقية المحافظات ؟

سمعت جواباً : إن الامر ما زال في طور التجربة ، وربما يلى ذلك خطوات أوسع في بقية المحافظات .

من يحضر السوق يتسوق

توجهنا الى سوق البلدة ، صور بعض المرشحين ما زالت معلقة على بعض الحيطان تحاذيها بعض الشعارات والتعاميم الحزبية ، طريق السوق ممهدة لكنها من تراب ، والحوانيت متواضعة البناء ، ومتواضعة في المواد التى تعرضها ، حوانيت الخضراوات تحاذى حوانيت اخرى تبيع القهوة والهيل والحبوب (قمح ، سمسم ، عدس ، برغل ، شعير ، ذرة ، الخ) ثم تليها حوانيت اخرى تبيع بعض الحلويات وغيرها .

وبعض الحوانيت كانت تتكون من جزأين ، جزء تتم الصناعة فيه ، وآخر للعرض والبيع ، منها الحلاوة المطبوخة ، أو حلاوة اللبن أو السمسمية والمضروب والكعك وغير ذلك .

لفت نظرنا مجموعة من الشبان كانوا يتراكضون ويتبعون احدى السيارات (وانيت) وصلت السيارة الى مكان كان قد تجمع حوله مجموعة من الرجال والشبان . بدأت اللفائف والحزم الخضراء تتناقل بين الأيدى . لحظات ولم يبق منها أية حزمة ، لقد تم كل شيء بسرعة غريبة . . . انه القات يقبلون عليه كأنه ترياق الحياة !

تابعنا جولتنا في السوق . . عجوز تشوى أكواز الذرة الشامية على حطب وتبيعها ، مكتبة صغيرة معروضها قليل من كتب وصحف كانت موجودة في قلب السوق . . طالبنا صاحبها بزيادة كمية اعداده العربي التى تصله وذكر أنها تباع في نفس ساعة وصولها .

نسمع هديراً فنقترب ، كان صوت آلات مطحنة تطحن القمح والذرة والدخن ثم تحاذيها معصرة خاصة بالسمسم . . السيد/ محسن صالح حسن ذكر لنا انه اقام المعصرة منذ بداية السبعينيات ، وهو يعصر السمسم ويبيعه كطحينة للناس أو يأتي اليه الناس بمحصولهم ويدرسه لهم (يعتبر السمسم احد محاصيل مزارع البلدة والقرى المحيطة بها) .

وطريقة الدرس ما زالت بدائية يقوم بها جمل تربط رقبته بلجام يكون موصولاً بثقل خشبى ويوضع السمسم تحت الثقل ومن خلال دورات الجمل المتواصلة يندرس السمسم ويسيل زيته لينتقل الى الوعاء المطلوب .

● سألت السيد/ احمد جابر صالح صاحب احدى المطاحن القائمة منذ ١٣ سنة :

● هل تعرف القراءة والكتابة ؟

ـ أجاب : لم يكن في البلاد (يقصد ردفان) أية مدارس زمن الانكليز الا محاولات بعض الشيوخ (شيوخ الدين) ولذلك فإننى لم اتعلم في تلك الايام لكن بعد انتصار الثورة فإننى التحقت بمدارس محو الامية سنة ١٩٧٥ وحصلت على ما فاتنى ، إنى أقرأ الصحيفة الان ، واكتب الرسائل وغير ذلك .

السيد/ محمد صلاح صاحب مطحنة قريبة من المطحنة السابقة ذكر لنا ان الحوانيت والمطاحن مملوكة للافراد ، ويدفعون ضرائب للدولة عليها .

لكل بضاعة سوق

على بُعد امتار قليلة من سوق الخضراوات والحبوب . . كان سوق آخر يتم فيه البيع والشراءويغص بالناس والحيوانات ، إنه سوق بيع المواشي (بقر ، غنم ، ماعز) إنه يقام ايام الأحد والثلاثاء والاربعاء ولا يقتصر على المشاركين من أبناء البلدة أو أبناء المديرية بل يشارك فيه آخرون من مديريات اخرى ، وبعضهم يبيع ماشيته ويشترى بثمنها حبوباً أو غيرها .

ذكر لنا مأمور الضرائب السيد/ أحمد هيثم إنهم يتقاضون ٣٪ ضريبة من البائع و ٢٪ من المشترى ، وذكر إنهم أربعة موظفين يعملون في السوق مأموري ضرائب كما وذكر أن معدل سعر الخروف يصل الى حوالى ١٥ ديناراً فيما يتراوح سعر البقرة بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ دينار ، وذكر ان البقر الذى له سنام كالجمل هو من الفصائل المألوفة في ردفان ، كما وأكد انه لم يصادف احداً يتهرب من دفع الضريبة المقررة عليه .

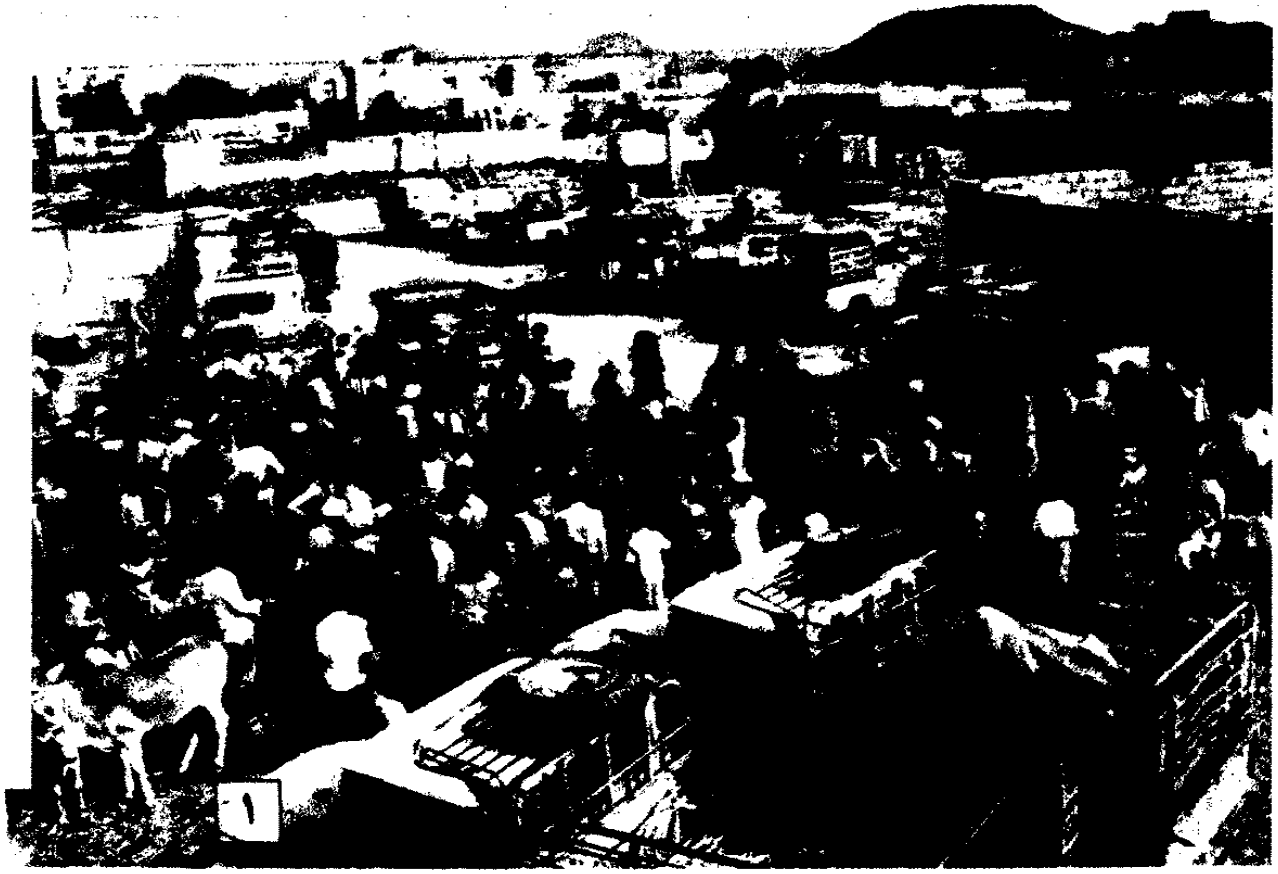
السيد/ ناصر احمد ثابت ، كان يتزنر بزنار ويعلق جنبيته (خنجر معقوف) فيه قال : أنا أعمل دلالا في السوق ، وأعمل بنفس الوقت سكرتيراً لاتحاد الفلاحين في البلدة ، وذكر : نحن همزة وصل بين البائع والمشتري ، ونتقاضى ديناراً على كل رأس يباع .

لفتُ نظره الى بعض العجائز اللواتي يشاركن في البيع والشراء . . . فذكر :

إن أغلب رعاة الماشية هن من النساء ، في حين ان الزوج يعمل في الأرض أو في أحد الاعمال الحكومية .

في طريقها للتطور والنمو

تابعنا جولتنا في البلدة . . صوت ماكينات « بوابير » المطاحن وآبار الماء تسمع بوضوح ، بيوت





١ ـ سوق بيع المواشي له أيامه وقوانينه في الحبيلين .

٢ ـ بائع خضار على سيارة متنقلة . . لم ينس عادة مضغ القات .



السيد قائد صالح حسين



السيد سلام احمد علي



السيد مهدي علي مثنى

القرية موزعة على مساحات متباعدة متفرقة والتنقل بينها يتم بواسطة الحمير أو مشياً على الاقدام أو بالسيارات . لاحظت بعض البيوت المتشابهة تتألف من دور واحد ، ومدهونة باللون الاصفر تحاذي الطريق العام . . قال مرافقونا :

انها بيوت بنتها الحكومة وعددها ٢٤ بيتاً يدفع ساكنها مبلغاً شهرياً كقسط من ثمنها وبعد السداد تصبح ملكية خاصة (ربما بعد ١٥ أو ٢٠ سنة) .

● وبقية البيوت ؟

ـ انها ملكية خاصة بناها الناس وسكنوها .

● أرى بيتاً واسعاً على تلة . . انه يشبه « الفيلا » لمن هذا البيت ؟

ـ انه مقر الحزب ، فيه مكتبة وقاعة محاضرات تستعمل احياناً للعروض المسرحية .

● على ذكر العروض المسرحية . . هل هناك مبنى خاص للعروض المسرحية او دار للسينما ؟

ـ لا يوجد دار خاصة بالعروض المسرحية ، انما يمكن أن يتم ذلك في قاعات المدارس ، ولا يوجد دار خاصة للعروض السينمائية انما تعرض الوحدات السينمائية المتنقلة بعض الافلام الوثائقية ، وتزورنا أحيانا بعض الفرق المسرحية من الحوطة أو من عدن ، ويوجد في البلدة ناد رياضي واحد وهو في نفس الوقت ناد ثقافي .

● أرى مبنى واسعاً بالقرب من « الفيلا » وألاحظ تمثالا عليه فماذا يكون ؟

ـ انه متحف ردفان . . متحف الثورة ، وقد تم افتتاحه في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٧٨م . انتقلنا اليه . المبنى واسع فيه خمسة اجنحة وصالة خارجية تعرض وثائق تتعلق بإنطلاق الثورة سنة ١٩٦٣ وما تلاها من احداث ، في اعلى المكان ينتصب نصب رجل يحمل بيده بندقية ويتمنطق بحزام رصاص ويلبس الملابس اليمنية التقليدية (المئزر أي الفوطة ، ومشدة ـ ربطة على الرأس تسمى « كشيدة » أيضاً) .

على يسار المكان كانت مروحة طائرة معروضة وموضوعة على الارض . علق مرافقنا : انها مروحة طائرة « بيرفل » صغيرة كانت جاثمة مع غيرها في المطار الصغير الذى اقامه الانكليز على ارض البلدة ،

وهي طائرة قاذفة الا أن الثوار تسللوا الى المطار ، ووضعوا لغماً تحت الطائرة فتفجر فيها في احد ايام سنة ١٩٦٥ .

سلسلة من المعارك والشهداء

على الحوائط الخارجية للمبنى تم تسجيل اسماء الشهداء من ابناء المنطقة الذين شاركوا في الانتفاضات والمعارك ضد الانكليز وضد حكم الامام في الشمال الذي كان يضم بعض المناطق الجنوبية الى سلطانه في بعض الاحيان ، من بينها ردفان والضالع وغيرها ، وضد الاتراك قبل ذلك . يتوالى تنقلنا بين اللوحات التي تحتوي على اسماء الشهداء بينهم (١٣) شهيدا سقطوا في الدفاع عن ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ التي قامت في شمال اليمن ، ثم اسماء شهداء معركة الحمراء وشهداء معارك حرب التحرير .

قاعات المتحف كانت تحتوى على وثائق الثورات والأسلحة التى استعملت فيها ، والأسلحة الفردية لبعض القادة ، بينهم راجح بن غالب لبوزة اول شهيد لمعارك التحرير في ١٤ اكتوبر ١٩٦٣ ، ثم ملابسهم وبعض اللوحات الفنية التى رسمها فنانون تشكيليون واهدوها للمتحف .

● سألت : لقد تكرر اسم الحمراء كثيراً فهل تأخذوننا اليها ؟

ـ جاءت الاجابة . . إنها ليست بعيدة من هنا ، خمس دقائق بالسيارة ونكون فيها .

● هل هى قرية ؟

ـ لقد كانت وما زالت ، وفيها او بالقرب منها قامت معركة الحمراء.تراب الطريق الممهدة ابيض

خرجنا من بلدة الحبيلين ودخلنا في واد تحفه الاشجار واعواد القصب . . ثم وصلنا الى بضعة بيوت وبعدها واجهتنا عدة شواهد بيضاء قيل لنا : انها شواهد شهداء معركة الحمراء التى قامت سنة ١٩٤٠ جاء في كتاب « صفحات مشرقة من تاريخ المقاومة الوطنية في ردفان » الذي اشرف على كتابته سعيد صالح سالم احد قادة جبهة ردفان ، عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى اليمنى ما يلى :

كان مركزا « الحمراء » و « سليك » هما اول مركزين اقامهما الاستعمار في منطقة ردفان وذلك في «اكتوبر» تشرين أول سنة ١٩٤٠، وعندما عرف ابناء ردفان بوجود المركزين ووجود قوة عسكرية فيهما دعوا جميع أبناء ردفان الى عقد لقاء موسع في سوق « الثلوث » في وادى مسك ، وقد حضر هذا الاجتماع الموسع مجاميع كبيرة من ابناء ردفان ممثلين لمختلف القبائل ، واتخذ قرار في هذا اللقاء الكبير يقضى بالقيام بهجوم على المركز الاستعمارى . وفي ليلة ٢٢ اكتوبر ١٩٤٠ قام أبناء ردفان بشن هجوم كبير على الجنود المتمركزين في هذين الموقعين ، وكانت معركة حامية استخدمت فيها مختلف الاسلحة ، بما في ذلك السلاح الابيض ، وتم تصفية كافة الجنود المتمركزين حيث قتل وجرح منهم العديد من الجنود وهرب الباقون واستشهد العديد من ابناء ردفان (بلغوا ١٢ شهيدا) .

● سألت مرافقنا : ما هى حكاية مجموعة الشواهد القائمة على يسار الداخل الى البلدة ؟

- انهم شهداء الحركة الاخيرة ١٩٨٦ (الصراع الداخلى) من ابناء ردفان وقد بلغوا حوالى مائة وخمسين شهيداً . قرأنا الفاتحة على ارواح الشهداء جميعهم وتوجهنا الى بعض الأراضى المستصلحة التى تقع خلف قرية الحمراء . جاءنا عامل في مشروع استصلاح الاراضى فعرفونا عليه ، إنه احمد مقبل .

شاعر وثائر شارك في الثورة التى انطلقت سنة ١٩٦٣ قال : عمرى ٦٧ سنة وشاركت في الثورة وانطلق يقول شعراً من تأليفه :

نحـزم ونتـوكـل بسـاعـة مـرضيـة
ومن عـزم فيهـا نجـا مـن كـل شـر
الارض هـذى كـلهـا جـمهـوريـة
يـا سـارى الليلة عـلى ضـو الـقمـر
ردفان ملصى (نـار) مش نـارهـا طـافيـة
ونحن (نهاجم) عالدولة (الاستعمارية) كما ساد الصقر

تابع احمد مقبل القاء شعره الشعبى وانتقل من الشعر الوطني الى شعر الغزل ومما جاء في احدى غزلياته . .

عيونه مثل الصواريخ عابرة القارات
والانف مثل الألف وجنات مثل الجنيهات
الصدر بستان فيه فواكه الجنات
وكعوب مثل الليم ظاهر وأيضا بيات

سدود وجسور

جسور وسدود صغيرة تظهر في الطريق ، وبعض زراعات الذرة ، المياه تتدفق من أحد الآبار ، وصبية يغتسلون ويتقاذفون بالماء،تله عالية على يمين الطريق تبرز فجأة،قال مرافقونا إنها جبل جمل . . توجد فيها آثار قديمة ،وقلعة في أعلى المكان من الجبل .

● سألت : إن الوادى كما تقولون اسمه وادى سبأ . . فهل له علاقة بالآثار التى وجدت وتعود الى زمن مملكة سبأ ؟

- اجابوا . . ربما كان ذلك .

● سألت :هل جاءت بعثات أثرية للتنقيب عن الآثار في هذا الجبل ؟

- نظروا في وجوه بعضهم البعض واجابوا لا ندري !

● ومشروع وادى سبأ متى بدأ العمل به . . وماذا تحقق منه ؟

- اجابوا : لقد بدأ استصلاح الاراضي في هذه المنطقة اعتباراً من سنة ١٩٧٣ وهو مشروع سوفيتي يمنى مشترك وتم استصلاح ٧٥٠ هكتاراً وزعت على الفلاحين بواقع ٥ الى ٨ فدادين للاسرة الواحدة ، وبقيت مجموعة من الهكتارات تقوم باستغلالها التعاونية الزراعية وهى تخضع لاشراف الدولة ولخطة وزارة الزراعة من ناحية نوعية ما يزرع فيها .

واشهر المزروعات التى تزرع في المنطقة الذرة الشامية ، الدخن ، الأعلاف ، البرسيم - والبطاطا والبصل والبطيخ والفلفل والبامية والبندورة والقطن وغيرها .

● هل يمكن اعتبار مساحة الارض من ٥ الى ٨ هكتار هى سقف الملكية الخاصة للأرض في هذه المنطقة ؟

- اجابوا : من المعروف أن الاراضي ليست متشابهة من حيث الخصوبة أو وفرة المياه فيها ، أو قربها من المراكز المهمة ، لذلك فإن حيازة الملكيات

الخاصة تختلف بين ارض وأخرى ، مع ذلك فإن ...قة ، الملكية الخاصة في منطقتنا هو الرقم المذكور .

مسيرة التعليم

عدنا الى البلدة فألقيت نظرة الى جوار المبنى الذى نقيم فيه ، فوجدت مدرسة كبيرة مدهونة مبانيها باللون الاصفر ، يليها مبان اخرى كبيرة ايضا ، قال لنا السيد/ سلام احمد علي مدير التربية والتعليم في المديرية إن المبانى القريبة من مكان اقامتنا ما هى الا المدرسة الثانوية الوحيدة في المديرية ودار المعلمين فيها . وأضاف إنها هدية من الشعب الكويتي الى شقيقه الشعب اليمنى ، وقد تم تشغيلها اعتباراً من السنة الدراسية ٧٩ ـ ٨٠ ، وهي تستوعب حوالى ٧٥٠ طالباً وطالبة ويدرس فيها الآن ٦١٦ وبينهم ١٦ طالبة ، في حين أن دار المعلمين الملحقة بها تم تشغيلها اعتباراً من السنة الدراسية ٨٢ ـ ٨٣م وتستوعب حوالي ٢٠٠ طالب يدرس فيها الآن ١٦١ بينهم ٣٢ طالبة والدراسة فيها لأربع سنوات تبدأ بعد الانتهاء من مرحلة التعليم المتوسط .

● هل التعليم مجانى كالتطبيب وغيره من خدمات اجتماعية ؟

ـ ان التعليم مجانى كغيره من الخدمات الاجتماعية ، وحتى الكتب والوسائل التعليمية فإنها تقدم بالمجان ، وما على الطالب إلا ان يحضر معه حقيبته والدفاتر والاقلام .

● هل يمكن اعطاءنا فكرة عن مسيرة التعليم في المديرية ؟

ـ لاشك أنه توجد بعض النواقص الان ، وهذا ربما يعود الى قلة الامكانات ، لكن وضعنا الان أفضل مئات المرات مما كنا عليه قبل انطلاق الثورة ، لقد كانت أمية المرأة ١٠٠٪ في الماضي ، وحظ الرجل لم يكن أفضل كثيراً ، فقد كانت نسبة اميته حوالى ٩٩٪ ، أما نسبة الامية فقد انخفضت الى حوالى ٣٠٪ في هذه المرحلة .

● الاحظ أن نسبة اقبال الفتيات على التعليم قليلة قياساً بالفتيان ؟

ـ إن ذلك يعود لأسباب اجتماعية واقتصادية .. بينها التقاليد ، وبينها اعتماد بعض العائلات على الفتيات في العمل بالحقول أو في البيت ، وبينها بُعد بعض القرى عن مراكز التعليم (التعليم الثانوى الزامى للفتاة في المدينة في حين أن الريف له خصوصيته) .

في وادى المصراح

في صباح اليوم التالي كان زملاؤنا في القيادة المحلية قد جهزوا « جيبا » خاصا لمهمتنا ، فانطلق بنا .. في قلب وادى المصراح ، أشجار العلب والدوم والزعرور تحيط بالطريق المملوءة حصى ورمالاً داخل الوادى ، بعض البيوت تلوح على جانبي الطريق وهوائيات اجهزة التلفاز تظهر فيها على أعلى مكان . بعض زراعات الذرة الصفراء تظهر في مكان قريب ، على بُعد يظهر راكب الحمار يطلق لصوت غنائه العنان ، فتاة تظهر بين الاشجار غطاء رأسها يغطى نصف شعرها صوت «مواتير» المياه يتردد بين فترة وأخرى ، حقل من شجر « البابای » يظهر على جانب الطريق .. عاملان يوجهان المياه نحو الحوض المطلوب .

برز بجانب الطريق عامل يضع « معوله » على كتفه .. سلمنا عليه وقدم لنا بعض حبات الزعرور التى كان يحملها ابنه .. قال :

أنا مهدي علي مثنى من منطقة بجير بجانب الحبيلين ومن مواليد سنة ١٩٤١ واعمل كأجير في الحقول .

● هل شاركت في حمل السلاح ضد المستعمر البريطاني ؟

ـ ستجد في طريقك العشرات من الاشخاص الذين شاركوا في الثورة ، انكم في البلاد التى انطلقت منها الثورة وانا كفرد شاركت في الثورة طبعاً .

نمر على حقل ملىء بنبات القات ، عاملان كانا يفرسان ويسقيان بعض النباتات ، وامرأة من بعيد تنكش جانباً منه .

ذكر مرافقنا راشد مساعد امين عام الحزب في المنطقة أنهم « يأرسون » بعض النباتات ؟

سألت : ما معنى الكلمة ؟

قال : إن لهجتنا في هذه المنطقة تحول الغين الى ألف .. فهم يغرسون ولكننا في لهجتنا نقولها « يأرسون » .

علقت : انها لهجة من لهجات العرب .

عسل وتجارة

بدأ الوادى يضيق وتكاثفت الاشجار فظهرت جرة ماء بالقرب من شجرة كثيفة من شجر الدوم ، لقد كانت كسبيل ماء عذب للعابرين ، ذكر مرافقنا إن شجر الدوم هو الانسب لتربية مناحل العسل عليه .. ، وعسله نقي وطيب . طلبنا شراء عدة كيلوات منه ، إلا ان صاحب البيت كان غير موجود







١



٢

١ ـ زي تقليدي . . وحوار لايخلو من طرافة في السوق .
٢ ـ رقص شعبي يمني مميز في عرس بحبيل جبر .
٣ ـ انه نبات القات في السهول النادرة التي تحاذي جبال ردفان .
٤ ـ افتداء العريس بكبش . . عادة من عادات القرى في جبال ردفان .





فضاعت علينا فرصة رؤية مناحل النحل وتصويرها .

وعلى ذكر العسل والنحل فإننا قبل مغادرتنا لبلدة الحبيلين ذهبنا الى السوق للتزود ببعض الكيلوات من العسل ، فدخلنا في مساومة مع أحد البائعين الذى اصر على أخذ مبلغ يزيد دينارين عما أعطانا إياه جاره ، الا ان نفاذ الكمية من عند جاره الجأنا الى الشراء منه . . ناقشه مرافقنا راشد ولفت نظره لغلاء السعر . . وأن جيرانه قد باعوه لنا بأقل مما يطلب ، مع ذلك فإنه أصر على ما يطلب .

علق راشد : لقد عدت لتوك من المسجد يارجل . . ومع ذلك تصر على رفع السعر اكثر مما يفعل جيرانك !

علق الرجل الستيني : إنها التجارة ، أنا حر في تحديد سعر ما أملك وانت حُر في أن تشترى أو لا تشترى !

صخرية ووعرة . . لكنها بلادنا !

تابعنا سيرنا في الوادى الذى اخذت بعض أحواض الماء تظهر فيه..مما يعني أن علينا النزول من السيارة لنسير على أقدامنا .

سرنا عدة أمتار . . لنجد مجموعة من الرجال يبنون بيتاً على حافة الوادى استقبلونا بترحاب (هكذا كان دأب من قابلناهم في الطريق) وبدأ قاسم صالح مالك البيت يحدثنا عن نفسه . . . فقال : أنا لست من مواليد الحبيلين أو المصراح ، بل أنا من عُقيبة إحدى قرى جبال ردفان ، لكنني أملك هذه الارض ، وها أنا ابني فيها هذه الدار ، ونحن من بلاد واحدة وقبيلة واحدة .

● لكن طبيعة الارض صخرية ووعرة .

أجاب : ومتى كانت ارض ردفان غير ذلك . . مع ذلك فهي بلادنا .

ظهرت بعض البيوت على الجانب الآخر من الجبل فسألت مرافقنا عنها .

علق راشد : هل تصدق أن تلك البيوت العشرة هي لقريتين منفصلتين هما الصلب ، والقريع ، هكذا هي قرانا موزعة ومتباعدة وطبيعة الوصول اليها صعبة .

● هل وصلتها خدمات الكهرباء ؟

ـ لم تصلها بعد . . إن الكثير من قرانا تعاني من هذا الأمر ، وبعضها يعاني من عدم وصول مياه الشفة اليه ، فيلجأ الى الآبار للتزود بالمياه .

● سألت السيد قاسم صالح : هل شاركت في حمل السلاح ضد الانكليز ؟

ـ أجاب : بل حملته ضد الأمراء السابقين . . وضد الانكليز أيضاً ، وذهبت مع المجموعات التى انطلقت من هذه البلاد وغيرها للدفاع عن ثورة الشمال ، وهناك تدربنا وخضنا بعض المعارك ، وعندما عُدنا طلب شيخ المنطقة محمود حسن تسليم انفسنا واسلحتنا ، ودفع غرامة مالية ، فرفضنا ذلك .

جاء في كتاب « النجم الاحمر فوق اليمن »للدكتور احمد عطية المصرى ما يلي : « وكانت الاسباب الحقيقية لثورة ابناء ردفان في ١٤ اكتوبر ١٩٦٣ هي استمرار أوضاع الاستغلال والطغيان الاستعمارى السلاطيني ، أما السبب المباشر ، فهو ضغط الانجليز على أبناء المنطقة لتسليم سلاحهم عند عودتهم من الشمال ، وضم ردفان الى سلطة أمير الضالع المتعاون مع الاستعمار » .

ويضيف السيد قاسم . . لقد كان راجح بن غالب لبوزة مع المجموعات التى ذهبت الى شمال الوطن ، وشهدوا هناك قيام الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمنى (أعلنت في اغسطس سنة ١٩٦٣ من خلال اندماج سبعة تنظيمات) .

وعندما عدنا من الشمال واجهنا الشيخ محمود حسن بمطالبه الجائرة ، فتجمعنا وحملنا السلاح وانطلقنا الى الجبال .

● هل كانت هناك تنظيمات تعمل داخل البلاد قبل وبعد عودتكم الى ردفان ؟

ـ أعتقد أن الأمر كان يتم بسرية ، وربما كانت حركة القوميين العرب قد نشطت في ذلك الوقت من خلال إنشاء بعض الخلايا السرية .

البدوي والمعركة الاولى

حضر شاب وبيده ماعون ملىء باللبن ويطفو على وجهه الفلفل الاحمر المطحون،عرفنا السيد قاسم على الشاب فقال : إنه ابنى ثابت .

عندما عرف الشاب اننا محررون من مجلة « العربي » فإنه زاد من ترحيبه لنا وذكر أنه يتابعها . . بل وعندما دقق في ملامحي فإنه ذكر إسمي . . وعلق : لقد قرأت مواجهتك مع شاعر الجبال العالية في داغستان رسول حمزاتوف إن جباله تشبه جبالنا وعندما يكتب عن جباله فإنني أجد ان اشياء كثيرة مشتركة بيننا . . وأضاف أنني جندي في الجيش ، وها أنا مازلت في هذا العمل منذ ٤ سنوات بعد أن تخرجت من الثانوية العامة .

تابع السيد قاسم رواية ذكرياته عن ايام الثورة . . فقال : إن هذا الجبل جبل البدوى ، شهد المعركة الاولى في مسيرة الثورة سنة ١٩٦٣ ولو ملكتم رؤية حادة فإنكم يمكن أن تروا النصب الذى أقيم للشهيد راجح بن غالب لبوزة أول شهيد للثورة ، ويمكن أن تروا القبه البيضاء ، قبة مزار الشيخ أحمد البدوى .

لم تظهر لنا الا نقاط بيضاء صغيرة على قمة الجبل . . فحاول زميلى توجيه « آلة التصوير » لالتقاط الصورة . . فلم يظهر امامه إلا الجبل .

قلت : لقد قررنا الصعود الى حيث نصب الشهيد الاول للثورة .

بان التعجب على وجوه مرافقينا ومُضيفينا . . وعلقوا : ان الصعود الى هناك والنزول سيستغرق منكم حوالى خمس ساعات ، والجبل كما ترون ليس هيناً ، فيه الصخور الحادة . . والشعاب الصعبة والاشواك ومفاجآت قد لا تقدرونها .

أجبنا أنا وزميلي المصور : لقد قر قرارنا بالصعود مهما كانت الصعاب .

سمعنا تعليقاً : إن الامر أصعب مما تتصورون ، انكم تخوضون مغامرة غير مأمونة العواقب ، ننصحكم بالاكتفاء بتصوير الجبل والوادي . . وهذا يكفى ، ان كثيراً من الصحافيين الذين جاءوا قبلكم أخذوا المعلومات في الحبيلين وعادوا ولم يتجاوزوها .

علقنا : ان عملنا في « العربى » يقوم على المساواة بين الكلمة والصورة .

تخلى عنا مرافقونا . . وتركونا للشاب ثابت الذى تبرع بمرافقتنا مع مرافقنا العدنى سعيد محمد راشد .

لم يحمل ثابت معه إلا ابريق ماء ، ثم كان وداع على أمل اللقاء مع مرافقينا الردفانيين في الوادى المقابل للجبل من الناحية الاخرى . . بعد خمس ساعات (كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة صباحاً) .

رحلة الصعود

بدأنا بالسير نشطاء يدفعنا التحدى والتشوق للوصول الى المكان المطلوب . تكررت محاولاتنا للنفاذ من خلال الشعاب والصخور بين هبوط وصعود . . وجدنا آثار أقدام كثيرة تولت تمهيد شبه طريق .

ثغاء الماعز كان يرافقنا،وكان يظهر بعضها على الجوانب المائلة من الجبل . . ربما كان ثغاؤها احتجاجاً على الغرباء الذين اقتحموا « عرينها » ، بعض النباتات كانت تظهر في الشق الطولى الذى كان يمتد من رأس الجبل حتى اسفله ، ويبدو أن الماء هو الذى ساهم في شق المنحدر وكون طريقه الخاص .

بدأ العرق ينز من أجسامنا . . وبدأ التعب يظهر علينا خصوصاً نحن القادمين من الكويت . البلاد الصحراوية التى قلما يوجد بها جبال .

خفت على دفتر ملاحظاتي من بلل العرق ، فخلعت قميصى ووضعته فيه . . وتابعنا المسير بعد استراحة دقائق محدودة .

تابع نظرى شقوق الصخور . . والتواءات الشعاب علىّ أرى ما يزحف أو يقفز من حيات أو حيوانات غريبة ، فلم أر إلا الماعز ، ولم أسمع إلا صوت ثغاءها ، وصدى أصوات بشرية تأتى من بعيد بعيد . . أو صدى أصواتنا التى بدأنا نطلقها كنوع من التخفيف على مشاق ماأخذ يصادفنا . .

حاصرني مرافقنا العدنى سعيد بعد أن تدحرجت عدة مرات ، لكن بدون وقوع ، وأصبح يمسك بى ، ثم تبعه ثابت ، استكثرت ذلك ووجهتهم نحو زميلى المصور الذي كان يباريهم قفزاً وتخطياً للصخور الحادة . . أصر سعيد على ملازمتى تماماً فلعنت سُمنتى . . وتابعنا المسير .

غطى الغيم على اشعة الشمس الحارقة ، فأعطانا دفعاً لمواصلة رحلتنا بأقل ما يمكن من الجهد والعنت .

شقوق هنا . . صخر حاد هناك ، هذا الصخر ابيض ، ذاك اسود وآخر برتقالى أو بني ، . تذكرت المواويل والحداء . . وجبالاً واراض حلمت وأحلم فيها منذ الصغر . . تذكرت « الأوف » الممدودة بامتداد سنوات القهر الذى يتوزع هنا أو هناك في الجسد العربى . . خرجت « الاوف » كأنها ليست منى ، فتوزع صداها بين الشعاب والصخور ، وحسبت أنها كانت في أبهى صورها اللحنية .

سمعت إطراء ومطالبة بالمزيد ، فانتبهت لما أنا فيه فطلبت الماء الذى أصبح أكثر من ضروري للحال الذي نحن فيه .

ارتقينا صخرة عالية . . فبان الجبل المقابل فعلق مرافقنا : من رأس ذلك الجبل أطلقت دانات المدافع الانكليزية على الثوار .

تابعنا المسير بعد أن أخذ الجهد منا ما أخذ(اتكلم عن نفسى) تمعنت بثابت كان عرقه قليل ولم يظهر التعب عليه بشكل واضح . . التفت اليّ وعلق : اعرف ما تفكر به . . نحن أبناء جبال وقد سرت في



ـ سبيل ماء . . في وادي المصراح بالقرب من الحبيلين

هذا الطريق آلاف المرات نهاراً وليلاً فلا تستغرب حالتي .

سألت : وأنت ياسعيد ؟ علق : وأنا أيضاً!انا ابن الجبال ، بانت حجارة مصفوفة فوق بعضها البعض على رأس منحدر من الصخور . . سمعت تعليقاً : ذلك هو المكان .

ضاعفنا جهدنا بالرغم من بوابات مسام العرق التي انفتحت وبللت ملابسنا . نظرنا في ساعاتنا لقد وصلنا المكان خلال ساعتين وربع وليس نصف . . ففرحنا لهذه النتيجة . .

طول النصب المكون من حجارة الجبل المصفوفة فوق بعضها البعض حوالي متر ونصف دهنت بلون أبيض وكُتب عليها بدهان أحمر نصب الشهيد راجح ابن غالب لبوزة . استشهد في ١٤/١٠/١٩٦٣ ، يلي النصب شق في الجبل يكون نصف مغارة ، لقد كان محمياً حماية طبيعية واضحة ، وقد اختاره الثوار ليكمنوا فيه ، ويبدو أن الثائر راجح خرج للاستكشاف أو لأي غرض آخر فرصدته المراصد الانكليزية على الجبل المقابل فتم قصفه . . وأصيب فعلا واستشهد،فاعتبر يوم استشهاده هو اليوم الأول لانطلاق الثورة الحديثة في اليمن الديمقراطية ، قرأنا الفاتحة على روح أول شهيد للثورة ، وتجولت انظارنا ترصد تفاصيل محتويات المكان .

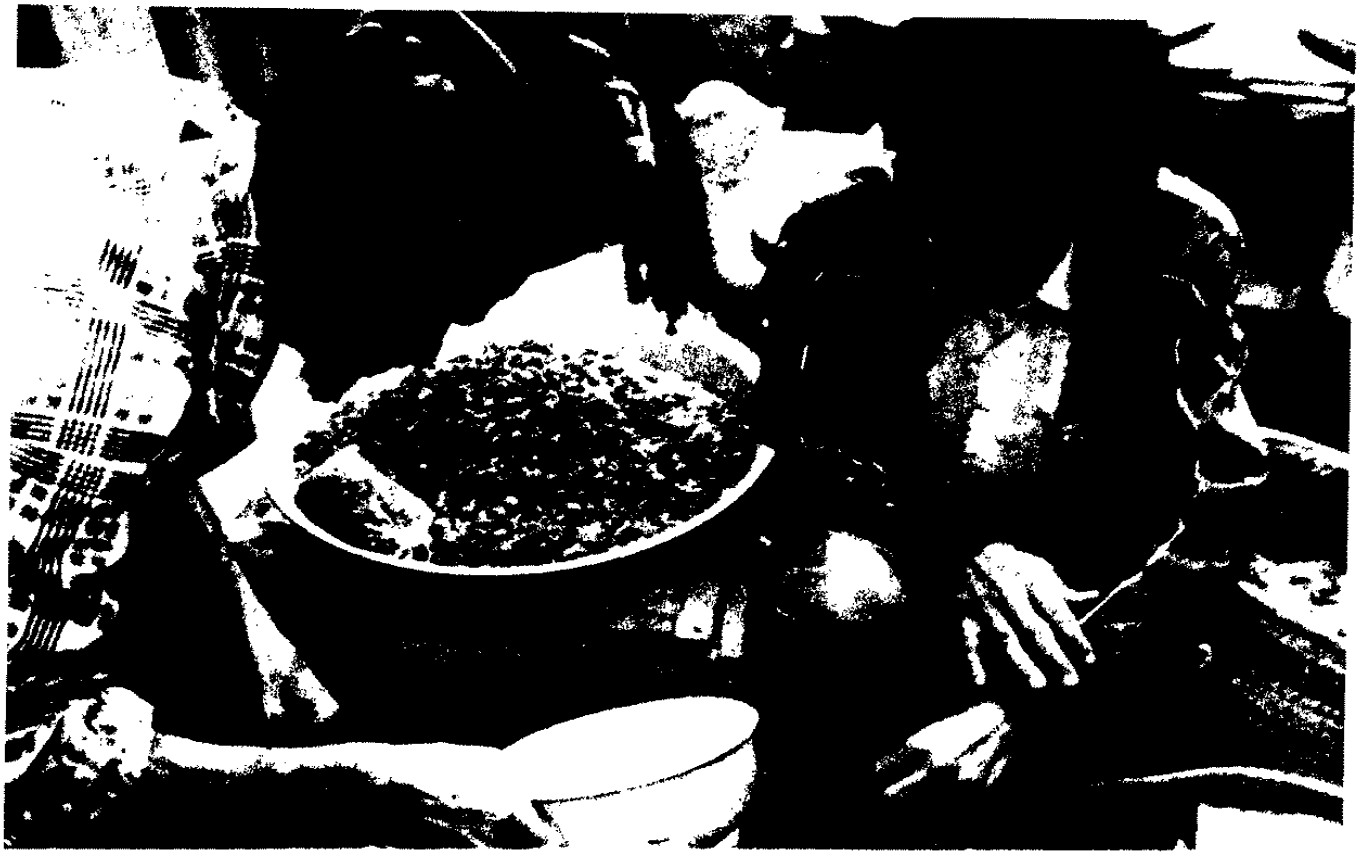
ثم تابعنا المسير الى مزار البدوي .

البدوي . . من يكون ؟

وصلنا الى رأس الجبل ، لم نعد ندخل في تعاريج والتواءات الشعاب ، بل أصبحنا نسير في طريق مستوية الى حد ما . . بانت القبة واضحة بيضاء تلمع تحت خيوط الشمس . . حثثنا المسير اليها ، حقل خال من الزراعة محاط بعدة اشجار من الزعرور ، بعض الحبات كانت قد تساقطت بعد أن نضجت ، أسكتنا جانباً من جوعنا من بعض حبيباتها ، لاح بيت بجانب مقام البدوي . . دخلنا المقام فوجدنا جدثا كتب عليه الشيخ احمد بدوى . . وبقايا شمع ، ولا شيء غير ذلك ، كان يوجد في الخارج بقايا عظام وجلود وبركة ماء صغيرة ،سألت ثابت: ما هى حكاية الشيخ البدوى ؟

علق : ان المقام كما قرأت هو للشيخ أحمد البدوى ، وما اعرفه أن بعض الناس يأتون هنا للتبرك وقراءة القرآن ، ويجتمع بعضهم في أيام محددة فينحرون الذبائح ويقدمونها نذوراً ثم أضاف ربما كان شيخاً صوفيا . . وله اتباعه وأنصاره .

علقت : ما أعرفه أن هناك شيخاً آخر للصوفية اسمه البدوى أيضاً فى مصر .



ـ حوار البائع والمشتري . . فمن هو الغالب . . ومن هو المغلوب ؟!

قال : ربما كان لكل بلد شيخه ، او ربما كان هو نفسه وعاش هنا وهناك .

مررنا من جانب البيت، خرجت امرأة منه وتمتمتنا ، ثم قالت بضع كلمات فهمت منها « فزعتمونا » كدليل على أن مرتادي المكان قلائل . . مررنا بالقرب من بيت مهدم ولاح على بعد عدة أمتار منه بيت آخر خرج منه رجل مُسن عندما رآنا ، رحب بنا وأصر على استقبالنا في بيته . . فاعتذرنا إلا انه كرر الطلب عدة مرات . سألناه عن اسمه وعمله . . وكيف يعيش في هذا الجبل الوعر ؟ . .

قال : انا طالب محمد الهدوى وعمرى حوالي ٦٥ سنة . . نعم لقد ساهمت بقسطي في الثورة . . ولذلك فإن الطيران البريطاني قصف بيتي الذى مررتم به قبل لحظات ، فابتنيت هذا البيت ، اننا نعيش على بعض الزراعات في الحقول محدودة المساحة كما ترون ، ونزرعها حبوباً ولنا ماشية نرعاها ونعيش على بعض خيراتها .

● سألت الشيخ : ماهى حكاية الشيخ البدوى ومقامه ؟

ـ لقد سُمي كل هذا الجبل باسم الشيخ . . وهو رجل دين له مريدوه الذين يأتون في اوقات معينة لقراءة القرآن والدعاء ، وإقامة طقوس معينة لا أعرفها .

على بعد عدة امتار من بيت السيد طالب برزت صخرة كبيرة فيها شق مستطيل الشكل .

● سألت : وما هى حكاية تلك الصخرة . . والشق الذى فيها ؟

ـ علق السيد طالب : يقال ان مُحدث هذا الشق في هذه الصخرة هو سيف الإمام على بن ابى طالب رضى الله عنه ، . . اذ انه عندما جاء الى هنا واعترضته هذه الصخرة فإنه شقها بسيفه .

علقت : لكن ياشيخنا ان المصادر التاريخية لا تذكر بأن الامام قد جاء الى اليمن والى ردفان بالذات ؟

علق : هكذا يقولون . . وهكذا سمعت ، جاء ابن ابنه باللبن الممزوج بالفلفل الاحمر المطحون ، فشربنا وشكرناه وحاول الرجل استضافتنا في بيته فاعتذرنا وبدأنا بالنزول .

النزول الأصعب !

اعتقدنا ان الصعود هو الأصعب في الرحلة ، لكننا اكتشفنا إن النزول ليس سهلاً أيضاً ، إن الصخور في هذا الجانب من الجبل كانت أكثر حدة وتعرجات ، ولا يوجد ممر إلا ان يتدلى الانسان ويستعمل يديه ورجليه حتى يمر والأهم هو استعمال عقله ، لأن اى خطأ غير محسوب أو سرعة أوقفزة غير

محسوبة فإنها تودي بالانسان الى التحطم بين الصخور .

وصلنا بعد ساعتين ونصف من مسيرنا من رأس الجبل . . كان الانهاك قد اصابنا ، لكننا مع ذلك حققنا ما كنا نصبو اليه ، تعانقنا مع زملائنا الذين كانوا بانتظارنا ، لقد أحضروا لنا غداءً جاء في ساعات المساء من بعض البيوت القريبة من المكان . . وكان أشهى طعام لأنه جاء بعد جوع وتعب حقيقيين . .

عُرس في حبيل جبر

كان موعدنا في اليوم التالي هو زيارة قرية حبيل جبر وحضور عرس أحد شبابها والوقوف على مظاهر العادات والتقاليد في هذا المجال .

للوصول الى حبيل جبر مضينا في الطريق المؤدي الى منطقة يافع ثم صادفتنا قرية الربوة على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات من بلدة الحبيلين ، بعض المزارعين يعملون في حقولهم وبعض الصبية يتشاقون في احدى الساحات ، ثم مررنا بالقرب من قرى النقيفة وخيران ثم قرية حبيل جبر على مبعدة حوالى ١٥ كيلومتر من الحبيلين ، الطريق بينهما ممهدة ومسفلتة بشكل جيد ، والتلال والجبال تحف بالطريق من جانبيه .

نشاهد وحدة لتوفير الطاقة الكهربائية بوساطة أشعة الشمس ، ثم ندخل الى يمين الطريق الرئيسي في طريق ترابية كثيرة المطبات ، نسير حوالى ربع ساعة بالسيارة ثم نصل قرب خيمة كبيرة مليئة بالرجال والشبان ومضاءة بالكهرباء عن طريق مولد .

يستقبلنا افراد من أهل العريس ، ثم ندخل الخيمة ، ونسلم على الجميع . فرشت الخيمة بالبسط والحصر والفرشات ، نجلس بين الرجال فنلاحظ أن أغلبية الرجال والشبان يخزنون القات ، ويضعون حزمه الخضراء التى تشبه أوراقها أوراق نبتة الملوخية أمامهم أو بجانبهم مرفوقة بزجاجات المشروبات الغازية او « ترامس » الشاي . زيارتنا كانت مساء يوم الخميس . القات كما أفهمنا بعض الاخوان « والسكاير » يأتى بها كل فرد يحضر للمشاركة ، في حين أن اهل العريس يوفرون الشاي والمشروبات الغازية والأكل .

الخيمة كبيرة ومليئة بما يزيد على مائة رجل وشاب . . أصوات أغاني النساء وزغاريدهن تسمع من مكان قريب ، مفصول عن الرجال . استجابة لطلبنا فإن بعض الرجال بدأوا بممارسة الرقص الشعبي على صوت المزمار والطبل وغنوا أغنية :

مرحبا بك ياعريس
مرحباً بضيوف أجونا « جاؤنا »

بعضهم كان يحمل « جنبيات » وبعضهم بدونها ، عندما تحدثنا وجلسنا بين الرجال فإن بعض الشبان أفهمونا بأنهم غير راضين بأن يقتصر نصيب حبيل جبر من استطلاع ردفان في مجلة العربي على تسجيل وقائع العُرس فقط ، إذ ان حبيل جبر كما أفادوا شاركت مشاركة اساسية في الثورة ،علقت اننا بحاجة الى من يعطينا فكرة عن العادات السائدة بالنسبة للزواج في المنطقة ، وتفسير بعض العادات والتقاليد . . فتبرع مجموعة منهم وجلسوا بجانبنا واخذوا بالرد على استفساراتنا . . وقد جاء فيما ذكروه :

ـ يتم وضع الحناء على كفي ورجلي وشعر العروس يوم الاربعاء من قبل صديقاتها وقريباتها وهي في بيتها .

ـ في حين أن قريبات العريس يتولين وضع الحناء على يدي ورجلي العريس يوم الخميس (اى الليلة التى كنا فيها في البلدة) .

● سألت : وهل العريس « يتحنى » أيضاً .

ـ أجابوا : نعم إن ذلك يحصل وستشهده بنفسك الليلة .

● وبعد ذلك ؟

ـ يذهب العريس مع أهله وأصحابه فيحضرون العروس مساء يوم الجمعة وتأتى معها بعض قريباتها ويتم هذا الامر بالسيارة في هذه الأيام ، في حين انه كان يتم من قبل بواسطة الجمال أو الخيول ، يرافق ذلك الأغانى والرقص والأهازيج ، ويبقى العريس مع عروسته وسط أهله وخلانه لمدة زمنية وسط مظاهر الفرحة والغناء ، ثم ينفض سامر العرس ويدخل العريس والعروس الى غرفتهما الخاصة أخيراً .

ويأتى أهل العروس في صباح اليوم التالى الى بيت أهل العريس ومعهم الهدايا العينية ، فيتابعون أفراحهم وأهازيجهم ورقصاتهم المشتركة مع أهل العريس ، ويبقون حتى المساء ثم يعودون الى بيوتهم بعد ذلك .

● هل من فكرة عن اجراءات الخطبة والأيام التى تسبق الزواج ؟

ـ كأى بلد اسلامى فإن كتب الكتاب أى العقد يتم عند القاضى ، ويشترط موافقة الفتاة على الزواج ، ويمكن أن يأخذ والد العروس مبلغاً من مهر العروس (يصل المهر احياناً الى مائة دينار) . والبعض يصرفونه على تجهيز العروس ويقدم العريس أيضاً « شبكة » مكونة من ساعة وخاتم ، وكان المهر يُدفع من قبل بصورة عينية ، كأن يتم الاتفاق على تقاضى مجموعة من البقر أو الخراف او الماعز ، أما الآن فإن قانون الاسرة حدد ٢٠٠٠ درهم كحد أقصى للمهر . ويقوم العريس بكسوة عروسه ويمكن للمقتدر أن يزودها ببعض قطع الذهب ، وأحيانا يتولى ذلك والد العروس إن كان مقتدراً .

● ما هو حال الزواج بامرأة ثانية . . حسب قانون الاسرة الان ؟

ـ كان الامر متروكاً حسب رغبة الزوج من قبل ، اما الان فإن الامر يجب أن يتم بعد موافقة الزوجة الاولى ، ونعتقد أن كل أب أو أخ لا يحب لابنته أو اخته بأن تعيش مع « ضرة » .

● هل يتلقى العريس او العروس بعض المساعدات المالية من اصدقائهما ؟

ـ إن هذه العادة يقال لها « الرفد » في بلادنا ، وهى مازالت قائمة حتى الان .

● هل عادة « الخطف » مازالت قائمة في بلادكم ؟

ـ بعد انتصار الثورة وسن قانون الاسرة ، فإن المنطقة لم تشهد أية حالة خطف أبداً .

● لقد رأيت أن بعض الرجال يقبلون أيدى بعضهم البعض . . فماذا يعني ذلك ؟

ـ ان ذلك يتم في الأعياد والاعراس والمناسبات السعيدة أو حتى في الأيام العادية ولا يوجد اى دلالة إلا دلالة الاحترام والشوق ويمكن ان يتم ذلك بين رجل وامرأة أيضاً .

● أرى بعض الاشخاص اذا ما قرفصوا للحديث مع اشخاص آخرين فإنهم يربطون ظهورهم الى ارجلهم برباط خاص فماذا يعنى ذلك ؟

ـ ان هذه العادة تسمى عندنا « بالحبية » والقصد منها حماية الظهر وتوفير الحال المناسب والوضع المناسب لحديث ربما يطول .

● والقات كيف تنظرون اليه ودوره ؟

ـ ان تعاطى القات هو احد العادات الاجتماعية المنتشرة في البلاد ، صحيح إنه يمثل عبأ مادياً ، وأحياناً صحياً ، ومع ذلك فإن القوانين حدت من تعاطيه .

فداء للعريس

دعانا بعض الرجال الى حيث كان العريس بين شقيقاته وقريباته استعداداً لمراسم الحناء ويتم ذلك بعد منتصف الليل يترافق ذلك مع الاغانى والرقص والموسيقا .

اسم العريس عادل ، وهو طالب في كلية الطيران ، كان يجلس بين قريباته ومظاهر الخجل بادية عليه . . أصوات الزغاريد والموسيقا تطغى على الاصوات البشرية جاء شقيق العريس بتيس ماعز وأداره عدة مرات فوق رأس العريس ثم تم ذبحه مباشرة ، وعندما سألنا عن معنى ذلك ؟

ـ أجاب : إن ذلك هو من صلب العادات ، والقصد هو أن يكون التيس أو الكبش فداء للعريس . بعد ذلك تأخذ شقيقة او قريبة للعريس بتحنية يديه ورجليه ويبقى العريس بين قريباته فيما الرجال يبقون في الخيمة ويخزنون ـ القات ـ ويسمعون الموسيقا والغناء ، وبعضهم يرقص الرقص الشعبى المميز .

نبارك للعريس وأهله بعرسهم ، ونودع الرجال . . كان الليل يوشك ان ينتصف فتوجهنا الى الجبيلين لنغادرها في الصباح .

أفقنا على اصوات الديوك وهى تبشر بصباح وليد اختلطت فيه أصوات الحيوانات بالديوك بأصوات ماكينات الطحن والماء ، بدأنا نعد انفسنا لمغادرة المكان بعد أن ودعنا وشكرنا جميع الذين وفروا لنا زيارة موفقة .

عندما نادى المنادى

عندما اقتربنا من مشارف البلدة تمعنت في المكان فوجدت يافطة كتب عليها هذين البيتين :

ردفان نادى أن اذود
وأن أحيل الصعب سهلاً
فحملت رأسي في يدي
كي لاتصير الكف رجلاً

كان الشعر هو من ابداع الشاعر اليمنى عبد الله البردوني ، أعدت قراءة البيتين عدة مرات ، ومسحت نظرات عيناى المكان والبيوت والجبال والسهول والبشر ، وكل مااستطاعت الوصول اليه ثم تنهدت . . وقلت : وداعاً ردفان . . وداعاً أيتها البلاد التى اشعلت فتيل ثورة الاستقلال ، وها أنت في حمأة « الجهاد » الأكبر ، لصنع الحياة الأفضل ، والتغلب على صعوباتها . □

قصـــة قصـــيرة

سر اللغز...

بقلم : بيســـــشوار كويرالا

ترجمة : ابراهيم احمد الشنطي

كانت « تشونـدرا كومـاري » قلقة منـزعجة وهي في طـريقهـا إلى بيت صـديقتهـا « اندراماليا » ، وما أن فتحت الصديقة الباب لها حتى ألقت تشوندرا بنفسها بين ذراعيها حزينة مستسلمة

أخذتها اندراماليا إلى أريكة قريبة ، وأجلستها عليها ثم سألتها متعجبة : تشوندرا،ما الذي أوصلك إلى هذه الحالة ؟ ماذا حدث لك يا عزيزتي ؟ ولماذا أنت مضطربة إلى هذا الحد ؟

أخذت تشونـدرا نفسا عميقـا ، ورفعت عينيها الـدامعتين نحـو صديقتهـا قائلة : « آه يـا صديقتي العزيزة ، لقـد مررت بتجـربة مثيـرة نغصت علي عيشتي ، ومنعتني من زيـارتك طـول الاسبـوعـين الماضيين . أرجو المعذرة يا عزيزتي ، فقد كنت في دوامة ظلت تلف بي طول هذه المدة حتى أصبت بدوار شديد كما ترين حالتي . »

أمسكت اندراماليا بيد صديقتها تشوندرا وصارت تربت عليها وتهدىء خاطرها وتطلب منها أن تفصح عما بها لعلها تستطيع مساعدتها .

هدأت تشونـدرا قليلا ، ثم أكملت : لا أدري كيف أبدأ حكايتي ؟ ومن أين ؟ سامحيني يا عزيزتي إذا كنت غير متسلسلة أو غير متمـاسكة ، لا تتعجليني واستمعي لي حتى النهاية ، وسـوف أقول لـك كل شيء ، كل شيء .

اعتدلت تشوندرا في جلستها بجـانب صديقتهـا وتنهدت بحسرة ثم قالت : قبل مدة جاء إلينا شاب واستأجر غرفة في منزلنا . لقد جاء إلى « كاتمندو » في عمل يستغرق أسبوعين . لا تسأليني كيف حدث كل هـذا خلال أسبـوعـين فقط . كيف لي ان اخبـرك وأصف لك شخصيته ؟ كـان من الممكن أن يكون ريحـا قويـة أو عاصفـة ، نعم ، كان غـير عادي ! اجتذب زوجي إليه فـأحبه واطمـأن إليه بسـرعة ، وصار الشاب يزورنا في غرفتنا المجاورة لغرفتـه . حتى أنني قلت لزوجي ذات مرة : « ما هذا ، إنـه

---

* بيسشوار براساد كويرالا ، كان من أبرز السياسيين في مملكة نيبال . مدافعا عنيدا عن الحرية والديموقـراطية في الهملايا . وكان إلى جانب ذلك ، كاتب قصة ، وربما كان هذا من الأسباب التي أعانته على تحمل وحدة السجن لسنوات طويلة . وهذه القصة كتبها في أيام محنته التي امتدت نحو ثمانية أعوام في سجن كاتمندو .



يدخل حجرتنا بدون كلفة ؟ إنني أشعر بارتباك ، كما إنني لا أحب نظرة هذا الرجل نحوي ! »

لم يصغ زوجي اليّ ، وفي ذلك اليوم نفسه بدأت تجربتي المثيرة هذه !

كان بين غرفتنا وغرفة الشاب فاصل خشبي . وفي تلك الليلة ، في العاشرة ، لم يستطع زوجي النوم ، وكان هناك نور في غرفة الشاب ، فقام زوجي إليه ليسمر معه قليلا ، ولأمر ما لا أدري ما هو وضعت أذني على الفاصل الخشبي في محاولة لمعرفة ما يتحدثان عنه . أرادا التدخين ، فصاح زوجي يناديني ـ من غرفة الشاب ـ لأحضر لهم علبة السجاير . ظن الشاب أنني ربما أكون نائمة فقال : « سأذهب وأحضرها بنفسي . »

امتلأت بالخوف ، لم يكن لدي الوقت لأتظاهر بأنني غارقة في النوم . ولما دخل الشاب وسأل : « أين علبة السجاير ؟ » تناولتها من تحت الوسادة ومددتها نحوه بشيء من القلق .

آه يا عزيزتي ، لا أدري لماذا كانت يدي ترتجف ، رآها،وبدلا من أن يأخذ العلبة تناول يدي المرتجفة بين يديه ، ما أغباني ! قلت له في الحال : « ماهذا ؟ ما الذي تفعله ؟ ماذا لو رآنا ؟! »

بدا وكأن هذه الكلمة أثارته فقال مجترئا : « من فضلك ، اعطني قبلة ! » ارتبكت ، وبجهد كبير قلت متوسلة : « أرجوك اتركني ، أتوسل إليك ، ليس الآن من فضلك ، في وقت آخر » . كنت مضطرة لذلك حتى يتركني .

وقف كتمثال لحظة من الزمن ثم ابتسم قائلا : « لا بأس . » وترك الغرفة .

عاد إلى غرفته ، وأخذ هو وزوجي في الحديث والتدخين . كنت أرتجف من البرد ، ولما عاد زوجي إلي سألته : « متى سيرحل ؟ »

أجاب زوجي « لماذا تسألين ؟ »

قلت لزوجي دون ان ابصّره بالعواقب . « إنه يبدو شريرا . »

سألني وقد أخذه الشك . « كيف ؟ »

حاولت تهدئة الموقف ، بقدر الإمكان ، فقلت :

« ألا ترى أنه يدخل غرفتنا ونحن معا بدون استئذان ، شيء مربك حقا ، كان هنا قبل لحظة ليأخذ علبة السجائر ! »

هدأت نفس زوجي ، وقال : « أنت امرأة كثيرة الشك ! كل الذي يريده أن يكون قريبا منا فقط ، فأخذت أنت تشكين في سلوكه ! »

في اليوم التالي كنت نازلة على السلم الخشبي ، ومعي جرة صغيرة أريد احضار بعض الماء لزوجي ، فوجدت الشاب صاعدا على السلم ، فاعترضني ، وقد مد كلتا يديه ، وهو يقول : « والآن أريد قبلتي ، ألم تعديني بها الليلة الماضية ؟ » فأجبته بارتباك : « هل تريد تقويض بيتي ؟ »

تساءل مندهشا « تقويض بيتك ! » وأضاف : « يتقوض بيتك بمجرد قبلة ، ماذا تقولين ؟ »

ـ «اسمح لي ، لقد تأخرت ، يجب أن أحضر الماء لزوجي ، من فضلك ! »

ـ « لن يأخذ الأمر طويلا ، أليس كذلك !؟ إنها قبلة فقط »

ـ فجأة شعرت نحوه بكراهية شديدة وقلت له محذرة :

ـ « أرجوك خلّ سبيلي ، أم تراك تريدني أن أصرخ !؟ »

بدا واضحا أنه أصيب بدهشة كبيرة فقال مستفسرا :

ـ « هل أنت غاضبة ؟ »

شعرت وكأني قد سحقت ، وسمعت نفسي أقول مهمهمة :

ـ « ليس الآن ، في وقت آخر ! » ونزلت نحوه .

لوجه الحق ، ياعزيزتي ، اعترف بأنه على الرغم من وقاحته ، لم يحاول إجباري ، فبمجرد أن قلت « في وقت آخر » تركني أمضي في حال سبيلي .

تخيلي يا عزيزتي لو أنه أجبرني على أخذ ما كان يرجوه مني باصرار ؟ وللحق ، مرة اخرى ، اعترف بأنني تأثرت بهذا الأسلوب من تصرفه . لدرجة انني لا أستطيع وصفه اطلاقا بأنه شخص سيء.

بعد ذلك بيومين ، وبينما كان زوجي خارج المنزل

لبعض شأنه ، كان جارنا الشاب يكتب في غرفته ، لا أدري ماذا كنت أفعل من ناحيتي ، أروح وأجيء بين غرفة نومنا والمطبخ ، مارة بغرفته التى تقع بينهما . كان على أن افعل ذلك مرات عديدة ، وأنت تعرفين يا عزيزتي كيف تكون حال المرأة وهي مشغولة في بيتها ، تلاقت أعيننا مصادفة ، فتوقف عن الكتابة حالا وسألني : « هل انت جاهزة الآن ؟ »

لم أرد عليه ، عدت إلى حجرتي وألقيت بنفسي على الفراش ، شعرت بارتخاء مفاجيء في قوتي ، لم أدر لماذا أحسست بأنني أريد أن أكتب رسالة . وبيد مرتجفة كتبت على قصاصة من الورق « سمعت بأنك ستغادرنا قريبا ، فلماذا تهتم بقبلة ، مجرد قبلة ؟ ثم ماذا هناك في القبلة ؟ »

قذفت بتلك القصاصة في غرفته ، ومع انه لم يكن هنـاك أي داع للنـوم ، اغمضـت عينيّ وبقيت مضطجعة في الفراش . . كان قلبي يخفق بسرعة ، وكان حلقي جافا .

ثم فجأة تغيرت حالته تغيرا كاملا . بقي في غرفته مع كتبه لم يتحـرك ، كان سلوكـه مثيرا للسخط ، وليس للغضب فقط . وصرخ قلبي في جوفي محنقا : « وأي حق له ؟ وكيف يجرؤ ؟ » لكنه ظل منشغلا في كتبه ، مكباً عليها بشكل عجيب ، وبدون أن يتأثر بشيء مما حوله .

مرة أو مرتين تجرأت على دخول غـرفته ، كـان يرفع عينيه عن الكتاب ، ينظر إليّ نظرة مبهمـة ثم يعاود المطالعة ، لقد أغضبني سلوكـه هذا كثيـرا ، ملأني بالعار والاحتقار ، وكأنه ينتزع إلى اذلالي .

وذات يـوم ، وجدتـه مشغولاً كعـادتـه في كتبـه ودراسته . دخلت عليه غرفته ، نظر إليّ ببرود كما لو كنت تمثالا جامدا ، وعاد إلى مطالعته . انقضضت على الكتاب بين يديه ، اختطفته من فوق الطاولة ، ورحت أمزقه وأرميه قصاصات ، دهش للأمر وأخذ يردد : ما الذي تفعلين ؟ ما الذي تفعلين ؟

كنت أمزق الكتاب وأنـا ابكي وأقول : « خـذ هـذا ، وهذا ، وهـذا ، أيها الشـرير ، الـوغـد ، المخادع المحتال . »

وعـدت إلى غـرفتي ، وأخـذت أبكي وأبكي ، وأقـذف باللعنـات لأصبهّا عليـه من فوق الفـاصل الخشبي ، لقد بكيت كثيرا ، كثيرا جدا حتى شعرت بأنني أخذت أنهار ، وأنني لا أقدر على التنفس .

دخل إلى غرفتي ، نظر إلي مندهشا وهو يقول : « ما الذي حدث لك ؟ أخبريني ، أرجوك »

وبكـل ما بقى لـدي من قوة صـرخت في وجهه مشيرة باصبعي إلى الباب : « اخرج من هنا » أدار ظهره وترك الغـرفة ، وعـدت أبكي بمرارة لـوقت طويل ، طويل جدا .

عندما عاد زوجي للبيت في ذلك اليوم سألته : متى سيغادر هذا الشـاب الغرفـة بجوارنـا ؟ أرجوك ، اطلب منه أن يترك المنزل .

سألني زوجي إن كان قد أساء التصرف معي ، ولكن ماذا عساي أن اقول له يا عزيزتي اندراميا ؟ أجبته ببساطة : « إنك تطيل البقاء خارج المنزل ، فأشعر بالحرج وأنا فيه مع رجل غريب ! »

في تلك الليلة شعرت بحب جارف نحو زوجي ، بحب دافىء جديد . غمر جوانحي وحـواسي ، لم أشعر بمثله من قبل ، كانت تجربة عجيبة ، معجزة ، أحسست بعدها بسعادة تامة .

وحتى أكون صادقة معك ، ياعزيزتي ، أقول بأن حبي لزوجي قد بـدأ فعلا في تلك الليلة . أمـا من ناحية الشـاب ، فأنا لا اشعر بأي كراهية الآن نحوه ، وبصراحة فإنني شاكرة له . لقد غادرنا هذا اليوم ، وطـول الـوقت وأنـا قلقـة مـرتبكـة ، زوجي في الخارج ، وفي قلبي فراغ كبير .

إنني محتارة جدا الآن يا عزيزتي ، وهناك سؤال يـدور في خـاطـري . كيف أصف ذلـك الشــاب الغريب ؟ هل كان حسنا أم سيئا ؟ إنه لغـز محير ، وهذا ما يقلقني ! ؟

هنا توقفت تشوندرا كوماري عن الحديث ونظرت مستطلعةً الى وجه مضيفتها انـدرامايـا التي كانت تنصت لها بدهشة وتعجب ، وفي خاطـرها كـذلك سؤال يتردد : « حسن ، ولماذا بعد كل ما حدث ، لا تزال تشوندرا قلقة ؟ » □



أبو جعل.. خنفساء عُبِدَتْ !

بقلم : الدكتورة وسمية الحوطي

لم تحظ حشرة باهتمام الانسان مثل حشرة الخنفساء ، فقد استخدمها في أساطيره ودياناته القديمة ، والمصريون القدماء ألهوا أبو جعل (الجعران) وعبدوه ، وبعض الشعوب تتفاءل بالخنفساء كمجلبة للحظ السعيد .

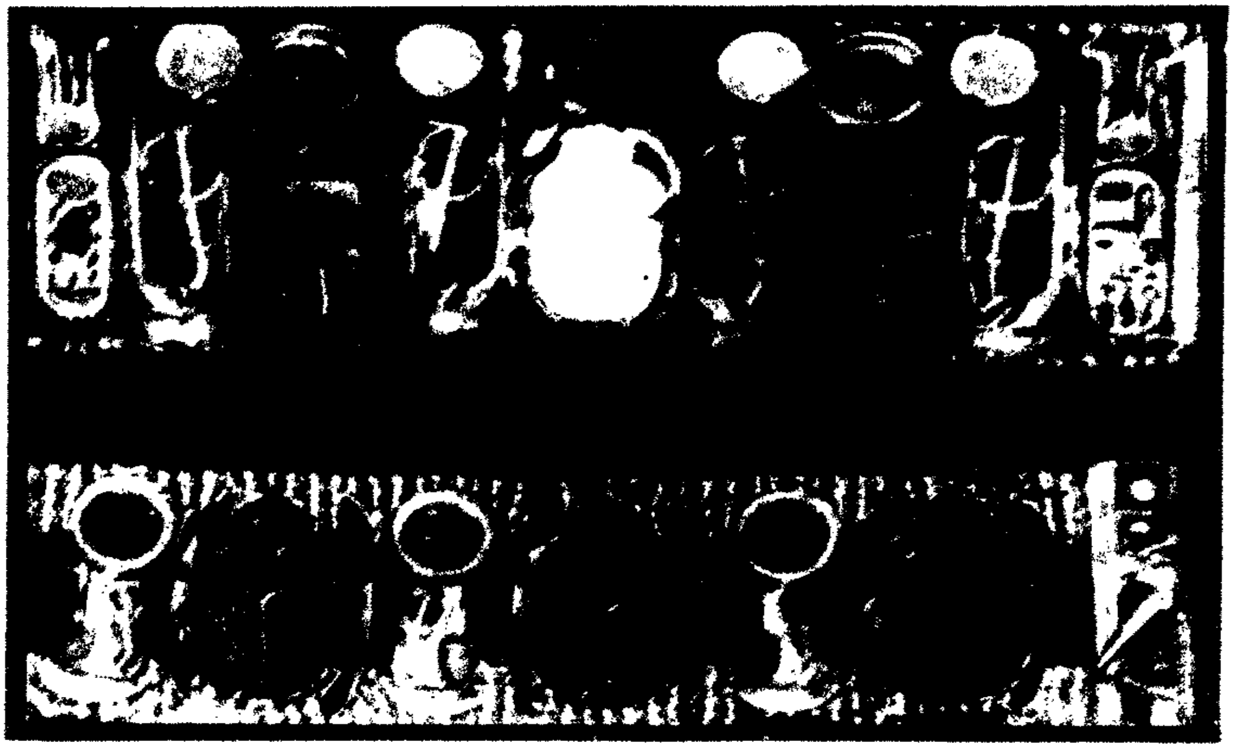
قال شارلز دارون :

« كلما سمعت باصطياد خنفساء شعرت بدنو الحرب وتناهى الى مسمعي صوت هرولة الفرسان على خيولهم ، استجابة لصوت البوق الذي يعلن بدء المعركة » .

تعتبر الخنافس من أكثر فصائل الحشرات عددا ، فهي تفوق الفراشات والنمل والنحل والذباب ، فهناك حوالي ٣٠٠,٠٠٠ نوع من الخنافس في مقابل ٤,٥٠٠ نوع من الثدييات التي ينتسب اليها الانسان . وسبب شيوع الخنافس تواجدها في جميع أنواع البيئات مثل الغابات والحقول والصحارى والكهوف والبيئات المائية العذبة والمالحة والبحرية وكذلك تناولها لأنواع مختلفة من الغذاء ، فمنها النباتية والحيوانية والمتطفلة والمفترسة .

الخنافس والأسطورة

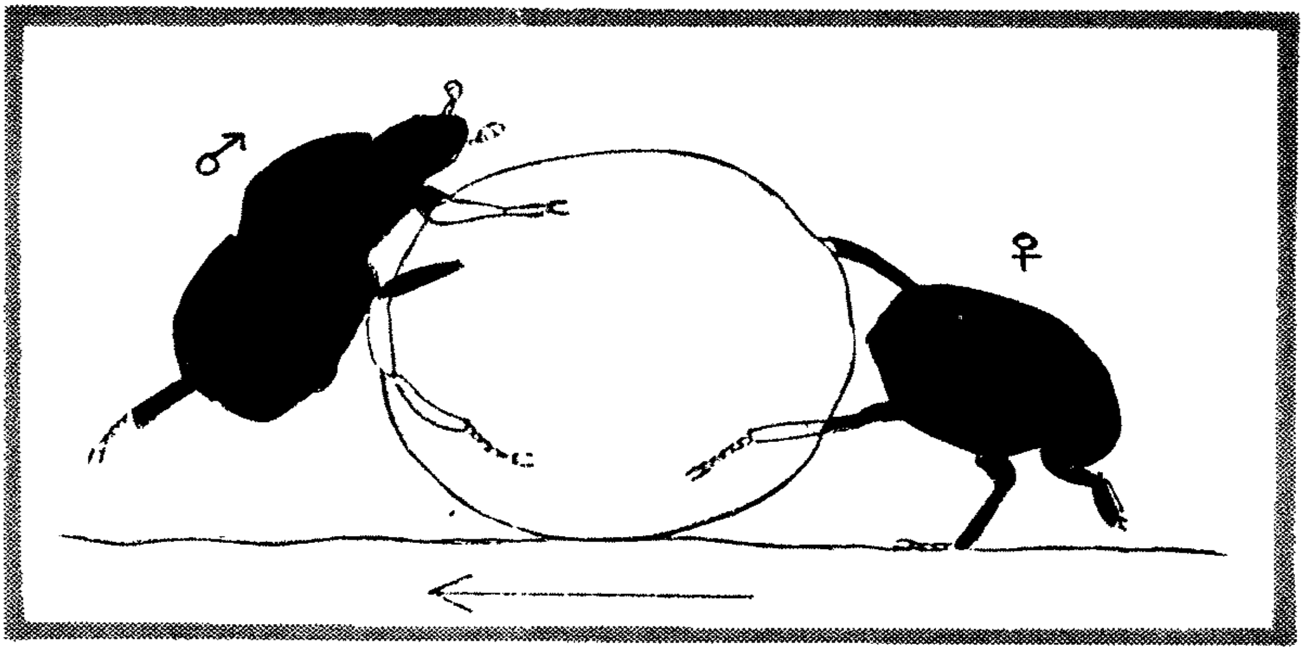
عرف الانسان الخنافس منذ قديم الأزل ، وارتبطت بمخيلته عن طريقين ، أولها مباشر وهو



● أساور من الذهب من احد القبور الفرعونية ، مرسوم على الأساور خنفساء الروث والشمس بين يديها ، ومحاطة بالثعابين من الجانبين . صورة (١)



● بعض الكنوز الذهبية التي وجدت في قبر توت عنخ آمون ، وتظهر فيها خنفساء الروث مع حيوانات أخرى مثل البابون (نوع من القردة). صورة (٢)



● ذكر وأنثى خنفساء السكراب يتعاونان على دحرجة كرة الروث ، لاحظ الأنثى على اليمين تدفع ، والذكر على الشمال يتعلق .

تأثيرها كآفات زراعية تأكل غذائه ، وتعيث فسادا في أثاثه وسجاده واستخداماتها في مجالات الطب الشعبي كمراهم لازالة كثير من الاعتلالات الجسدية والأمراض الجلدية كالبثور .

وثانيهما غير مباشر وذلك من خلال الفولكلور والأساطير القديمة التي دخلت الخنفساء في مكوناتها ، ولعل أساطير مصر القديمة الفرعونية منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد خير نموذج لذلك ، فقد اهتم فراعنة مصر بخنفساء السكراب (أبو جعل) حيث رأوها تمثل نسخة مصغرة جدا للحياة حولهم ، لقد علموا أن خنفساء السكراب تدحرج أمامها كرة كبيرة من الروث تدفنها تحت الأرض ، وبعد ذلك ، وفي كل سنة تظهر خنافس كثيرة في العدد تمشي على الارض وتشبه الأم التي دفنت تحتها الروث ، ولقد رأى الفراعنة اله الشمس « خبري » على هيئة خنفساء السكراب الكبيرة يدحرج الشمس بين يديه في طبقات السماء العليا أثناء حلول الليل ، ثم يعيد دحرجتها مرة ثانية حتى تشرق في صباح اليوم التالي ، فخنفساء الروث لديهم دلالة على اعادة الحياة والخلود بعد الموت ، لذلك وضعت منحوتات على شكل تلك الخنفساء في مقابر السلالات الفرعونية لضمان خلود أرواحهم بعد الموت . كما استخدمت خنفساء « الروث » كرمز في الكتابة الهيروغليفية (اللغة المصرية القديمة) لتعني لديهم « يصبح »،فمثلا وجدت نسخة من تلك الكتابة على قبر اخناتون ، وتعني كما هو ظاهر في الرسم المصاحب للمقال «يصبح ـ شمس ـ جميل » . كما استعملت خنافس السكراب في عمل الأساور الذهبية في عهد الفراعنة . وقد وجدت كثير من هذه الكنوز في مقبرة توت عنخ آمون كما هو واضح في الصورة رقم (١ ، ٢) .

كما يؤمن الجنود الرومان ايمانا راسخا بمقدرة تلك الخنافس على حمايتهم أثناء الحروب ، لذلك يلبسونها كتعويذات قبل البدء في أي معركة حربية ، كما تأخذ الخنافس مكانة مرموقة في أساطير أمريكا اللاتينية ، حيث تعتقد احدى قبائل جنوب أمريكا بأن هناك خنفساء خلقت العالم بأرضه وسماءه ، وخلقت الرجل والمرأة من حبات جمعتها من تربة الأرض .

وفي أوروبا العصور الوسطى ، دخلت الخنافس الفولكلور الشعبي ، حيث يرى بعض الأوروبيين

أن خنافس شبيهة بخنافس السكراب تجلب الشقاء وسوء الطالع،وبمجرد قتل تلك الخنفساء تحل العواصف والأعاصير التي تدمر الأرض وماعليها ، ولكن يمكن للفلاح أن ينقذ نفسه وبيته ومحصوله من تلك العواصف بمجرد أن يقوم بمساعدة خنفساء تجثو على ظهرها بضعف في مزرعته ، ويعتقد الأيرلنديون بأن الخنافس يمكن أن تقتل بمجرد النظر ، أو أن تكون سببا لحلول اللعنة بمجرد رفع ذيلها ، وبعض الخنافس لديهم تسبب الحرائق التي تأتي على اليابس والأخضر ، لأنها تطير على سقف المنزل حاملة بين فكيها قطعة من الفحم المشتعل لترميها على ذلك المنزل ، ليحترق بمن فيه ، لذلك يستعملوا رأس وفكوك هذه الخنافس كتعويذة تجلب الحظ السعيد في البيت . ولاتزال هذه القلائد تباع في اسطنبول الى وقتنا الحاضر ، وفي استراليا والمانيا الغربية والسويد ترى الخنافس كساحرات قرينات للشيطان .

مجلبة للحظ السعيد

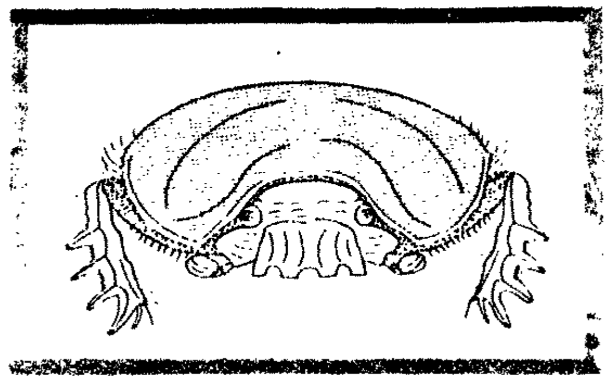
وليس كل الخنافس لها سمعة شريرة ، فهناك بعض الخنافس التي تجلب الحظ السعيد وتكون مصاحبة للسيدة العذراء عند المسيحيين وليس للشيطان مثل خنفساء الدعسوقة ، وهي خنفساء صغيرة مستديرة برتقالية اللون مرقطة الجناحين باللون الأسود احيانا ، تقول الأم الانجليزية عندما تضع طفلها في المهد لينام ، « يادعسوقه يادعسوقه طيري الى بيتك يادعسوقة ان بيتك مضطرمة فيه النار وأولادك ستحترق يادعسوقه » . ومنشأ هذه الاغنية أن الفلاح الانجليزي يحرق محصوله بعد الحصاد وتكون الدعسوقة ويرقاتها (اولادها) مازالوا على تلك المحاصيل . يتفاءل الناس بالدعسوقة خصوصا عندما تحط عليهم ، وتسمى في بعض المناطق بخنفساء الرب ، وفي ايطاليا براعية الرب ، وفي الهند براعية آندرا،والتسميتان الأخريتان تبينان مدى العلاقة بين الدعسوقة وحشرة المن ، فحشرة المن هي التي وفرت لبني اسرائيل وهم في التيه ـ كما ورد في سورة البقرة آية ٥٧ ـ الندوة العسلية وهي مادة سكرية تفرزها حشرة المن على الاشجار ، وعندما تكثر حشرات المن تكثر معها الدعسوقة لأن الأخيرة تفترس الأولى ، فكأن الخراف ترعى الكلأ والعشب ، والدعسوقة ترى المن وتتغذى عليه والمن من الرب كما ورد في الآيات .

خنفسة الجبون وحصن الداء

وفي الكويت ، هناك أنواع مختلفة من الخنافس منها « الجبون » وهي خنافس سوداء ذات ارجل طويلة نراها تجري في الصحراء بسرعة كبيرة ، وكان اولاد الكويت قديما يصطادونها وكل واحد منهم يصبغ جبونه بلون معين ثم يضعون خط على الأرض تقف عليه الخنافس،ويبدأ السباق بينهم والذي يفوز جبونه يأخذ الجائزة . وفي الكويت أيضا « حصين الداب » وهي الخنفساء الكبيرة السوداء المنقطة بالأبيض وتسمى في بعض الأحيان بخنفساء الدومينو ، كما توجد « ام زيد » وهي حشرة سوداء لها خطوط بيضاء كان الأطفال يغنون لها « أم زيد فتحي جناحك » ويلمسونها فتطير بعد أن تخرج جناحها الأبيض ، والأم الكويتية عندما تريد لطفلها ان ينام تقص عليه قصة الخنفساء الجميلة التي زارت المدينة ، وطلبها كثير من الخطاب الذين كانت تردهم بدلال،وتقول القصة « خنيفسينه خنيفسينه شنوا جابك على درب المدينة تنجسينا » فترد الخنفساء « انا الشمعة وانا اللمعة وانا سراج البيت ليلة الجمعة » .

يسمى الكويتيون الخنفساء بالخنيفسينة وهو تصغير لاسم الخنفساء ، ويعتقد الكويتيون ان من يلمس الخنفساء يشم رائحة كريهة تنبعث منها ، ولذلك فهم لا يلمسونها ويبعدونها عن مجالسهم ، ويلتقطونها بالملقط او بالعصا ، اما منشأ أنها الشمعة التي تضيء البيت ليلة الجمعة فلأن العلماء أثبتوا أن كثيرا من الخنافس الليلية تضيء اثناء الليل ، وهذه طريقة للتخاطب والتفاهم بين تلك الخنافس.

ويستعمل الكويتيون يرقات الخنافس لصيد الطيور ، وتسمى « الغبي » والجمع « غبابي » وتوضع في الفخاخ حية ليراها الطير تتحرك فينقض عليها وتطبق عليه المصيدة حينئذ .



● رأس خنفساء السكراب من الأمام لتوضيح الرأس والأرجل المسننة .



● الحفر التي تجهزها خنافس السكراب لدفن البيض في الروث الذي تجمعه (البيض باللون الأسود والروث باللون المنقط).

خنفساء أبو جعل :

كما أسلفنا من قبل ، فخنفساء أبو جعل تقوم بتكوير الروث أو براز الانسان ثم تدفنه في أنفاق تعدها تحت الارض لتكون سمادا طبيعيا فيما بعد .

والاسم الشائع لخنفساء أبو جعل هو خنفساء السكراب التي تشتهر بجمع السكراب أو الروث وهي البقايا على شكل كرة تقوم بدحرجتها لمسافات قد تطول لتدفنها في الأرض وتتغذى عليها اليرقات عندما تفقس من البيض .

عندما تصل الخنفساء الى روث الحيوانات تأخذ منه غرفة بمساعدة رأسها وأرجلها الامامية المسننة ثم تكور الروث بأرجلها الوسطى والخلفية على هيئة كرة قد تصل في حجمها الى حجم التفاحة وهي تقوم بتكويره على هذا الشكل حتى تسهل دحرجته لمسافات طويلة لتدفنه في الحفرة التي تقوم بحفرها تحت الارض ، واذا كانت الحفرة غير بعيدة عن الروث فلا تجعله على شكل كرة ، ولكنها تحمله على دفعات صغيرة .

عندما تنتهي الأنثى من تكوير الروث تقوم بحمله بين الارجل الخلفية مع رأسها الى أسفل ، فحركة الأرجل الخلفية تدحرج الروث أما الأرجل الامامية فتستعمل للمشي ، وعندما تكون الأرض غير مستوية تكون عملية المشي كسباق الماراثون من حيث الجهد الذي تبذله الحشرة . وفي بعض الحالات تتعاون حشرتان في هذا العمل كما في الصورة ، وتكون الخنفساء الثانية منجذبة لرائحة الروث الذي جلبته الاولى وقد تكون الخنفساء الثانية هي الذكر الذي قد يساعد الانثى في حمل ودحرجة الروث بالارجل الخلفية ، أما الذكر فيكون رأسه الى الأعلى ويدحرج الروث بأرجله الامامية ، وفي هذه الحالة قد تتدحرج كرة الروث في حلقة مستديرة وليس للأمام ، وقد لاتساعد الخنفساء الثانية ولكن تؤخذ الدحرجة أو المساعدة كفرصة للعب حيث تقفز الى الأعلى وتكون عبئا اضافيا على الخنفساء الأولى .

وعندما يصل الروث الى الحفرة ـ التي عادة ماتكون في مكان ظليل ـ تكمن فيه خنفساء الروث بعد غلق الباب عليه ، ويتعاون أحيانا الذكر والانثى من أبو جعل بعمل تلك الحفرة ، فتحفر الانثى خندقا بعمق ١٨ بوصة ـ ٢ قدم وتخصص غرفا خاصة لتربية البيض ، ويقوم الذكر بمناولة الروث للأنثى التي تقوم بدورها بعجنه وتقطيعه على شكل كتل صغيرة الحجم على شكل التقانق تضعها في غرف التربية ، وتضع كل قطعة في حجرة مستقلة ثم تقوم بوضع بيضة واحدة مع كل قطعة ، ثم تغطي البيض بالروث ويبقى الأبوان مع البيض حتى يفقس الى يرقات ، ويكون دورهما حينئذ مقتصرا على اصلاح ما يتعرض للتلف في حفرتهم ومنع ظهور الفطر على الروث بتنظيفه □

وجهاً لوجه





د. علي الوردي ⊖ د. جليل العطية

- للأعراف الشعبية سطوة على العقول !
- الطبيعة البشرية من أعقد الموضوعات وأصعبها !
- العقل البشري .. عقل متحيز !
- الانسان - بوجهٍ عامٍ - «أنَوِيٌّ» وليس أنانيًا.
- دعوة الى الغاء ثلاثة أرباع النحو العربي !!

الدكتور علي الوردي مفكر وعالم اجتماع بارز ، بدأ نشاطه الفكري منذ بواكير الثلاثينيات ، ولا يزال حتى اليوم يواصل الابداع والتبشير بنظرياته التي تعتمد على تحليل بنية المجتمع العربي عامة والعراقي خاصة ، تقوم فلسفته على التبسيط والموضوعية ، فقد أولع منذ صغره بعلم النفس الاجتماعي ، وهو يرى أن علم الاجتماع مازال عاجزا عن فهم طبيعة الانسان على حقيقتها .

تثير كتابات الوردي جدلاً واسعاً في الأوساط الثقافية والاجتماعية ، وقد صدر له تسعة مؤلفات أهمها « لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث » ويقع في ثمانية أجزاء ولم يتم بعد ، وقد وجدت هذه الكتب رواجاً شعبياً كبيراً ، وترجم بعضها الى الألمانية والانجليزية والاسبانية والفارسية والبولونية وغيرها .

هو شخصية مثيرة للجدل ، يكفي أن نشير الى صدور اثني عشر كتاباً في الرد على آرائه وتحليلاته ، وهذا أمر نادر !

تذكرك شخصيته المتواضعة وتألقه وروحه الشابة بأبي حيان التوحيدي وغيره ممن عاشوا في أزهى عصور الحضارة العربية !

وهو يحمل على كتفيه اليوم هموم خمسة وسبعين عاماً ، وقد أدار هذا الحوار معه الدكتور جليل العطية .

ـ منذ نحو عشر سنوات وأنت غائب عن المسرح الفكري ، وقد قيل الكثير عن أسباب هذا الغياب ، وعلمت أخيراً أنك عاكف منذ أمد بعيد على تأليف كتاب جديد يتناول « طبيعة البشر » ولمعرفتي بهمتك وصبرك على التأليف ، فإنني استغرب أن يتأخر كتابك الجديد ، الذي يتشوق له كثير من قرائك والمعجبين بك . . فهل لك أن تبين لنا أسباب هذا التأخير ؟

* لا أكتمك أني أعمل في تأليف هذا الكتاب منذ أكثر من خمس سنوات ، هناك سببان لتأخير صدوره ، أولهما كبر سني وضعف صحتي ، بحيث أصبحت لا أقوى على العمل أكثر من ساعة أو ساعتين في اليوم ، أما السبب الثاني فهو صعوبة موضوعه ، ولا يخفى عليك أن طبيعة البشر هي من أصعب المواضيع النفسية والاجتماعية ، إن لم تكن أصعبها جميعا ، فهي موضوع متشعب ومعقد الى أبعد الحدود ، والواقع أني كلما توغلت في دراسته شعرت بأني لا أزال في أول الطريق ، وكلما بحثت في جانب منه ظهرت أمامي جوانب أخرى تحتاج الى بحث .

ظهرت في موضوع الطبيعة البشرية نظريات متعددة ، كما نشرت فيه دراسات لا تحصى ، وأعترف لك أني أشعر بالعجز تجاه تلك النظريات والدراسات ، فهي في غاية الصعوبة ، بل من المستحيل استيعابها كلها ، أضف الى ذلك أنها قد تتعارض وتتناقض ، ولهذا يقف الباحث حائرا لا يدري ماذا يأخذ منها وماذا يترك .

كذلك يجب أن لا ننسى أن العلوم التي تبحث في الطبيعة البشرية ، كعلم النفس وعلم الاجتماع ، هي من العلوم الحديثة جداً ، فهي لم تأخذ بالمنهج العلمي إلا منذ قرن واحد أو أكثر قليلاً ، ويمكن القول إن هذه العلوم مازالت تحت التأسيس ، وذلك لما فيها من نظريات ودراسات مختلفة أو متعارضة .

حاولت قدر جهدي أن أدرس النظريات المختلفة في هذا الموضوع ، ولكن طاقتي محدودة ، كما أن اتصالي بالأوساط العلمية في الخارج محدود كذلك .

إن الذي دفعني الى الاستمرار في دراسة الطبيعة البشرية هو ما انتشر بيننا من مفاهيم مغلوطة حول هذه الطبيعة ، وهي المفاهيم التي ورثناها في

الماضي ، وأضرت بنا كثيرا من الناحية النفسية والاجتماعية ، ولا يزال الكثيرون منا ـ من المثقفين والعوام ـ يتداولون هذه المفاهيم ويتأثرون بها في علاقاتهم الاجتماعية ، دون أن يدركوا مبلغ الخطأ فيها أو فداحة الضرر الناتج عنها .

نماذج من الأخطاء

ـ هل لك أن تقدم لنا نماذج من تلك المفاهيم المغلوطة والضارة وأنت تعلم بأن جيلنا يعيش ظروفا مختلفة ، وبالتالي فإنه يعيش بعقلية أخرى وقيم مختلفة ، فما رأيك ؟

* لا يتسع المجال هنا لتعداد تلك المفاهيم ، وقد يكفي أن أذكر اثنين منها على سبيل المثال :

أحد هذين المفهومين هو الذي نسميه « العقلانية » ونعني به اعتبار الانسان حيوانا عاقلاً ، وأنه يجري في تفكيره وسلوكه حسبما يقضي العقل الواعي والمنطق السليم .

فإذا أردنا اقناع انسان بتبديل رأي له أو عقيدة ، فليس علينا إلا أن نقدم له الدليل العقلي الواضح الذي سيقتنع به حالا فيغير رأيه أو عقيدته ! أما إذا لم يفعل ذلك فهو لابد أن يكون متعصباً أو معانداً أو مغرضاً ، وهو في هذه الحالة يستحق العقاب أو التوبيخ .

أما المفهوم الثاني ، فهو الذي يتمثل في المبدأ القائل « من جد وجد » ومعناه أن كل انسان قادر على أن يصل الى ما يطمح إليه من نجاح أو عظمة ، بمجرد أن يبذل الجهد ويسعى ويناضل ، فالطريق مفتوح أمامه حسبما جاءت به الأمثال المأثورة نحو « كل من سار على الدرب وصل » و « كل من جال نال » و « من طلب العلا سهر الليالي » و « وهمم الرجال تزعزع الجبال » وغيرها .

العقل البشري متحيز

ـ اسمح لي أن أخالفك في هذين المفهومين : فالعقلانية هي السمة التي تميز الانسان الواعي ، أما مبدأ « من جد وجد » فهو يعني أن على الفرد ـ خاصة الذي ينحدر من الطبقة العاملة أو المحدودة الدخل ـ أن يعمل لكي يتبوأ مكانته في المجتمع ، ولدينا شواهد كثيرة تؤكد أن أبناء فقراء تسلقوا أعلى مراتب المجد والسلطة . .

* إن النظرة الحديثة تعتبر العقل البشري أنه متحيز ومحدود بطبيعته ، وهذه النظرة على النقيض من النظرة الفلسفية القديمة التي كانت تثق بالعقل ثقة مطلقة وتبالغ في تمجيده وتقديره .

نحن لا ننكر أن العقل جهاز عظيم ، وهبه الله للإنسان وهو أهم ما يميزه عن الحيوان ، ولكننا إذ نعترف بذلك يجب أن لا ننسى أن العقل له حدود يقف عندها ، فهو عظيم في نطاق تلك الحدود ، وهو عاجز مشلول اذا خرج منها .

انتشرت بيننا أقاويل عديدة حول العقل وتمجيده ، وهي أقاويل ورثناها من الماضي ، وقد اتسع نطاق تداولها حتى وصلت الى العوام ، فأنت لا تكاد تتحدث الى أحد من العامة حتى تراه يشير الى مخه ويقول : « الله بأي شيء عرفناه ؟ بالعقل » ! أو يقول « الله أعطانا عقلا لكي نميز به الأمور ، أو ما يشبه ذلك » .

إن هذا الإنسان البسيط لا يدري أنه عرف الله لأنه نشأ في بيئة اجتماعية تعبد الله ، سبحانه وتعالى ، ولو أنه كان قد نشأ في بيئة تعبد الأوثان لعبدها مثل غيره من أبناء بيئته ، وهذا لا يصدق على العوام فقط بل يصدق على كثير من المثقفين أيضاً !

إن الإنسان حين يفكر يتصور أنه يجري في تفكيره حسبما يقضي به المنطق السليم ، وأنه حر مختار في تفكيره لا تأثير لأي مؤثر آخر عليه ، فهو لا يدري أن هناك عوامل لا شعورية متعددة تلعب دورها في تفكيره .

إذا تجادل اثنان حول رأي من الآراء ، فمن النادر أن ينتهي الجدال بينهما الى اتفاق ، فالدليل الذي هو قوي واضح في نظر أحدهما قد يكون واهيا أو غامضا أو غير معقول في نظر الآخر ، فكل منهما ينظر في

الأمور من خلال الإطار الذي وضعته العوامل اللاشعورية حول تفكيره ، فأنت تقول عن دليلك الواضح أنه كالشمس في رابعة النهار ، ولكنك لا تدري أن خصمك قد يكون أعمى أو هو في غرفة مظلمة ، أو أن إطاره الفكري جعله ينظر نحو جهة ليس فيها شمس ، وفي مصداق ما ورد في القرآن في قوله تعالى : « إنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور » أو قوله تعالى : « أكثرهم لا يعقلون » . المائدة (١٠٣)

علينا أن نضع ذلك أمام أعيننا عندما نريد أن نتعامل مع الناس ، أو نحاول اقناعهم برأي من الآراء . فإن الذي يتعامل مع الناس بوصفهم عقلاء كثيراً ما يفشل في حياته ، وهو عند فشله قد يلوم الناس على ما فعلوه به ، ولكنه أجدر باللوم منهم .

التراث

ـ أنت تقول أن هناك عوامل لا شعورية تؤثر في تفكير الإنسان من حيث لا يدري بها ، فما هي هذه العوامل ، وكيف يؤثر كل واحد منها في التفكير البشري ؟

* العوامل اللاشعورية المؤثرة في تفكير الإنسان متعددة أذكر أهمها :

التراثية ، وأعني بها ما يدل عليه مصطلح (Culture) المعروف في علم الاجتماع ، أي مجموعة المعتقدات والقيم والتقاليد والأعراف والتقنيات والحرف الموجودة في مجتمع معين التي يتميز بها كل مجتمع عن غيره من المجتمعات الأخرى ، فلكل مجتمع تراثه الخاص به ، كما أن لكل فرد شخصيته الخاصة به ، فالإنسان ينشأ منذ طفولته الباكرة في تراث معين ، واذا ظل في كبره قابعا فيه ، فإن تفكيره يكون مصبوبا في قوالبه التقليدية ، فالقبيح قد يكون في نظره حسنا ، والحسن قبيحا تبعا لتراثه وقيمه التي نشأ فيها ، فنحن قد نرى في بعض المجتمعات معتقدات أو تقاليد مستهجنة في نظرنا أو غير معقولة ، ولكنها صالحة ومعقولة في نظر الذين نشأوا فيها .

يقول العالم الاجتماعي سمنر في كتابه « الأعراف الشعبية » إن الأعراف الشعبية تستطيع أن تجعل أي شيء حسناً وأي شيء قبيحاً ، وهذا هو أحد النواميس الاجتماعية التي يجب أن يعرفها كل من يريد معاشرة الناس والتعامل معهم .

يروى عن الاسكيمو الذين يسكنون بالقرب من القطب الشمالي أن من تقاليدهم التراثية أن الضيف الذي ينزل في بيت أحدهم يجب أن ينام مع زوجة المضيف في فراش واحد !

إن هذه عادة اجتماعية نشأ عليها الفرد من هؤلاء القوم ، فلا يجد فيها منقصة أو عاراً ، ولكنها في نظر البدوي أمر لا يمكن تصديقه ، فالبدوي كما هو معروف من أكثر الناس إهتماماً بعفة المرأة وصيانتها ، وقد اعتاد أن يقتل المرأة التي تحوم الشبهة حول سلوكها ، وهو لذلك لا يستطيع أن يصدق ما يقال له عن تقاليد الاسكيمو حول المرأة ، إنه لا يدري أنه لو كان قد تربى وفق تراث الاسكيمو لغضب من الضيف الذي يرفض النوم مع زوجته !

المصلحة الخاصة . . والعاطفة

الانسان اذا كانت لديه مصلحة خاصة في أمر من الأمور أصبح عقله متحيزا نحو ذلك الأمر من حيث يدري أو لا يدري ، وهذا هو ما نلاحظه واضحا في قاعات المحاكم ، فالشخص الذي لديه قضية معروضة أمام احدى المحاكم يكون تفكيره منصبا على نجاح تلك القضية ، وهو يأتي في سبيل ذلك بمختلف الأدلة والبراهين التي تؤيد دعواه ، فإذا أصدر القاضي حكمه في مصلحة صاحب القضية صار في نظره أعظم القضاة في الدنيا وأكثرهم عدلا ونزاهة ! أما إذا أصدر القاضي حكمه بخلاف ذلك فإنه ينقلب حالا الى أسوأ قاضي .

ومن الممكن أن نقول عن العاطفة مثلما قلناه عن المصلحة الخاصة من حيث تأثيرها في تفكير الإنسان ، وكثيرا ما تتوحد المصلحة والعاطفة في الإنسان فتجعله يرى الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، فالإنسان يحب الذي يساعده في أمر من الأمور أو يحسن اليه ، ولكنه لا يكاد يراه قد نافسه في

المهنة أو المكانة الاجتماعية حتى يبدل نظرته اليه من الحب الى الكراهية ، وعندها تتحول محاسنه الى مساويء بعدما كانت عيوبه قد تحولت الى محاسن ، يقول الامام الشافعي في بيت له من الشعر مشهور :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدي المساويا

التجارب المنسية والأنوية

قد تمر بالإنسان تجربة مؤلمة أو سارة تجاه أمر من الأمور ، ثم ينسى الحادثة ، ولكن ذكراها تبقى كامنة في لاشعوره ، فإذا رأى شخصا أو شيئا يذكره بتلك الحادثة شعر بالبغض أو الحب له ، وكثيرا ما يؤثر ذلك على تفكير الإنسان تجاه الآراء أو المباديء أو الاتجاهات الثقافية أو السياسية .

أما الأنوية : فهي شعور الإنسان بذاته ـ أي بالأنا ـ تجاه الأخرين ، فالأنا محور الشخصية البشرية ، وكل إنسان يسعى دائما نحو رفع مكانة « الأنا » في نظر مجتمعه ، وهو قد يدوس في بعض الأحيان على مصلحته أو عاطفته من أجل الأنا ، وأنت تستطيع أن تجعل منه صديقا مخلصا إذا أجزلت له الاحترام والمديح ، كما تستطيع أن تجعل منه عدوا لدودا إذا احتقرته أو أهنته .

وللمعرفة دور مهم ، فالإنسان يكذب الأمور أو يصدق بها حسبما تملي عليه معلوماته التي يملكها تجاه تلك الأمور ، خذ ـ مثلا ـ الأمي الذي يعيش في قرية بدائية منعزلة ، فهو يرى الأرض مسطحة ، والشمس تدور حولها ، ومن المستحيل أن تقنعه بخلاف ذلك ، وهو قد يعدك مجنونا أو جاهلا لأنك في نظره تنكر بديهية من البديهيات العقلية التي لا يجوز الشك فيها ، وهذا لا ينطبق على الأمي البدائي فقط ، بل هو يشمل أيضا البشر جميعا حتى العلماء منهم ! إذا نظرنا الى الأمر نظرة نسبية . فكثيرا ما وجدنا العلماء في القرن الماضي يعتبرون بعض الأمور مستحيلة ، ثم أصبحت في هذا القرن ممكنة .

الذكاء . . . الجنون

الذكاء على درجات متفاوتة في الأفراد ـ كما هو معروف ـ فهناك المتفوقون في ذكائهم ، والمتخلفون فيه ، والمتوسطون ، ولا حاجة بنا الى القول أن الذكي يفهم الأمور بشكل يختلف فيه عن الغبي .

وكثيرا ما يشعر المتفوق في ذكائه بأنه غريب بين الناس ، أو أنه غير قادر على إقناع غيره بصواب رأي من الآراء ، وهو قد يجلب نقمة الناس عليه لاختلافه عنهم في التفكير ، وهم قد يحتقرونه أو ينبذونه .

وما يقال عن درجات الذكاء يقال عن درجات الجنون ، فالناس كلهم مجانين ! إنما هم يتفاوتون فيما بينهم في درجة جنونهم ، فليس في البشر عاقل كل العقل ، أو مجنون كل الجنون ، وأكثر الناس لديهم من الجنون درجة ضعيفة ، وفي مقدورهم ترويضها والسيطرة عليها .

أما الذين نسميهم « مجانين » فهم الذين بلغ بهم الجنون درجة قوية بحيث لا يستطيعون السيطرة عليها ، وهذا يؤدي بنا الى القول إن الكثيرين من الذين نحسبهم عقلاء هم ليسوا عقلاء تماما ، فكل واحد منهم لابد أن يكون في عقله شيء من الخلل الذي يجعله يفهم الأمور بخلاف ما يفهمه الآخرون قليلا أو كثيرا .

يجب أن نضع هذه العوامل أمام بصرنا عندما نريد التعامل مع الناس أو مجادلتهم .

فأنت حين تريد أن تقنع شخصا بصحة رأي من الآراء لا يكفي أن تقدم له الدليل العقلي في ذلك ، بل يجب أن تتسلل الى تفكيره عن طريق هذه العوامل ، بعضها أو كلها ، ومعنى هذا أنك يجب أن تتسلل اليه عن طريق تراثه أو مصلحته أو عاطفته وأنويته أو غيرها ، فالدليل لا يكون مقنعا إلا إذا كان منسجما معها على وجه من الوجوه ، ويجب أن لا ننسى أن هذه العوامل قد تكون متعارضة في بعض الأفراد ، وليست هي في تناسق دائم ، وهذه ثغرة يمكن التسلل منها الى داخل تفكير الإنسان .

الأنوية والأنا !

ـ يلاحظ أنك تكثر في بعض دراساتك وأحاديثك من ذكر « الأنوية » ، وهذا المصطلح غير معروف في الوطن العربي ، فهل جاءت نسبته من « الأنا ؟ » نعرف أن

النظرية الحديثة لدراسة طبيعة الانسان تذهب الى اعتبار « الأنا » محور الشخصية البشرية .. في هذه الحالة كيف تحلل الفرق بين « الأنا » و « والأنانية » ؟ !

* « الأنوية » « كالأنانية » منسوبة الى الأنا ، ولكن هناك فرقا بينهما في المعنى ، فالمعنى المتداول بين الناس عن الأنانية هو أنها هي التي تجعل الإنسان يهتم بمصلحته ، ولا يهتم بمصلحة الآخرين ، أما « الأنوية » فهي تعطي معنى آخر ، اذ هي تعني شعور الإنسان بذاته ـ أي الأنا ـ تجاه الآخرين ، وهذا الشعور يجعل الإنسان في دأب متواصل نحو رفع مكانة الأنا في نظر المجتمع .

إن الإنسان بوجه عام « أنوي » وليس أنانيا ، ونحن لا ننكر وجود أفراد غير أسوياء ، تظهر فيهم الأنانية ، ولكن هؤلاء قلة قياسا الى غيرهم من الناس ، فالإنسان السوي في الواقع كثيرا ما يخدم الآخرين ، ويضحي من أجلهم بغية نيل تقديرهم ، أي بقصد رفع مكانته في نظرهم ، وبعبارة أخرى : إن الإنسان يجد من مصلحته أن يخدم مصلحة الآخرين ، فهو فرد في مجتمع ، يسعى دائما الى رفع مكانته في نظر الآخرين ، وهو يشعر بالسعادة في ذلك ، وكلما ازداد ارتفاع مكانته ازدادت بذلك سعادته .

إن النظرية الحديثة في طبيعة الإنسان هي أن « الأنا » محور الشخصية البشرية ، ويؤسفني أن أقول أن هذه النظرية لم تعرف في اللغة العربية إلا في نطاق محدود ، ولايزال الكثيرون من الكتاب العرب واقعين تحت تأثير مرحلة فرويد ويونغ وأدلر ولم يتجاوزوها ، هذا مع العلم أن نظريات هؤلاء أصبحت من النظريات العتيقة التي عفا عليها الزمن .

ـ ماذا تقصد بقولك إن « الأنا » محور الشخصية البشرية ؟ هل هذا يعني « أننا نرجسيون » بالطبيعة ؟ هل « الأنا » يكتسبها الفرد من أفراد المجتمع أم أنها تنشأ لديه منذ الطفولة .. وهل كانت « الأنوية » معروفة قديما ؟

* إن الإنسان بوجه عام يركز معظم تفكيره حول « الأنا » ، وكيف ينظر الناس اليه ، وهو يشعر بالغبطة حين يرى الناس يقدرونه ويعجبون به ، كما يشعر بالامتعاض حين يرى الناس يحتقرونه أو ينظرون اليه باشمئزاز أو إهمال ، وقد يصح أن أقول إن معظم نشاط الإنسان في حياته يدور حول هذه النقطة ، فهو يسعى دائما من أجل أن يكون موضع فخار لا موضع عار !

يقول المثل البدوي القديم « النار ولا العار » ، ومازال هذا المثل منتشرا وقوي الأثر في المجتمع البدوي حتى الآن ، ومعناه أن البدوي يُفضل دخول النار في الآخرة على كسب العار في الدنيا ، فالعار لا يمكن أن يحتمله البدوي في حياته على أي حال ، والواقع أن هذا ليس هو شأن البدوي وحده بل هو يشمل الناس جميعا على درجات متفاوتة .

إن الأنوية تظهر في الإنسان منذ طفولته الباكرة ، ومن علامات ظهورها في الطفل أنه يبتهج ويبدو عليه الزهو حين نمدحه ، كما يبدو عليه الإمتعاض حين نذمه ، ونحن نستطيع أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نطلبه منه بمجرد أن نمدحه إذا قام به ونشجعه عليه .

والملاحظ أن الطفل يكون شديد الحساسية تجاه أقرانه من الأطفال ، فنحن لا نكاد نمدح طفلا آخر بحضوره ، أو نحمل ذلك الطفل ونتضاحك له ، حتى يشعر هو بالغيرة الشديدة منه ، وقد يبكي دون أن نعرف السبب الذي دفعه الى ذلك .

إن تجاهلنا « للأنوية » في الطفل كثيراً ما يؤدي الى تكوين العقد النفسية فيه ، فقد اعتاد الناس في مجتمعنا على مداعبة الطفل الصغير أمام أطفال آخرين أكبر منه ، إننا لا ندرك مبلغ الألم العميق الذي يشعر به الطفل من جراء ذلك ، إن أفراد العائلة كثيراً ما يفرحون بولادة طفل جديد لهم ، فيلتفون حوله ويضحكون له في حضور إخوته الذين هم أكبر منه ، غافلين عما يحدثه ذلك من أثر سيء في نفوسهم ، إن الطفل الجديد لم تتكون « أنويته » بعد ، وهو اذن لا يقدر اهتمامهم به ، بينما يشعر الأطفال الآخرون

بالغيرة منه ، وربما انتهزوا الفرصة فيما بعد للإساءة اليه انتقاما منه من حيث لا يقصدون أو لا يشعرون .

كانت التربية القديمة غافلة عن وجود « الأنوية » في الطفل ، فقد كانت تعتمد على العصا في تأديبه من جهة ، وعلى الموعظة الخطابية من الجهة الأخرى . . كان الأطفال عندنا يلعبون في الأزقة ، حيث تنشأ « أنويتهم » على أساس التفاخر بالقيم « الزقاقية » في الغلبة والإعتداء والسَرقة ، كنا نتركهم ينشأون على هذا النمط ، ثم نأخذ بتوجيه مواعظنا الرنانة اليهم .

وهذا هو من عوامل نشوء الشخصية المزدوجة في لبعض منهم ، أما « النرجسية » فإنها حُب الذات وهي شيء آخر .

يمكن إلغاء ثلاثة أرباع النحو !

ـ الحريصون على سلامة اللغة العربية ودعاة التشدد في استخدامها ، يتهمونك بضعف الأسلوب ، وقلة العناية بقواعد اللغة ، وخاصة النحو والإملاء ، وما أشبه ، والمعروف أنك نشأت في مدينة دينية تكثر فيها المدارس التقليدية التي تدرس فيها مختلف العلوم ومنها العربية ونحوها وصرفها . . فلم ابتعدت وخالفت ، وما هو تصورك لوظيفة اللغة ؟

* إن اللغة في مفهومها الحضاري الحديث وسيلة لا غاية ، ولعلني لا أغالي اذا قلت إن الذين يسعون تجميد لغتهم ، وإبقائها على نحو ما كانت عليه قديما ، إنما هم يسيئون الى أمتهم من حيث لا يشعرون .

قال لي أحد المتحررين من الذين درسوا النحو دراسة مستفيضة : إن ثلاثة أرباع القواعد النحوية التي تدرس في مدارسنا يمكن أن تلغى دون أن يؤدي ذلك الى أي ضرر .

ومن الجدير بالذكر أن هذه القواعد الكثيرة التي تدرس في مدارسنا ، لم تنشأ نشوءا طبيعيا ، فالكثير منها قد اختلقها النحاة في العهد العباسي تحت تأثير المنطق الاغريقي وعوامل أخرى ، فأخرجوها بذلك عن السليقة الفطرية التي كان العرب الأولون يجرون عليها ، وبعبارة أخرى : إن العرب الأولين لم يكونوا يعرفون هذه القواعد المعقدة أو يتبعونها في أحاديثهم اليومية ، فهي قواعد غير طبيعية ، وليس من المعقول أنهم كانوا يعرفونها في الوقت الذي كانوا يتكلمون فيه على فطرتهم من غير تكلف وتصنع ، ولكن النحويين جاءوا بعدهم فصاروا يتنافسون في تطوير القواعد النحوية وتزويقها ، حيث صار ذلك حرفة لهم يرتزقون منها ويتباهون بها .

نستطيع أن نشّبه القواعد النحوية التي طورها النحويون بالقواعد الفقهية التي طورها الفقهاء . . فنحن نعرف أن النبي (ص) جاء بتعاليم قليلة في شأن الطهارة والوضوء والصلاة والصوم والحج وغيرها ، ولكن الفقهاء جاءوا فطوروا تلك التعاليم وعقدوها بحيث أصبح من الصعب على الإنسان اتباعها بحذافيرها ، ومن يريد اتباعها حرفيا قد يصاب بداء « الوسواس » الذي لا يرجى شفاؤه ، ومن يقرأ المجلدات الضخمة التي كتبها الفقهاء في موضوع الطهارة وحدها يجد بحراً بلا نهاية . . وهذا هو الذي ثار عليه الشيخ محمد عبده في مصر والسيد محسن الأمين في الشام .

لقد دعوت دائما الى وجوب تقليص القواعد النحوية في لغتنا وتبسيطها ، وقد عانيت من هذه الدعوة ما عانيت ، وها أنا في أواخر عمري لا أبالي بما قالوا ويقولون ، وعزائي في ذلك قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (١٧) الرعد . □

* ان الكثير الذي ربحه العالم بالعقل ، لا يوازى ما خسره بسبب العقل أيضا .
(براتراند رسل)

قراءة نقدية في كتاب

«المرتجى والمؤجل»

رواية من تأليف الكاتب العراقي غائب طعمة فرمان

بقلم : صلاح حزين

لا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ الرواية العراقية ـ تقريبا ـ هو تاريخ روايات غائب طعمة فرمان ، فمنذ أن كتب عمله الأول « النخلة والجيران » حتى روايته الأخيرة « المرتجى والمؤجل » وهو يسيطر على المشهد الروائي العراقي ، ليس من حيث تصويره الفذ للحياة البغدادية الشعبية في تحولاتها منذ الأربعينيات حسب ، بل من حيث إسهامه المتصل في تحويل هذه الحياة بملامحها الأساسية وتجلياتها المختلفة إلى موضوعات روائية لها ذلك السحر الذي يضفيه المؤلف على عوالمها وشخوصها ومسار أحداثها .

إن قارىء غائب يدهش مرتين ، مرة لأنه شاهد قطعة من بغداد الحقيقية تعود إليه نابضة بالحياة بشوارعها وأزقتها وأناسها ، ومرة لأن هذا البعث لقطعة الحياة القديمة أخذ شكلا آخر ومضمونا آخر ، واتخذ أبطال قصصه مسارات حكمها منطق جديد يمت إلى عالم الأدب المنسرح وليس إلى عالم الحقيقة التي بقيت هناك في رحم الزمان الحقيقي للأحداث .

هكذا كانت روايته الأولى « النخلة والجيران » التي بعثت إلى الحياة تلك القطعة الحميمة والحاسمة من تاريخ العراق الحديث ، ونعني بها فترة الحرب العالمية الثانية ، حيث يدخل الجنود الانكليز وجنود المستعمرات البريطانية ليبعثوا في سكان أحياء بغداد الشعبية ليس كراهية المستعمر حسب ، بل يبعثوا أيضا ذلك الحلم الجارف بالثراء السريع ، والتخلص من حياة الفقر والكد والتعب . فيبيع الحاج أحمد طولته (زريبة البهائم) ، وتتحول سليمة الخبازة التي تقيم في الحوش الملاصق للطولة إلى بيع الصمون (الخبز الافرنجي) ، ويتشرد مرهون السايس ، وحمودة العربنجي ، وتهرب تماضر من زواج لا تقبله ، ويتحول حسين ابن زوج سليمة الخبازة إلى بلطجي للحي بعد معركة

يتغلب فيها على البلطجي القديم ، وتكتمل دورة التغيير الاجتماعي الذي طرأ على العراق في تلك الفترة من التاريخ بانسحاق هذه الفئات الهامشية التي أعماها بريق الثراء الخادع عن رؤية واقعها البائس . وخلال الرواية تتوالى الأحداث على خلفية الوجود الانكليزي ، ليس عبر الجنود والمسكرات فقط ، بل من خلال تلك الحالة التي يثيرونها في حياة شريحة من سكان بغداد الحالمين بالثراء . وفي « خمسة أصوات » يختار غائب بغداد ما قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، حيث ترتسم صورة الرواية على ألسنة خمسة من شخصيات الرواية الأساسية الذين يشكلون عبر أصواتهم صورة العراق المضطربة قبيل الثورة ، ومن خلال هذه الأصوات ترتسم صورة الفساد والفقر والتخلف والعفونة .

وفي « المخاض » و « القربان » و « ظلال على النافذة » - وهي أهم رواياته قبل « المرتجى والمؤجل » - يتابع غائب رصده لتحولات الحياة الاجتماعية العراقية ، وهو رصد لا يهمل أبسط التفاصيل ، بل إن صورة التحولات الحقيقية تبدو أكثر ما تبدو في تلك التفاصيل اليومية البسيطة التي لم تغب عن غائب في غربته عن وطنه منذ أكثر من ثلاثين عاما .

أشياء الوطن الجميلة

من بين أعماله الأخرى تذكرنا رواية « المرتجى والمؤجل » برواية « خمسة أصوات » ، فالروايتان تنتميان إلى ما يسمى رواية الشخصيات . إذ كما في « خمسة أصوات » ينهض الحدث الروائي في « المرتجى والمؤجل » ، من خلال عدد من الشخصيات أيضا ، ولكن مقابل الخلفية القائمة للفقر والفساد والانحلال والتهرؤ في « خمسة أصوات » تشكل الأصوات في « المرتجى والمؤجل » بنية الرواية على خلفية من الضجر والقلق والوحدة والحنين إلى أشياء الوطن الجميلة الحميمة . « فالمرتجى والمؤجل » هي أول رواية يكتبها غائب عن الغربة ، وليس عن قلب بغداد الشعبية ، ولكن - وهذه هي المفارقة - تظل بغداد بأحيائها وأزقتها ومعمارها وشخوصها وشطها ونخيلها حاضرة في الرواية كشأنها دائما ، وإن كان حضورها هنا على ألسنة المغتربين وفي أذهانهم ، وفي زيارات الأقارب القادمين من هناك ، وفي أشرطة التسجيل ، وفي الأغنيات ، وفي الليمون الحامض الذي يأتي مع زائرة من العراق فتحمل معها « رائحة الجنوب الريانة » وفي « كرزات مشكلة من



الموصل ، وحبة خضرة ، وسيسي » تعيد إلى دهن المغترب حاضرة حية ، « أمسيات الشتاء الحلوة حين تقبع قرب المدفأة النفطية كالجرذ في اسطوانات أم الكلب صوت سيده » وكذلك في أناشيد الدراسة الأولى التي تستعاد في غربة تلف خريف العمر بقوة طاغية آسرة لا فكاك من لحنها المميز ذي الايقاع الطفلي البسيط .

عبر أكثر من شكل من أشكال القص يأخذنا غائب إلى عالم المغتربين العراقيين الذين وجدوا أنفسهم بعيدين عن وطنهم الذين غادروه لسبب أو لآخر ، دون أن يكون في استطاعتهم الانتباه إلى

عالم الغربة ، فهم وإن غادروا وطنهم إلا أن وطنهم لم يغادرهم . أما مكان الاغتراب فهو ببساطة شديدة ليس وطنهم ، وحياة الغربة ليست إلا « انتظاراً لشيء سيحدث دون أن نعرفه على وجه التحديد . الحياة هنا لا تنمو ، بل تستطيل أياما وليالي مؤرقة مملة مملوءة بالكوابيس » هكذا يصف يحيى سليم المغترب القديم أيامه في « المدينة الحجرية الجادة أكثر من اللازم » مستلهما حكمة صديقه ثابت حسين الذي حضر إلى المدينة لعلاج ابنه من إصابة في رأسه ، فيلتقي صديقه الحميم القديم ، وفي هذه الغربة المؤرقة يبدأ بينهما حديث الوطن الذي هو حديث الذكريات والهزائم وخيبات الأمل والمعارك الخاسرة ، لكنه أيضا حديث الطفولة الأولى ، وحديث سنوات التكوين وسنوات العشق الأول والتفتح على حياة ما لبثت أن أسلمته للغربة ، ليجد نفسه دون أن يدري يواصل فشله وهزائمه وخيبات أمله ومعاركه الخاسرة . ويقضي أيامه في ضجر وملل « مترجماً منزويا بين الأوراق والكتب المفتوحة والقواميس » .

ويحيى سليم واحد من مجموعة المغتربين في تلك المدينة الحجرية التي لا يذكرها غائب بالاسم ، حيث يلتقي هؤلاء « الخرفان » ، كما يسميهم يحيى ، بينهم طالب الدراسات العليا الذي أدمن الدراسة صالح جيل ، وزميله في الدراسات العليا والغربة والفشل أيضا علوان شاكر ، وبينهم الرسام مظهر ، وحازم ذلك المغترب الغريب الأطوار الذي لا يكف عن إقامة الحفلات الوداعية التي يزعم بعدها أنه سيعود إلى الوطن ، لكنه يعدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة ولكن من بين أصدقاء الغربة هؤلاء الذين يخففون وطأة غربتهم تلك بالشراب والثرثرة على المقاهي وفي المطاعم والحانات ، هناك تلك العلاقة الخاصة التي تربط يحيى سليم بالقادم من أرض الوطن لعلاج ابنه المعطوب ثابت حسين . وخلال لقاءاتهما وحواراتهما التي تستمر طيلة الرواية يقلب الاثنان صفحات كتاب الغربة ، ليكتشفا أن نص الغربة المكتوب على وجه كل صفحة من صفحات الكتاب يحمل على الوجه الآخر نص الوطن ، فالعلاقة بينهما هي شكل آخر من أشكال العلاقة بين الوطن والغربة ، بين اليأس والأمل ، بين الضجر من الحياة والتحايل من أجل استمرارها ، بين التمسك بها واستنفاد فرصها والاستفادة من احتمالاتها المتعددة .

وعلى الرغم من البساطة الظاهرة في بنية « المرتجى والمؤجل » إلا أن القارىء ما يلبث أن يكتشف أن هذه البنية أكثر تعقيدا مما تبدو لأول وهلة ، إذ يقدم غائب شخصياته الروائية ، التي تتحدث وتتواجه وتتحاور وتسكر وتتعارك مثرية أحداث الرواية ، عبر ثلاثة من أشكال السرد الروائي ، الأول هو قصة الفيلم الذي يرويه ثابت حسين لابنه ، وهو يشكل جزءا مهما من بناء الرواية ، والثاني هو تلك الاعترافات المكتوبة بخط يحيى سليم التي يتركها لدى صديقه ثابت حسين ليقرأها ، وتشكل هذه الاعترافات المكتوبة جزءا آخر ليس بالضرورة مكملا للجزء الأول ، لكنه جزء أساسي من البنيان الروائي على أي حال ، أما الشكل الثالث فهو شكل السرد الروائي بضمير الغائب ، وهذه الأشكال الثلاثة تتداخل وتتقاطع وتتضافر لتقيم معمار الرواية ، لكن حتى داخل الشكل الواحد من أشكال السرد المذكورة هناك مستويات للقص ، ففي مستهل الرواية نبدأ مع ضمير المتكلم : « أحدثك يا حسان عن أناس من بلادك ، رحلوا طلبا للعلم أو للرزق أو هروبا من ظروف قاسية ، وقالوا ما هي إلا أعوام ، ونعود موفوري الصحة والعلم . ولكن الغربة استطالت ، فراحوا ينسجون على منوالها قصصا لهم وحكايات ، واقعين في حبائل الانتظار » . وينتهي الفصل الأول والراوي هو المتكلم الذي لا نعرف هويته ولا هوية ابنه . وفي الفصل الثاني يتحول المتكلم نفسه إلى موضوع الرواية ، لكنه هنا أيضا مجرد رجل بلا اسم ، يروى لابنه الذي نعرف أنه مريض جاء للعلاج في هذه المدينة المجهولة الاسم قصة فلم تدور أحداثه حول يحيى سليم وأصدقائه

« الخرفان » ، ولا نعرف أسم الرجل ، ونكتشف علاقاته ولا نتعرف على أصدقائه « الخرفان » إلا في الفصل الثالث من الرواية . على هذا النحو من التدرج العفوي تتبدى لنا الشخوص والأحداث لتتضافر بعد ذلك أشكال السرد الأخرى في نسج أحداث الرواية حتى نهايتها .

الأصدقاء المرايا

عبر أشكال القص العديدة هذه تبدو الصورة المركبة للعلاقة بين يحيى سليم وثابت حسين هيكلا للرواية تتمحور حوله الأحداث ، وتتحرك الشخوص ، وتقيم علاقاتها وحواراتها . فيحيى وثابت الصديقان الحميمان القديمان مرآتان لبعضهما بعضا، كل منهما مرآة للآخر، لكنهما مثل غيرهما من الأصدقاء المرايا ، يكشفان لبعضهما بعضا أعماق نفسيهما ، ليبدو الواحد منهما أمام الآخر عريانا يحاول أن يغطي عريه بكلمات جميلة منمقة ، لكن دون جدوى ، وكلما أمعن أحدهما النظر في الآخر وجد ذاته هناك في أعماق صديقه ، ولا يتوقف إمعان النظر ، وتستمر الصداقة التي يقدمها غائب على أنها في أحد وجوهها نوع من التنافس الخفي ، وربما نوع حميم من الكراهية التي تتبدى كلما احتدم النقاش بين الصديقين الغريبين .

ففي مستهل الرواية يعمد ثابت إلى رواية قصة فلم لابنه الراقد على سرير المرض ، ليبعث فيه الاهتمام بالحياة بتفاصيلها الصغيرة ، لتنشيط فكره وذاكرته ، فيجد نفسه يتلو على ابنه قصة صديقه يحيى سليم مع مطلقته التي احتفظت بابنهما ، فنشأ الطفل وهو لا يعرف والده ، وعندما يلتقي الاثنان يخاطبه ابنه على أنه عمه وليس أباه . وبروايته تلك لقصة الفلم انما كان يروي حلقة من مسلسل فشل صديقه المغترب يحيى سليم ، وهذا ما يؤلم الأخير ، فيقول حين يعلم أن صديقه القديم قد حكى قصته لابنه المريض .

« كأنك موكل دائما بنشر هزائمي .

قال ثابت متراجعا :

في البداية أردت أن أقص عليه حكايات الذين استطابوا الحياة في الغربة ، ثم وجدت نفسي أنفرد بأخبارك وجملتك بطل فيلم .

لم يبد الغضب أو الضيق على يحيى ، لكنه ضحك ضحكة مهشمة ، وهم أن يقول شيئا ، إذ حرك صدره إلى الأمام ثم ارتد في اللحظة التالية ، واتكأ على المقعد كالمنهار قائلا :

لم تجد شيئا آخر مسليا تقصه عليه ؟ »

هذا المشهد الذي يفجر السكون الذي تكلس بفعل الغربة تحت السطح الوديع ليحيى سليم هو واحد من سلسلة من المواجهات الكاشفة التي تنشأ وكأنما بتدبير قدري لتقول ليحيى سليم كم هو فاشل ، وتقنعه بأنه كان دائما كذلك ، لكن هذا الفشل الذي يمكن ليحيى سليم السيطرة عليه واحتواءه بينه وبين نفسه ، يتحول إلى فعل مفضوح عندما يكون ثابت حسين هناك . ومع ذلك فإن يحيى سليم يجد نفسه مساقا وكأنما بقوة قدرية إلى ثابت حسين مرة بعد أخرى ، ليرى نفسه المشروخة في وجه صديقه الذي تحول إلى قرين له منذ ذلك اليوم الذي لا ينسى ، يوم تعاركهما الذي هو نفس يوم ارتباطهما بتلك الصداقة الطويلة المضنية التي تحمل في ثناياها الاطمئنان والحب والإعجاب ، كما تحمل النفور والغيرة والحسد ، وربما نوعا من الكراهية الخفية التي تتيه في شبكة الخيوط المتداخلة لتلك العلاقة المعقدة ، وهو يوم يذكره أيضا ثابت حسين في إحدى ليالي سهاده في المدينة الحجرية ، فيبتسم حين يذكر « يوم أن تشاجر مع يحيى سليم . كانت هذه الصورة راسخة في ذهنه كلما استعاد صفحات من طفولته الباهتة ، في ليالي سهاده ، صورة فتى نحيل متوسط القامة ، له عادة إحوال عينيه عند الغضب ، وفي الظروف الحرجة ، ولم تكن هيئته توحي بأنه معارك : احديداب خفيف في الظهر ، تقوس ملحوظ في الذراعين ، وذلك الحول في ساعة الغضب والشدة » .

ينفر الطفل يحيى من ثابت ، ويتوعد بعراكه ، أما ثابت فقد كان مجبرا على الدخول في تلك المعركة

التي لم يخترها . وبعد الدرس الأخير تقابل الخصمان الصغيران بين رهط من التلاميذ الذين تحلقوا حولهما . «كان يحيى سليم يسير في جانب من الطريق ، وثابت حسين في الجانب الآخر . نزل الأول من الرصيف . ونزل الثاني . تقدم هذا وتقدم ذاك . وعندما كانا على بعد خطوتين رأى ثابت عيني صاحبه تحولان ، فعرف أنه في غاية الغضب . وحصل ضرب طائش عجول غير موفق ، بعضه كالرقص في الهواء . ولم ينته إلا بعد أن أنهك الطرفان وتوقفا عن القتال من تلقاء نفسيهما يأسا من محاجزة الأنصار لهما . وأسفرت المعركة عن خدوش وكدمات ، دون أن يشعر أحدهما أنه أشفى غليله من صاحبه . والغريب أنهما صارا ، بعد هذا الحادث ، صديقين قريبين» .

الكراهية الحميمة

إن غائب يقول هنا إن صداقة ثابت ويحيى منذ ذلك اليوم الفاصل ، وحتى أيام اللقاء في الغربة كانت استمرارا للمعركة التي لم يكن فيها منتصر بينهما ، والتي لم يشف أي منهما غليله من صاحبه خلالها . إنها استمرار للصراع الخفي ، غير المسبب ، وغير المبرر بين يحيى وثابت ، لكنه اتخذ شكل الصداقة اللدودة ، أو الكراهية الحميمة بين الاثنين ، صداقة اندلعت بين يحيى وثابت بعد أن فشلا في إنهاء معركتهما الجسدية بانتصار أحدهما . وحين يبدأ ثابت قراءة أوراق كان قد تركها عنده يحيى سليم يفاجئه العنوان الذي كتب بخط يد صديقه «الفروسية المهزومة» ، وبعد تردد يقرأ ثابت «إيه أيها الشبح الذي يطاردني» . ويسترسل ثابت في ذكرياته القديمة ، ويتذكر صاحبه وهو يقول له : «هل قرأت قصة اسمها الشبيه لديستوفسكي ؟ اقرأها ، وستفهم ، الأصل والشبيه كلاهما تتلاطمه أمواج السياسة . فآثر أحدهما البقاء في العراق ، ورمت الآخر إحدى الأمواج العاتية ، فألقته خارج الوطن ، يتلمس موردا للرزق» . ويتساءل ثابت : «ما هذه ؟ قصة أم اعترافات ؟ أم زفرة كانت مخنوقة في الصدر ، لم يجد صاحبها بدا من أن ينفثها وإلا خنقته فروسيته ، ولا فرق أن تكون مهزومة أو موهومة» . وخلال قراءته للأوراق يكتشف ثابت أنها بالفعل زفرات تحكي قصص فشل يحيى التي لم تنته . فشل في العمل ، وفشل في اللعب ، وفشل في الحصول على امرأة ، وفشل في الخطبة ، وفشل في الزواج ، وفشل في الحب ، ثم فشل يصل حدود العبث عندما يتعرف على امرأة ويدعوها إلى مطعم ، فتفشل المرأة في التآلف مع المكان ، وتسرف في الشراب قبل أن تعلن له أن هذا المطعم هو المكان الذي أقيمت فيه حفلة الزفاف مع زوجها الراحل .

فشل الغربة

لكن فشل يحيى الأكبر هو في الاستسلام لفكرة الغربة ، وفي رفض أن يكون لحياته مردود ، فهو في النهاية رجل بلا تاريخ ، بعكس ثابت الذي يستند إلى تاريخ ، والذي يحاول أن يقنع يحيى أن «لا تاريخ يمكن أن يكتب خارج الوطن» . هذا النوع من الفشل هو الذي يخشاه يحيى . وحين لا يجد غضاضة في ذكر قصص فشله في أوراقه أو في أحاديثه العابرة على المقهى أو على الهاتف مع ثابت فإن فشل الغربة هو الذي يحول الحوار إلى مواجهة بين الصديقين القديمين والتي يعلن فيها ثابت أنه «ضد المشاريع الطويلة خارج الوطن» ، ويطالبه بأن «يكون لحياته مردودها» ، ويزداد الحول في عيني صديقه لينفجر قائلا :

«كنت أبغض أولئك الذين يشعرونني بأنهم متفوقون علي ، وأنت كنت تبدو كذلك . كنت متفوقا علي بسهومك الطويل ، بصمتك القاتل ، وحتى بضعفك الجسدي الذي كنت تبدو وكأنك تتحدى به إنسانا عملاقا مثلي ، بينما تربيت أنا كإنسان مؤهل لأن يقوم بمعجزات . . لم تبق لي علاقة بها إلا في الانتظار» .

غير أن فشل يحيى ما هو إلا الوجه الآخر لفشل ثابت ، وإن كان فشل يحيى أكثر صخبا ، فإن فشل

ثابت أكثر إيلاما ، وأكثر غورا في داخله ، وأكثر التصاقا به ، وهو فشل لا يوجهه بعصبية موتورة إلى صديقه ، كما يفعل يحيى ، بل يأتي على شكل حوار داخلي ، ومناجاة وهمس حزين للنفس ، فثابت الذي فشل في السياسة ، وخرج من تجربته السياسية مدمى القلب والفؤاد ، ملقى في ركن قطار سائر للموت ، يكتفي بأن يكون له من هذه التجربة تاريخ ، وحين يخلو إلى نفسه بعد إحدى المواجهات مع صديقه ومرآته يحيى يكتشف أن حياته لا تقل خواء وفشلا عن حياة صديقه ، فيقول لنفسه : لا ، لا تسرف في إدانتك لصديقك ، ولتصويره بالصورة المعاكسة لك ، فتثبت بذلك صحة نظريته في الأصل والشبيه (اينّا الأصل وايّنا الشبيه ؟) ، تلك هي المشكلة . تعظه بأن يكون لحياته مردود . وأنت هل لحياتك مردود؟ . وفي إحدى المواجهات يصرخ ثابت لصديقه : « ليس هناك شيء مضمون غير أن تشرق الشمس كل صباح » ليصل الفشل لدى ثابت إلى لحظة عدمية ، ربما لم يصل إلى مثلها يحيى سليم ، وفي حوار مع ابنه الراقد طريح الفراش يقول له : « جدك سماني ثابتا ، على أمل أن أكون ثابتا في حياتي ، وقد حاولت منذ أن وعيت على نفسي ، ولا أعرف هل وفقت في ذلك أم لا . ولكن هذه المحاولة كلفتني كثيرا » . فهل هناك أكبر من فشل يحيى سوى فشل صديقه وغريمه ثابت ؟

المشاريع المؤجلة

وتمضي المواجهة بين الاثنين ، لتستهلك فصول الرواية ، وينجح يحيى في واحدة من تجاربه ، وهي ـ للمفارقة ـ تجربة مواجهة الموت ، حيث يموت والد زوج إحدى صديقاته ، فيضطر إلى الذهاب معها لتجهيز الميت ، ويفعل ذلك بنجاح تقريبي كما يقول لنفسه متذكرا صديقه الحاضر أبدا ، أما ثابت فيخبره « البروفسور » المشرف على علاج ابنه أن باستطاعته العودة إلى وطنه مطمئنا وإلى أنه سيعيش ما كتب له من العمر . ويغادر ثابت المدينة الحجرية ، ويبقى فيها يحيى الذي يقول بأسى : « سأفتقده ، سأفتقده . . سيسافر » ويقرر ألا يفعل شيئا ، بل أن ينام حتى ما بعد الصباح ، مثل صالح جميل وبقية أصدقاء الغربة أو الخرفان الذين تركهم ثابت أفلاكا تدور حول نفسها . ويقول يحيى : « من موقعه هناك يستطيع أن يفعل شيئا ، أما هنا فماذا أستطيع أن أفعل ؟ كلنا مشاريع مؤجلة » .

« المرتجى والمؤجل » رواية عن الغربة ، رواية حنين ، والحنين هنا هو ذلك الشعور الغامض الذي يجمع الحزن والأسى والفرح والحنان والرضا المستسلم لقدر الغربة الذي لا مرد له ، ومكونات الحنين هذه هي في الوقت نفسه مكونات هذه الرواية التي لا مبالغة في القول بأنها واحدة من أجمل روايات الحنين .□

□ احذر من تأمن ، فإنك حذر ممن تخاف .

(الجاحظ)

□ الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهبه فى القلوب ، كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه .

(مصطفى كامل)

□ لايمكن لقوة تحت الارض أن تستعبد عقل الانسان وروحه .

(محمد على جنة)


مصطفى كامل



بقلم : الدكتور عبد الستار ابراهيم

يتسم عصرنا الراهن بعدد من الظواهر التي لها تأثيرها الواضح على الصحة النفسية للإنسان ، فالانتقال السريع من وضع إلى آخر بتأثير التقدم التقني الهائل وتطبيقاته ، وعوامل أخرى أدى ببعض البشر إلى الاضطراب النفسي الذي وصل إلى حد المرض . ومن الشائع أن حالات القلق هي نتاج هذا العصر وحده ، مع أنها كانت شائعة منذ فجر التاريخ حتى الآن .

يحلو لكثير من الفلاسفة والشعراء والأدباء أن يصفوا عصرنا هذا بأنه عصر القلق ، لكن الحقائق التاريخية تبين لنا أن القلق شعور قد عرفه الأقدمون كما عرفناه . كذلك اختبر الأقدمون المخاوف المرضية وعانوا منها كما نعاني نحن .

فمفهوم القلق إذن ليس شيئا جديدا من صنع علماء النفس المعاصرين . وما يرتبط بالقلق من مفاهيم كالجزع والخوف والهم والتوجس أشياء سادت أفكار الناس ، وسيطرت على مشاعرهم ، في مختلف عصورهم الحضارية . وحاولوا ـ مثلنا ـ أن يفسروها وأن يجدوا طرقاً لعلاجها . ويؤكد لنا علماء التاريخ أن الكتابات الهيروغليفية التي تركها

المصريون القدامى قد أشارت إلى القلق وشرحته . وأن فكرة الخلود التي ملكت عقول الفراعنة ودفعتهم لبناء الأهرامات والمعابد المهيبة قد قامت على هذا الشعور الأبدى بالقلق من الموت والخوف من الفناء .

وفي العصور الوسطى كان القلق

وفي العصور الوسطى نجد الفيلسوف العربي علاء بن حزم القرطبي يؤكد أن القلق حقيقة أبدية ، ويعامله - كعلماء النفس المعاصرين - على أنه شرط أساسي من شروط الوجود الإنساني . ويبدو أن العرب لم يكتفوا بوصف القلق وشرحه ، بل اهتموا أيضا بعلاجه .

وقد تفوق الطبيب الفيلسوف « ابن سينا » على غيره من الأطباء في الشرق والغرب عندما تنبه إلى ما يتركه القلق والانفعالات على الجسم ووظائفه من تغيرات .

ولفخر الدين الرازي محاولات مماثلة لتعريف القلق ووصفه وما يتركه من آثار على النفس والسلوك ، ضمنها في كثير من كتبه ، خاصة كتابه المعروف « المباحث الشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات » .

وفي سنة ١٦٢١ م صدر كتاب « تحليل الحداد » لبيرتون في أوروبا وفيه تحدث عن القلق بإسهاب ، ووصفه كما يصفه علماء النفس المرضى المعاصرون من حيث ما يتركه من آثار على النفس والبدن

كذلك يكشف لنا تاريخ الطب النفسي عن حقائق تبين أن القلق لم يميز بين العظماء والصعاليك . وهناك ما يثبت أن حياة كثير من العظماء والمشاهير لم تنج من مشاعر القلق وضراوته . فالقيصر « أغسطس » كان يجزع من الظلام ، ولم يكن يجرؤ على البقاء في مكان مظلم بمفرده .

الصفوة المعاصرة والقلق

ويسجل لنا رونالد فييف ، وهو طبيب نفسي معاصر معروف ، بسبب اكتشافه لعقار (الليثيوم) المعروف بتأثيره الايجابي في علاج حالات التقلب الانفعالي ، أن الرئيس الأمريكي « تيودور روزفلت » كان فضلا عن إصابته بمرض الهوس والاكتئاب يعاني من حالات شديدة من القلق ، فكان لا ينام إلا لماما ، ويغرق نفسه في اتصالات هاتفية دائمة ، وكتابات تافهة مستمرة . كان يبدو أنها محاولة منه لتجنب مشاعر القلق الحادة والاكتئاب الداخلي المتأصل فيه منذ الصبا .

والكاتب الايطالي « ماتروني » كان يخاف أن يغادر منزله بمفرده خوفا من الإغماء ، ولهذا كان يحمل معه زجاجة « خل » صغيرة ، يتنقل بها إذا ما كانت هناك ضرورة لخروجه . ومن المعروف عن الشاعر العربي « ابن الرومي » أنه كان مسرفا في تشاؤمه وتخوفه لدرجة المرض ، وأنه كان يرفض أن يخرج من داره إذا ما تلمس أي علامة من علامات التطير . ويصف لنا طه حسين أن أبا العلاء المعري قد سجن نفسه في منزله هروبا من الناس ، لدرجة أنه لقب برهين المحبسين : العمى البصري ، والخوف من الناس .

ومن الغريب أن « سجموند فرويد » الذي يعتبر من أكثر العلماء اهتماما بوصف القلق وعلاجه ، قد عاني أيضا من أعراض القلق ، بما في ذلك الخوف الشديد من السفر عندما كان في الثلاثينيات .

والخلاصة أن القلق يمكن أن نراه كما كان يراه الفيلسوف العربي « ابن حزم » على أنه حقيقة أبدية ، وأنه حدث ويحدث في مختلف الأوقات والعصور ، ويصيب الناس على مختلف ألوانهم ومذاهبهم .

الوضع المعاصر للقلق :

تتفاوت المجتمعات الإنسانية المعاصرة فيما بينها من حيث درجة التصنيع والتمدن . وهناك زعم يشيع بين بعض علماء الاجتماع ، يرى أن المجتمعات الصناعية أكثر استهدافا للقلق والاضطرابات الانفعالية من المجتمعات النامية ، بسبب ما يثيره التقدم الحضاري من ضغوط نفسية .

إن نتائج البحوث التي أجراها العلماء الغربيون ، ونتائج البحوث في الأقطار العربية تتناقض مع الزعم الشائع بأن القلق ظاهرة تخص المجتمعات

الصناعية .

وتعد دراسة العالم الانجليزي الامريكي المعروف « كاتل » وزملائه من أهم الدراسات التي أجريت لمقارنة مستويات القلق بين ستة مجتمعات إنسانية ، تتفاوت فيما بينها ، من حيث مستوى التحضر والتقدم الصناعي ، هي : الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا وبولندا والهند .

لقد كان من المتوقع أن يصل مستوى القلق في المجتمعات الأنجلو امريكية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا إلى أعلى درجاته ، وذلك انطلاقا من التصور التقليدي بأن المجتمعات الغربية تتميز بالتنافس ، والنشاط الشديد ، والايقاع السريع ، وبالتالي تعمل على إثارة القلق والتوتر ، إلا أن النتائج سارت على عكس هذا التوقع ، وترتبت المجتمعات الستة من حيث ارتفاع مستوى القلق على النحو الآتي : بولندا ـ الهند ـ ايطاليا ـ فرنسا ـ بريطانيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية . أي أن بولندا كانت من أكثر المجتمعات الستة ارتفاعا في مستوى القلق ، والولايات المتحدة من أقلها ، ولهذا نجد أن « كاتل » ينصح بأن ننظر للقلق والعصابية على أنهما :

١ ـ يتزايدان في المجتمعات النامية ، والمجتمعات الفقيرة أكثر من المجتمعات المتقدمة ، بسبب الضغوط التي تخلقها ظروف التكيف لواقع اقتصادي قاس .

٢ ـ ان المجتمعات التي تتجه فيها النظم الاجتماعية والسياسية نحو التسلط ، تعمل على كف تلقائية الأفراد ، وتحد من نموهم النفسي والفردي ، ويصحب ذلك شيوع في المظاهر العصابية والتوتر النفسي والقلق .

٣ ـ يتزايد القلق في المجتمعات التي يتجه أفرادها نحو الخضوع الشديد والمجاراة ، ويتضاءل في المجتمعات التي تشجع على المناقشة والتعبير الحر .

ونعتقد ـ من جانبنا ـ أن هذه التفسيرات صحيحة بناء على ما تجمع لنا من نتائج في دراسة الشخصية في المجتمعات العربية .

المجتمعات العربية والقلق

تعد المجتمعات العربية في عرف أهل السياسة والاجتماع من المجتمعات النامية ، أي المجتمعات التي لم تبلغ بعد شأن المجتمعات الغربية من حيث التقدم المادي الصناعي والتعقد الحضاري . وقد أشرنا إلى أن البعض قد يظن نتيجة لهذا بأن القلق والاضطراب النفسي لا يشيع في الأقطار العربية بكثرة ، لبساطة هذه المجتمعات من ناحية ، ولأنها ليست في مستوى التعقد الحضاري الغربي من ناحية أخرى . ولقد قمت شخصياً ـ خلال الزيارات المتعددة لكثير من أقطار الوطن العربي ـ بإجراء عدد من الدراسات عن شيوع القلق في مصر ، والسعودية ، وليبيا ، والكويت . وقد أمكن لنا خلال هذه الدراسات من الإجابة عن عدد متنوع من الأسئلة في هذا الموضوع منها :

ـ هل نحن فعلا أقل قلقا ، وأقل تعرضا للاضطرابات النفسية المرتبطة بالقلق ؟

ـ ما هي أنواع القلق الشائعة بيننا ؟ وما هي مصادر الاضطراب فينا ؟

ـ ما هي جوانب التشابه والاختلاف بيننا وبين غيرنا من المجتمعات الأخرى فيما يتعلق بمظاهر القلق وأشكاله ؟

وكانت نتائج هذه الدراسات في المجتمعات العربية كما يلي :

في مصر ـ مثلا ـ تبين لنا في دراسة أجريناها على ثلاث مجموعات من الطلاب في أمريكا وبريطانيا ومصر أن نسبة القلق ومستويات العصاب تزداد بين المصريين ، يتلوهم الامريكيون ، ثم الانجليز . بعبارة أخرى عبر أفراد العينة المصرية أكثر من أفراد العينتين الإنجليزية والأمريكية عن علامات دالة على التقلب الانفعالي ، والتطرف والانزعاج ، فضلا عن تزايد المشكلات المرتبطة بصعوبات في النوم ، والمعاناة من الأرق ، وخفقان القلب ، والتنميل ، والآلام العضلية . وكلها مظاهر يراها العلماء معبرة عن القلق وتميز المتسمين بالعصاب . ؟

وإذا كان القلق في الدول الغربية يأخذ شكل

الصراع الداخلي والتعبير عن مشاعر الضغط ، والهروب إلى العقاقير والخمور ، والعجز عن الحسم والتوجس،فانه يظهر لدى المصريين ـ كما تبين دراسة اخرى ـ بصورة مختلفة : شكاوى جسمية ، وآلام في المفاصل ، وآلام في الظهر ، وخفقان القلب ، وتعب سريع ، وتنميل ، وضيق « النفس » .

ان الشخص القلق في مصر عادة ما يشكو ـ من الآلام والمظاهر الجسمية المرتبطة بالقلق . ويوضح لنا « راك » أن الشكاوى الجسمية تكون هي الطابع الغالب على المرضى بالاكتئاب والقلق في المجتمعات النامية كالهند والباكستان وجنوب شرقي آسيا . ونتائج دراستنا المصرية تؤيد ذلك ، وتثبت أن المصرى بسبب عدم اتاحة الخدمات النفسية من جهة ، والخجل من التعبير عن الاضطراب النفسي من جهة أخرى ، سيتجنب الشكاوى ذات الطابع النفسي المرتبطة بالقلق مثل الخوف والذنب والتوجس ، وسيكتفي بالتعبير عن الألم الجسماني بمظاهره المختلفة .

وإذا صح ما يقال من أن المخاوف العصابية تنتشر بنسبة تتراوح بين ٣٠٪ و٣٥٪ من أفراد المجتمع في الدول الصناعية ، فإن دراساتناتبين أن انتشاره في المجتمعات العربية يصل إلى نفس النسبة ، أو أعلى من ذلك بكثير في بعض الأعراض المحددة . ويتأكد ذلك في دراسة قمنا بها في ليبيا عن انتشار مظاهر القلق الاجتماعي في عدم الثقة بالنفس في مواجهة الآخرين ، أو الخوف من التعبير عن الانفعالات والحاجات النفسية عند التعامل مع أفراد المجتمع والأسرة ، فتبين لنا أن ما يقرب من ٥٢٪ من أفراد العينة الليبية عبروا عن مشكلات متعلقة بانخفاض الثقة بالنفس ، وتأكيد الذات .

التغيرات الاجتماعية والقلق

أما في المملكة العربية السعودية فإن النتائج التي توصلت إليها كانت بالتعاون مع « الزميل الدكتور عبدالله النافع » وقد اعتمدت على دراسة ٢٨٠ طالبا بجامعة الملك سعود بالرياض . كان هدفنا من هذه الدراسة أن تحدد أنواع المخاوف وحالات القلق والاكتئاب الشائعة بين طلاب هذه الجامعة ، وإلى أي مدى يرتبط ظهور هذه الاضطرابات بالتغيرات الاجتماعية الشديدة التي يمر بها المجتمع السعودي . وتعطي النتائج صورة مماثلة لدراستنا المصرية والليبية : فمن ناحية الاضطرابات الدالة على القلق والعصابية عبر ٥٢٪ من أفراد العينة السعودية عن العجز عن التركيز جيدا في موضوع واحد ، وذكر ٥٣٪ منهم بأنهم يعانون من الخجل ، و ٤٦٪ قالوا إن من الصعب عليهم المحافظة على الانتباه لموضوع واحد دون التجول الفكري والسرحان ، و ٤٢٪ عانوا من الرعشة والانتفاض عندما استثارهم أحد ، بينما عبر ٣٥٪ عن مخاوف مرضية مرتبطة بالحيوانات ، و ٣٣٪ عن مشكلات ومخاوف متعلقة بالدراسة والمستقبل .

أما من ناحية الاكتئاب ، وهو من أحد الأعراض التي تصاحب في أحيان كثيرة حالات القلق ، فلم تختلف نتائج دراستنا للطلاب السعوديين عن نتائج الدراسات السعودية للمرضى السعوديين التي تبين أن حالات الاكتئاب تفوق مثيلاتها في الغرب . أما بين الطلاب فقد عبرت نسبة مرتفعة منهم عن لوم النفس عندما تسوء الأمور (٦٤٪) ، وأنهم يشعرون بالعجز (٥٢٪) ، وأن شهيتهم للطعام ضعيفة (٤٩٪) ، وأن المجتمع لا يبالي بهم (٤٥٪) ، وأن حياتهم لا تثير اهتمامهم (٤٢٪) ، وأنهم يعانون من صعوبات متعلقة بالنوم (٣٨٪) ، وأنهم فقدوا شعورهم ببهجة الحياة وملذاتها (٣٣٪) .

وفي الكويت درس الباحثون مدى شيوع القلق ، وعدم الاستقرار الانفعالي (غالي، ١٩)،وتبين هذه الدراسات أيضا أن حظ الكويتيين لا يقل عن حظ غيرهم من أفراد المجتمع العربي من حيث شيوع المظاهر الدالة على القلق والتوتر النفسي . وقد ازداد شيوع العصاب بينهم أكثر من الانجليز .

وتكشف المقارنة بين الذكور والإناث في المجتمعات العربية عن نتائج أخرى تثير الاهتمام ،

وتستدعي ضرورة تنبهنا لمصادر الخطر ، ففي كل الدراسات التي قمنا بها تبين دائما أن الإناث أكثر تعرضا للقلق وللتوتر النفسي من الذكور ، كما أنهن أكثر ميلا لتطرف الانفعالات والتقلب الوجداني والاكتئاب من زملائهن الذكور العرب . هذا الارتفاع الملحوظ في مستويات القلق بين الإناث العربيات مقارنة بالذكور العرب وجدناه في دراستنا المصرية والليبية ، ووجده الدكتور غالي في العينات الكويتية ، ووجده « أهلاوات » في الأردن في مقارنة الأطفال الأردنيين الذكور بالإناث . ونتائجنا العربية في هذا الصدد لا تختلف عن كثير من الدراسات العالمية الأخرى التي بينت أن الإناث دائما يرتفعن عن الذكور في مستويات التوتر النفسي والقلق ، ربما نتيجة للتوتر البيئي والضغط الاجتماعي الشديد على المرأة بسبب الأدوار المختلفة ومتطلبات التوافق لواقع اجتماعي يتعارض مع التلقائية والتعبير عن المشاعر بحرية .

الخلاصة :

إن النتائج تبين في عمومها أن القلق والتوترات النفسية ترتفع في المجتمعات العربية أو تتعادل ـ في أحسن الأحوال ـ مع درجة شيوعها في المجتمعات الصناعية . وتثبت أن هناك أنماطا من القلق تنتشر أكثر من الأنماط الأخرى في المجتمعات العربية .

إن مجتمعاتنا العربية تعيش فيما يبدو في فترة حادة من فترات الشد بين تيارات متعارضة ، يدفع بعضها للمحافظة والتقبل لما هو سائد أو ما كان سائدا من القيم والاتجاهات ، ويدفع بعضها الآخر للتطلع نحو النماذج الحضارية الغربية بتركيزها الشديد على الاستهلاك المادي والثروة . ومن شأن هذا الشد أن يستثير تطلعات متضاربة تثير كثيرا من جوانب القلق وعدم الاستقرار في شخصيات أفراد هذا المجتمع .

ويمكن القول بأن العلاقات الاجتماعية في الأقطار العربية تدفع للخضوع الشديد والمجاراة على المستويات الاجتماعية المختلفة ، بدءا من الأسرة بتشجيعها على التقبل الأعمى لسلطة الأبوين ، والمدرسة بتشجيعها للسلطة المدرسية ، والعمل بتشجيعه على الخضوع للنظام الهرمي الذي يجلس على قمته مدير العمل أو الرئيس ، وانتهاء بالنظم الاجتماعية والسياسة العامة التي تأخذ غالبا وصفا معارضا لحرية التعبير والتلقائية . ومن شأن هذه الضغوط وهذا التسلط أن يستثير كثيرا من جوانب الصراع النفسي والقلق .

ومهما كان السبب فإن من الضروري مواجهة الاضطرابات النفسية وما تشيعه من نتائج سلبية بين الأفراد والنظم الاجتماعية في داخل هذا الوطن .

فمن هذه النتائج يجب أن نقلق ، ومن هذه النتائج يجب أن ننطلق بجدية نحو الإصلاح والتوجيه التربوي والصحي . وقلقنا من هذه النتائج مثال جيد للقلق المحمود الذي يدفع لمواجهة الخطر والتحفز الذكي لما تطرحه الحياة من مشكلات . □


روجيه جارودى

□ العبقرية هى القدرة على تحمل المشاق .

(كارليل)

□ الحرية تنمو فى أحضان العلم ، كما يتسلق النبات الجديد على العصى الخشبية .

(روجيه جارودى)

□ إذا ابتسم المهزوم فقد المنتصر لذة النصر ! (شكسبير)



منتدى العربي

قضية

مأزق الإبداع الأدبي: أو «الروح الأسيرة»

بقلم : غالب هلسا*

كيف يرى الأديب الواقع من حوله ؟ ما العوائق التي قد تزيف رؤ يته ، أو تحد من أن تكون رؤ يته مبدعة ؟ أحد هـذه العوائق مـا يدعـوه الكاتب « الـروح الأسيرة » . فمـاذا يعني بهذا المصـطلح الـذي يستعيره من علم الاجتماع ليشخص به سمة في موقف المبدع ؟.

بين الأديب والواقع حواجز تمنع الرؤ ية أو تحدها . وأعجب العجب أن أيا من علم الجمال ، أو علم النقد لم يطرح هذه المسألة البالغـة الأهمية الا بشكل عابر . علمان آخران طرحاها - وفي سيـاق آخر مختلف - وهمـا علم الاجتماع وعلم النفس .

تتجسد هذه العـوائق التي تقف بين الأديب والواقع في مجموعة من المسائل ، نذكر منها : العلاقات التي يقيمها الأديب بين الواقع والأخلاق ، بين الأدب والفكرة ، بين العمل الفني والسياسة ، وأخيـرا - وهو مـوضوع بحثنـا - اشكاليـة الـروح الأسيرة .

* روائي وناقد عربي من القطر الأردني . . .

الـــروح الأسيرة

« الروح الأسيرة » مصطلح في علم الاجتماع تم اطلاقه على حالة من حالات المثقفين في الشرق عندما يتفاعلون مع الحضارة الغربية . وهي حالة اضطراب وعنانة في الوعي لأنه لم يتم استيعاب الأفكار والرؤى الغربية بشكل جدلي وخلاق ، أي أنه تكوّن انفصام عميق بين الأفكار الواردة بكل بهرجها وبكل الدعم الحضاري الذي يسندها وبين الحياة الواقعية بتخلفها واستنادها الى منظومة متخلفة من القيم .

يصف أحد علماء الاجتماع الــروح الأسيرة بقوله :

« تعتبر الانتقائية ، التوليفية (التلفيقية) وغياب النظرة النقدية الابداعية للوعي ، والاغتراب (أو على الأصح الغربة) عن القضايا الفعلية للمجتمع السمات الرئيسية للروح الأسيرة ، وشكلت هذه الحالة الناجمة عن النقل المتعسف الميكانيكي لأنظمة التعليم الأوروبي ومناهجه الى الواقع الأفرو - آسيوي احدى العقبات الجدية على طريق التطور السليم للمسيرة الثقافية .

سوف نرى في هذا البحث أن تعليل الروح الأسيرة لا يقتصر على التفاعل غير المتكافيء مع المجتمع الغربي ، ونرى أيضاً أن العنانة الابداعية التي يعيشها المبدع العربي تعود أيضا الى تسرب ايديولوجية المجتمع الأبوي الى مجالات لن تتفتح دون الغاء ، أو على الأقل تعقيل هذه الأيديولوجية الكابحة للابداع .

وإذا ما نقلنا مفهوم الروح الأسيرة الى مجال الابداع الأدبي ، وخاصة القصة القصيرة والرواية ، فاننا سنجد الكثير من الأفكار الجديدة التي ستساهم في إغنام المفهوم الوارد في علم الاجتماع .

فكيف يتجلى هذا المفهوم في الابداع الأدبي ؟

ظل لأديب آخر !

بداية كل أديب أن يكون ظلاً لأديب آخر . إن تأثرات دستويفسكي بحوجول استمرت حتى آخر حياته . ولا يقتصر هذا التأثير على استعارة الشكل الأدبي من الأديب المعلم ، ولا على الرؤية ، بل يمتد الى استعارة الشخصيات أو السياق الذي تتدرج فيه الأحداث وتتسلسل .

هذا أمر طبيعي ومفهوم . ولكن ذلك لا يعني أن ذلك الأديب يتسم بامتلاك الروح الأسيرة ، إلا في حالات معينة ستكون موضوع حديثنا .

تبعية الأديب لأديب آخر ضرورة حيوية لتمكين الكاتب الناشيء من امتلاك الشكل الفني . بداية الامتلاك تكون تقليداً أو اتباعا ، يليها مرحلة ابتداع الشكل الفني الخاص بالكاتب نفسه ، يجب ان نشير هنا الى ان استعارة الشكل الفني تشكل حاجزا بين الأديب والواقع . فالحياة لا تمنح نفسها الا عبر اطر ذهنية واخلاقية مشحونة بمجموعة من القيم .

التجاوز الأول للأديب يتم من خلال استعارة الشكل الأدبي من آخرين سبقوه ، فمن خلال عملية الاستعارة هذه تتخلخل أو قد تسقط الأطر القديمة يعود ذلك - في مجال الرواية على الأقل - الى انه منذ نشأة هذا النوع الأدبي وهو يرتبط بمجموعة من القيم والمفاهيم المعارضة ، أو حتى المناقضة للمفاهيم السائدة،كان ذلك يظهر بوضوح سواء في الشكل الروائي أو في مضمونه الفكري .

منذ نشأة الرواية وبناؤها الفني يقوم على افتراض وجود عالمين : عالم ظاهري وعالم سري . وكان العالم السري بقيمه ومفاهيمه هو العالم الحقيقي . كان ذلك ، بالطبع ، تعبيرا عن نشوء البورجوازية الأوروبية في قلب المجتمع الاقطاعي ، اي قيام منظومتين متعارضتين في قلب البلد ، احدهما تحكم والأخرى تحلم بالسلطة .

لهذا ، فمنذ البداية ، والشكل الروائي يحمل مضمونه الفكري والأخلاقي المتجاوز : هنالك قيم سرية حقيقية واخرى ظاهرية زائفة . لهذا يمكن القول ان استعارة الشكل الأدبي هي خطوة اولى نحو النفاذ الى حقيقة الواقع . ولكن الابداع ، بالطبع يفترض ان يمتلك الأديب شكله ورؤيته الخاصتين

به . هنا ، فقط ، يمكننا ان نتحدث عن الأديب المبدع .

من هنا ، ومما تقدم ، نستطيع تعريف الابداع بأنه يبتديء بتقمص الشكل الأدبي ، ورؤية الواقع من خلاله ، ويصبح ابداعا حقيقيا عندما تتكون للأديب رؤيته وشكله الخاصان به ، أي عندما يستطيع تطويع الأشكال المستعارة للتعبير عن الواقع . من هنا نستطيع ان ندرك اهمية ما قاله (فوكنر) من أنه أصبح كاتبا بحق عندما تبين له أنه يستطيع أن يكتب عن قريته ولا يتوقف أبدا .

متى نكتب عن قريتنا ؟

مأزق المبدع العربي أنه لا يستطيع أن يكتب عن قريته ، وأنا هنا أتحدث عن المشرق العربي . مازلنا نستعير الاشكال الابداعية الغربية ومضامينها . وهذا ما سنفصل الحديث عنه بعد قليل بمثال بالغ الوضوح يستند الى رواية « قدر يلهو » للروائي السوري المعروف شكيب الجابري .

كتبت هذه الرواية كتابة اولى عام ١٩٣٨ ، ثم اعاد المؤلف كتابتها في عام ١٩٨٠ ، ولهذا وضع على الغلاف عبارة « صياغة جديدة » وقد اخترنا هذه الرواية ليس لقيمتها الفنية ، وهي قيمة متدنية ، بل لأنها مثال تدليلي فائق الوضوح للروح الأسيرة من الجاهين : اتجاه التكوين النفسي الذي ثبت هذه الروح ، واتجاه « النقل الميكانيكي المتعسف » للأشكال الأوروبية الغربية . هنا تصبح الروح الأسيرة تكوينا اجتماعيا ـ نفسيا راسخا يصعب تجاوزه أو التخلص منه .

كيف يتعامل الرجل العربي ، وارث تقاليد وقيم المجتمع الأبوي مع المرأة الأوروبية المتحررة ؟

ما يفعله المؤلف هنا هو أن يخلق ـ أو بالأصح يختلق ـ الظروف التي تجعل المرأة الأوروبية امرأة من نساء الحريم .

تبدأ الرواية بلقائه بفتاة المانية في احدى مدن المانيا ، وكانت : « الريح تنفخ قارصة ، ورذاذ المطر يطاير على غير هدى ، ويرشني باسراب من لآلئه الندية . . » يلتقيها فيندفع في ثرثرة عاطفية لا نهائية :

« احب شيء الي أن انطلق في الليل الكبير .
تحت شلالات المطر .
في دوامة الزوابع ،
عبر دهاليز الظلام ،
يقود خطاي فحيح افاعي البرق ،
ويملأ سمعي هزيم معامع الكون الهائج » .

يقول هذا لفتاة « ظهر الكلال على ذراعيها ، فوقعتا بغير حول على جانبيها » . ونكتشف انه مضى على الفتاة ثلاثة ايام لم تنم ، ولم تأكل شيئا ، وان الراوي حين صادفها كانت ذاهبة لتنتحر . الراوي ، اذا انقذها من الموت جوعا ، ومن الموت انتحارا ، ومن التشرد ، فهي لهذا تقول له دون تردد :

ـ « . . انه الواقع . . ألم أقل لك اني قد ولدت من جديد منذ لقيتك ؟ . . منذ لقيتك » .

الواقع أن المؤلف هنا قال أكثر مما ينبغي . أراد القول أن المرأة المتحررة قد ماتت وولدت بدلا منها امرأة الحريم . تلك المرأة التي تدين بحياتها ووجودها نفسه للرجل . فها هي الفتاة تجد من ينقذها من الموت ويطعمها ويؤويها في بيته . فعليها ان تدفع المقابل ، أن تبيع حريتها وروحها له .

والراوي يتصرف ، دون شعور بالذنب أو إدانة من المؤلف . وكأنه يمتلك روح الفتاة . فهي الخادمة التي تعنى ببيته وطعامه ، وهي التي تمنحه جسدها كلما رغب في ذلك ، وعندما يشتهي امرأة اخرى فعليها ان تتسكع في الشوارع حتى ينتهي . وعلى الرغم من هذا كله فهو من تحب طيلة حياتها حتى آخر لحظة . من أجله تقبل اي شيء .

هل هي هذه الفتاة النموذجية التي يفرزها المجتمع الأوروبي ؟ بالطبع لا . اذا من الذي أفرزها ؟

لقد أفرزها المؤلف نفسه ، فهو لم ير اوروبا الحقيقية ، بل رأى قيمه نفسها ،قيم ومفاهيم المجتمع الأبوي . وبهذا تصبح تجربة الحياة في اوروبا اعادة انتاج لمفاهيم شرقية وليست تجربة معاشة .

ومن هنا نستطيع ان نكتشف الجذر الحقيقي لظاهرة الروح الأسيرة . ان مفاهيم وقيم المجتمع الأبوي تقف حائلا بين الأديب ومعرفة الواقع . ولهذا هو لا يصوغ معايشته للواقع بل يصوغ الأفكار التي يحملها عن الواقع ، ويفرضها عليه . هنا يتوقف الابداع حيث تصاب القدرة على فهم واقع جديد وتجارب جديدة بالعنانة . فلا يفعل الأديب شيئا سوى اعادة انتاج مفاهيمه .

أما الجانب الآخر من المسألة فهو استعارة الأشكال الأدبية وتطبيقها بشكل ميكانيكي متعسف ، وهو السمة المثالية للروح الأسيرة . وهذا ما تطرحه علينا هذه الرواية بوضوح .

سيطرة « سيدة الكاميليا » !

تنقطع علاقة الراوي بالفتاة لأسباب غير مقنعة . ولكن الراوي أصبح حلم حياتها . فيما تكاد تنتهي الحرب العالمية حتى تذهب للبحث عنه . كل ما تعرفه عنه انه طبيب في دمشق . فكيف تصل اليه وهي الفتاة الالمانية ذات الروح العملية ؟

انها تذهب الى بيروت لتصبح راقصة ومغنية في احد ملاهيها . تذهب الى بيروت تأكيدا لقولها في قصيدتها التي تبث فيها الراوي حبها : « اني ذهبت ـ واني نظرت ـ فشيء منك يا حبيبي ـ وفي الفؤاد حسرة ـ آه ـ هل من معين ! » .

وبعد مضي سنتين يلتقيها الراوي في الملهى البيروتي ، تتعرف عليه ويتعرف عليها . تكشف له أنها جاءت الى بيروت وعملت في ذلك الملهى حتى تلتقي به . فيتزوجان . ولكن الفتاة مصابة بالسل فتموت في النهاية .

إننا أمام اسئلة لن تستطيع الرواية وحدها ان تجيب عليها . فهل اضمن الوسائل للاتصال بطبيب في دمشق ان ترقص وتغني الفتاة في احد ملاهي بيروت لمدة سنتين ؟

إن الرواية لا تقول لنا ، لماذا لم تذهب الفتاة رأسا الى دمشق ، وتتصل بالطبيب ؟ هناك وسائل عديدة ومضمونة للوصول اليه : الاستعانة بدليل الهاتف ، سؤال نقابة الأطباء او وزارة الصحة عنه ، الدخول الى عيادة اي طبيب وسؤاله عنه الخ . . فلماذا لم تلجأ الى هذه الوسائل ؟

ثم ما الذي جعل الطبيب يتزوجها وهي مصابة بالسل ، وعلى شفا الموت ، في حين انه رفض الزواج بها وهي صحيحة معافاة ؟

لن نجد في الرواية نفسها اجوبة على هذه الاسئلة . الاجابة نجدها في رواية اخرى . نعني بها رواية « سيدة الكاميليا » لالكساندر دوماس (الصغير) . الحكاية فيها ان فتى من عائلة ارستقراطية احب محظية ، وعاش معها ، فاعترضت عائلته بقوة . كما شعرت المرأة بورطته وبأن علاقتها به سوف تسيء الى مستقبله ، فتتظاهر انها تحب رجلا آخر . في النهاية يوافق اهله على زواجه بها ، ويذهب هو ووالده الى بيتها ليعلنا النبأ ، فيكتشف انها ، ـ بسبب اصابتها بالسل ـ تعيش آخر لحظات حياتها .

ان سيطرة هذا النموذج من الرواية على الأدب العربي جعلتها مثلا يحتذى . من هذا فقط نستطيع الاجابة على الاسئلة التي طرحناها منذ قليل . فلماذا اختارت المرأة ان ترى حبيبها من خلال عملها في ملاهي بيروت ؟

السبب يعود الى ان النموذج العربي للفتاة التي تحب شابا ، وتموت من اجله تكون عادة راقصة في ملهى ليلي . لهذا السبب تم اختلاق العمل في الملهى كوسيلة للاتصال بحبيبها .

أما عن السبب الذي جعل الراوي يتزوجها وهي محكوم عليها بالموت فهو اعادة انتاج للفتاة ، كما تظهر في الافلام المصرية التي تضحي بنفسها من اجل مستقبل حبيبها .

وبكلمة مختصرة ان منطق هذا الجزء الأخير من الرواية يجب ان يحال الى النسخة العربية من « سيدة الكاميليا » حتى يتسنى لنا فهمه . اي ان الشكل الفني ومضمونه هو الذي يعيد انتاج الواقع ، لا العكس ، ويصبح مصير الشخصيات ، وتكوينها النفسي والاجتماعي ، وكذلك منطق الأحداث محدداً بالشكل

والقيم والمفاهيم المستعارة .

هل نستطيع اقامة علاقة منطقية بين محاولة الكاتب اعادة صياغة المجتمع الاوروبي وفقا لمفاهيم المجتمع الأبوي ، وبين اعادة صياغة المجتمع العربي وفقا لقيم شكل اجنبي مستعار ؟

إن الربط بين الموقفين يتم حين نتأمل في علاقة الشكل الاجنبي بالرواية ، لقد وضع المؤلف ايلزا ـ منذ لقائه الأول معها ، في سياق النص العربي لسيدة الكاميليا ، وهي ترجمة المنفلوطي لها تحت عنوان « العبرات » جاء في الرواية :

« حين بلغت ايلزا هذا الحد من حديثها كنت اقلب في خيالي صفحات للمنفلوطي . . »

ان وضع الفتاة منذ اللحظة الأولى في اطار « العبرات » أنبأ ، كما اتضح فيما بعد ، بأن هنالك سلطة تتحكم في رؤية الكاتب ، وتفرض عليه طاعتها ، الى حد الغاء الواقع الخارجي . ان هذه الرؤية المتصلبة ، الطاغية ، هي سلطة المجتمع الأبوي . ان تجاوز هذه السلطة لا يعني الضياع فقط ، بل يعني ايضا اثارة مشاعر القلق والخوف والاحباط الخ . .

ان الشكل المستعار يأخذ بالنسبة للمبدع العربي ، خاصة في المشرق ، طابع السلطة الأبوية . من هنا نستطيع ان نكتشف الجذور الحقيقية للروح الأسيرة .

هنالك سؤال لم نجب عليه بعد ، وهو : ما الذي جعل السلطة الأبوية عائقا للابداع ؟

المومس الفاضلة !

قبل أن اجيب على هذا السؤال اود أن أرد على اعتراض متوقع ، وهو انني اخترت رواية غير ناجحة فنيا ، وحكمت من خلالها على الابداع العربي . اذ هذا ـ كما قد يقول الاعتراض المتوقع ـ يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمي الجاد والمنطقي .

لقد اخترت بالفعل هذه الرواية ، رغم معرفتي بقيمتها الفنية لأنها تشير بوضوح شديد الى القضايا التي طرحتها ، ولكن هذا لا يعني ان الابداع العربي مبرّأ من هذه المعطيات . فمنذ عام ١٩٢٧ كتب يحيى حقي يشكو من طغيان المومس الفاضلة على القصة والرواية في عصره ، وتساءل : ألا توجد نماذج نسائية اخرى في مجتمعنا ؟ وكبر دور المومس الفاضلة في ادبنا وفي افلامنا حتى كاد ان يلغي كل النساء الأخريات ، أو يهمشهن على أقل تقدير .

ويصح القول نفسه حتى على كبار روائيينا . فرواية نجيب محفوظ « اللص والكلاب » تقوم على علاقة اللص الشريف بالمومس الفاضلة . وهما شخصيتان مستعارتان من الأدب الغربي . كما ان حنامينه لا يقترب من المومس في أدبه حتى يرفعها الى مستوى القداسة . هذه امثلة قليلة ، يمكن التوسع فيها كثيرا ، ولكنها تثبت اننا لم نختر رواية تشكل شذوذا عن القاعدة .

نعود الآن لسؤالنا حول السبب الذي جعل سلطة المجتمع الأبوي عائقا عن الابداع . الرواية خاصة ، ومنذ نشأتها الأولى ، كانت نتاج بزوغ الفرد . والفرد ، كنمط متمايز عن مطلقات الروح الجمعية ، لم يتشكل تماما في مشرقنا العربي وفي المرات القليلة التي ينشأ فيها نمط انساني متمايز عن الروح الجمعي فإن الأمر ينتهي به الى التصفية الجسدية ، او الروحية .

ولكن علينا ان نحدد العلاقة بين سلطة المجتمع الأبوي ونشوء الفرد .

فمنذ عصر النهضة حتى بداية القرن العشرين نشأت الفردية ثم ألغاها المجتمع الاستهلاكي .

يترافق نشوء الفرد بوعي الانسان بجسده . الأدب الذي يبدعه الانسان المتسم بالفردية يتصف بشعور حاد بالجسد . وأول ما تفعله سلطة المجتمع الأبوي ان تقمع احساس الطفل بجسده ، يبلغ ذلك حداً من القوة ، أن تصبح استعادة الانسان الاحساس بجسده معناها الدخول في حالة هستيرية .

نتوقف هنا حتى لا يطول الحديث طولا مفرطا . ويكفينا هنا أن نقرر أن سلطة المجتمع الأبوي هي التي تقمع قدرة العقل العربي ، والأديب العربي على الابداع . □

قصـــة



أجنحة الروع

بقلم : محمد سمارة

كانت القنابل تأتي الى المدينة كغربان مذعورة ، تنفجر في مكان ما ، فترتفع سحابة غبارية ماتلبث أن تتلاشى ، ولبرهة يعم السكون ، ولم يكن البيت الذي استأجرت إحدى غرفه ـ بعد قصف بيتنا القديم ـ يعرف ضوضاء البيوت الآهلة . فباستثناء الدوي الذي يحدثه انفجار القنابل ، كان البيت صامتا كمغارة ، وكانت غرفه الثلاث تتوزع في حوش دائري قديم ، أسكن أنا إحداها ويسكن صاحب البيت العجوز الاخرى ، أما الثالثة فهي عبارة عن مخزن مهجور . كنت أرى الرجل دائم الحركة في حوش البيت كسلطان مخلوع ، يجلجل بقبقابه الخشبي متفقدا شؤون البيت أو صاعدا الى السطح يرعى مجموعة من الطيور ترفرف في الحوش الصامت . وفي المساء يفاجئني بجلسته المعتادة أمام غرفته التي تحاذي غرفتي ، مفترشا بطانية مطوية بضع طيات ، متسربلا بأخرى ، تتهدل حول كتفين عجفاوين ، حانيا هامته ، مستغرقا بالنظر في كتاب أو يستمع إلى المذياع أو يعبث بشيء ما . وكنت أغادر الى الجبهة وأعود ولايزال الرجل يتحرك نافخا من سيجارته قبضة دخانية كثيفة مغمغما بشيء ما ، أنا وهو دائما كائنان متوحدان ، ولم يكن ثمة مايربطنا غير التحية المقتضبة . لكن ثمة ما كنت أهجسه في عينيه وهو يرقبني من طرف خفي ، فأقرأ في وجهه رغبة دفينة لمحادثتي .

قلت له ذات مساء : أنا ضجر ، أود أن أتجاذب معك أطراف الحديث ، تهلل وجه الرجل ، وحاول

أن ينهض لمصافحتي قال : على الرحب والسعة ، اجلس . شيء رائع أن أتحدث الى رجل أشم في ثيابه رائحة البارود .

وضحك عن أسنان صدئة وأردف : مع أنه يدخل في رئتي كل يوم .

قلت : هل تعني البارود ؟

ـ آه . . ومن سواه ؟ أما القنابل فيا للمضحك ، ثلاث قنابل سقطت قرب المستشفى التعليمي وأخرى قرب مدرسة الزبير دون أن تنفجر ، لو كنت هناك لرفستها بقدمي كخفافيش عمياء ، أحيانا أتساءل وأنا أراها تأتي في المساء مضيئة كعين فسفورية : ترى ما الذي تقوله هذه الكتلة الحديدية اللعينة ؟

ذات يوم قرأت قصيدة عن قنبلة تتحدث مع نفسها وهي تثقب صدر الريح وقلت : أحقا أن القنابل تتحدث ؟ يا للعجب ! كيف استطاع خيال الشاعر أن يجمح كفرس ، ويصنع هذا العالم الغريب ؟ فحين اقرأ قصيدة جميلة يخيل الي أن صاحبها أمسك الفرشاة ـ لا القلم ـ ورسم لوحة فيها دهشة وانبهار كخيط من الضوء . إنه الضوء الذي يسقط على الغابة الموحشة ، فيضيء بقعة صغيرة هي أقرب الى الفيروز فأقول هو ضوء الروح لا غير .

وتمنيت أن أكتب شعرا . وقلت ما الذي يملكه الشعراء غير بياض الروح الباهر ؟ وعندما أمسكت القلم ارتعشت الاصابع وسقط القلم فبكيت .

أحنى الرجل رأسا متعبة وتخيلته ينكمش تحت الغطاء ويختفي . قلت :

ـ وهل يهمك أن تكون شاعرا ؟

ـ ليس تماما . ربما هي حالة من الانبهار الوقتي ، لكن لماذا ارتعشت الاصابع في الوقت الذي استسلمت الافكار لرأسي ، إن الافكار تأتي هادئة كصبية خجول ، تطرق الباب فإن لم تجد من يشرع لها الابواب ، ولت هاربة . فهل تطرق الباب ثانية ؟

أدركت أني أمام رجل يزدحم بالافكار ، لم أدر بم اجيب ، غير أني قلت :

ـ لكنك في صحة جيدة ، أراك تتحرك في حوش البيت كغزال بري .

اغتصب ابتسامة باردة :

ـ هل قلت غزالا بريا ؟ ما أجمل ذلك ، كلام يصلح لموضوع مدرسي ، لكن ماضير أن يمتلك الغزال رأسا بحجم رأس الديناصور ؟

وضحك عن نواجذ مصفرة وخدين هرمين وأردف : هل رأيت غزالا بريا ؟

ـ مرة واحدة في الجبهة ، رأيته يسقط بفعل رصاصة طائشة فهرعت إليه ، وضمدت جراحه وتركته يهرب .

ابتسم الرجل وضرب على ساقه بكف معروقة :

ـ ذلك ما فعلته أنا بالضبط ، كنت ـ في شبابي ـ أطارد الثعالب والضباع والدببة . وكاد عنقي في إحدى المرات يدق بسبب ثعلب عاندني . لكنني في النهاية اصطدته . وجلست تحت الشجرة أعالج جراحه ، ثم تركته وانصرفت .

ـ وهل كنت تتسلى ؟

ـ لا أدري ، ربما هي حالة من العناد الانساني الغامض لا تلبث أن تغادر الرأس كقبضة من الدخان .

ـ يبدو أنك كنت صيادا في وقت ما .

ـ أوه . . هي واحدة من هوايات كثيرة . هل رأيت الحواة اذ يلعبون بعدة أشياء في الهواء ! حسنا كنت متعدد الهوايات شغوفا بذلك الجنون الانساني ـ كما أسميه ـ حتى أنني تصورت أنه سيعيش في الرأس مهما تقادم الزمن .

لكن الاختناق الذي اصاب الرئتين تركني مقطوع الانفاس لا أطلب أكثر من نسمة هواء تملأ الرئة المتعبة . ثم وجدت نفسي أقفل على أحلامي المضحكة وأرميها في البحر ألا تراني بهذه الجلسة المضحكة أشبه المومياء المحنطة .

ـ كلا إنك تتسلى بالقراءة وال . . .

ـ عجيب ، في هذا الجو الشتائي والقنابل تهبط كالفاكهة المسمومة .

ضحك وهو يسحب من جيبه شيئا بحجم الاصبع ، دسه في أنفه وسحب نفسا كالشهقة قلت :

ـ قد يضرك البرد .

توقف بصره على وجهي ، ومضت فترة قبل أن تطرف عيناه ويمد يده الى سيجارته المطفأة قال هامسا :

- تقول يضرني البرد ، البرد ، هه ، والقنابل التي تسمعها الان ألا تضرني هي الأخرى ؟ عجيب ، رجل مثلي خاض حروبا ومظاهرات قديمة هل يخشى البرد ؟ علمتني الحياة أن الحرب دمل في الخاصرة ، وما عليك إلا أن تضع المراهم وأوراق الخروع ليصبح الدمل سهل الازالة ، وهل الحرب غير تجربة يحتملها الرجال ليبعدوا الرصاصة عن القلب ؟

ونظر في وجهي متأملا :

- هل أنت في اجازة الآن ؟

- ثلاثة أيام .

- أراك دائما في غرفتك ، ألا تقرف من الجلوس على سريرك ؟

- أين أذهب ؟ انتهى كل شيء . أمي وأبي وثلاث أخوات .

- يا الهي . ما الذي حدث ؟

- تحول كل شيء الى كومة عظام بسبب قذيفة سوداء .

- يا الهي

- وهرعت أتلفت كمجنون في كل اتجاه ، وساعدني العشرات من الناس ، وأخرجنا الجثث الخمس أشلاء ممزقة .

- يا الهي

- وفي الجبهة كاد رأسي يتدحرج بين قدمي ، بل كاد يتناثر كنتف صغيرة من اللحم لاتمسكها اليد ، وكنت أنجو في كل مرة باعجوبة ، وفي احدى المرات كنت أمسك الانفاس حين وجدت نفسي محاصرا ، وكنت أقول هي موتة واحدة هبها لمن تعشق ، واجعل لجسدك اجنحة تنطلق في الفضاء ، وكنت أضحك من نكتة الاسر ، ثم صرت في الآخر أبكي ، وأقول هي حالة من الموت المجاني أن تجد نفسك في الاسر بينما الوطن ينتظرك ، وفي النهاية أخذني عشق القراءة - في وقت الاستراحة - لاسيما كتب الفلسفة ، فهل تصدق ذلك ؟

- أصدق ، وهل القراءة غير نتاج تلاقح العقل الانساني مع أنفاس الحياة ، علمتني الحياة أن الوجع الذي لاتمسكه اليد سرعان ما يتلاشى كقبضة من الدخان في حالة اضاءة بقعة صغيرة داخل النفس الانسانية . ما هي تلك البقعة الصغيرة ؟ليتني علمت ، في شبابي قرأت في الطب والادب والفلسفة والتاريخ والكيمياء القديمة ، خليط متناقض ، وكنت أحمل دفترا كبيرا أدون فيه ما يخطر في البال ، كان مليئا بالخطوط الجغرافية والمعادلات وبالكلمات التي أود حفرها في الرأس ، كنت أيامها عاشقا للسفر والترحال بشكل جنوني ، تركت زوجة شابة وطفلا في الثانية وقطعت الكرة الارضية مثلما أقطع الطريق الى رأس الشارع ، زرت القطبين الشمالي والجنوبي ، طفت في بلاد الثلج ، ورأيت الدببة البيضاء وهي تتمطى على الجليد كقطع من الاسفنج ، ونمت في لهيب افريقيا نصف عار حتى اسود جلدي وذاب رأسي ، واشتغلت مع بعض القبائل البدائية في جنى الصمغ من الاشجار ، وتعلمت بعض الكلمات من عشرين لغة ، لكنني وبعد كل هذا التجوال اكتشفت عبث الاستمرار في لعبة مضحكة بينما الوطن يضرب في الصدر كالمسمار . قرأت مرة أن الوجع قد يلد النقيض : شيئا أقرب الى الاحساس الاثيري الهادىء ، ذلك عجيب ، لكني اصدق والا كيف يطوف الفرح الابيض على شفتي الجندي لحظة استشهاده . لقد أخبرني أحد المقاتلين أن رفيقه همس له قبل استشهاده أنه يشعر بخدر لذيذ غامض يتمنى لو يدوم ، وظل وجهه يحتفظ بابتسامة سحرية ما برحت مضيئة في رأس الصديق كمصباح ، يومها توقفت أمام العبارة التي تقول كان سعيدا حد الموت ، فحين عدت الى الوطن - بعد غيبة سنوات - على ظهر إحدى البواخر وجدت نفسي فوق مياه شط العرب ، القيت بجسدي في الماء ، ورحت أسبح كسمكة نهرية ، وضحك الركاب وأدركوا أنهم أمام حالة فريدة ، وقالوا : لقد كنت طوال الرحلة تمتطي ظهر الماء فما الذي حدث ؟ ولم أخبرهم ما طعم الماء في شط

العرب ، وخرجت من الماء مبلولا ، ضاحكا ، فلثمت أول ما لثمت وجه زوجتي التي قالت ضاحكة كنت أعرف أنك ستعود أيها الدرويش ، لكن المسكينة ماتت بعد سنوات قبل أن ترى الابن الذي صار مقاتلا .

توقف الرجل عن الحديث أشعل سيجارة جديدة ، وناولني أخرى ، وأرهفنا السمع الى صوت انفجار قريب ، وعلق الرجل انها القنبلة الثانية ، فأين عساها تكون الثالثة ؟

نفض رماد سيجارته في منفضة معدنية صغيرة ورسم على وجهه الاجعد ابتسامة واهنة وقال : في بداية الحرب كان سعيد في الخامسة عشر من عمره ، كان يصعد الى السطح مساء ويرقب العيون الحديدية اللامعة ويهتف من فوق : هذه قذيفتهم ، ياللولد الذكي ، صارت له الخبرة في معرفة مصدر القنبلة من صدى الانفجار ، وكان يمضي جل نهاره على السطح مع مجموعة من الطيور البيض اشتراها من سوق الجمعة ، وصنع لها قفصا جيلا من الخيزران ، وعندما التحق بالجبهة ظلت الطيور تهدل بغيابه بطريقة شجية . وكان في كل اجازة يندفع الى أحضاني لدى الباب معانقا ، وما يلبث أن يسحب ذراعيه ويندفع ثانية الى السطح ولا يهبط الا بعد المغيب ، وكنت أعجب لهذا العشق « الكرنفالي » ، وكان يجيب على دهشتي : هل ثمة أجمل من أن تغفو بين أنغام لاتصنعها الانامل البشرية ؟

وفوجئت به مرة نائما بينما الطيور ترفرف حواليه وعلى خوذته وكتفيه ، كان متعبا حين دهمته الاغفاءة فهل رأيت شيئا كهذا : جنديا بكامل ثياب المعركة ينام مع الطيور ، وغمرني احساس بالنشوة وأنا أرى ولدي يرسم في نومته لوحة ، ياالقوة الشعر والفرشاة أن تصنعا مثلها ، حسنا هل أخبرتك أنه كان يكتب الشعر أيضا ؟

لقد أسمعني ذات ليلة قصيدة رقيقة ، وعندما سألته عنها ، أجاب على خجل أنه مؤلفها وأنه مواظب على كتابة الشعر منذ وجد نفسه وجها لوجه مع الموت ، ياللروعة ولدى يكتب الشعر فيقدر على بمالم يقدر عليه أبوه . ، فيمنحني احساسا افتقدته حين أمسكت القلم لاكتب الشعر ، وأخبرني أنه يكتب المذكرات أيضا ، يقتنص الكلمات في وقت الاستراحة ويمنحها ضوء الروح فتتحول الى كائن كالطير يرفرف في فضاء المعركة ، أخبرني بذلك وهو ينظف رشاشة فنهضت مقبلا ، فيا للولد الاسمر ، ونشر بعضها في صحيفة محلية ، وعندما قرأتها بكيت ، وتذكرت ما كتبته وأنا في مثل سنه ، وقلت يا لسخف ما كنت أنا أكتبه . وكان يبعث الرسائل من



الجبهة في كل شهر بانتظام ، رسالتين في الشهر ويذيلهما دائما بأسئلة طريفة عن ذقني التي يجب الا أهمل حلاقتها ، والطيور التي يحذرني من رغبة طارئة تصيبني فأشوي واحدا منها . أو يقول ضاحكا : هل تود كتابة الشعر يا أبي ؟ تعال هنا ، وانظر كيف نصنع الشعر بأسنان البندقية .

وجاءني يوما وقد ومضت في رأسه فكرة عجيبة ، قرر أن يأخذ معه طيرين الى الجبهة فهو سيجد لهما هناك ملجأ أمينا ، وفعلا أخذ الطيرين وغاب ثلاثة شهور دونما اجازة ، وفي اليوم الاول من الشهر الرابع عاد أحد الطيرين وحيدا ، وحط على قفصه بسكون وما لبث أن هبط الى الداخل ، وانكمش في الزاوية يهدل بصوت كالطعنة ، وبعد أيام جاءوا بولدي شهيدا ، ووجدت نفسي أبوح باسرار روحي للجدران ، وتنازعتني رغبة خفية لابحث عن مذكراته ، وإذ عثرت عليها تلمستها بخشوع ، فادهشتني النفس المضيئة في كل سطر ، وكدت أصرخ مع نفسي إنها البقعة المضيئة في الغابة الموحشة . إنه الضوء الذي يسقط في الظلمة فتمسكه المشاعر ونبضات القلب ، وبلا أدنى تردد خطوت الى حيث كنت أحتفظ بمذكراتي في صندوق قديم ، أمسكتها ورحت أمزقها صفحة صفحة والقي بها في كل مكان ، فأين ما كتبته أنا مما كتبه ولدي في لهيب النار ؟ وبعد أسبوع قُرِعَ الباب ووقفت أمامي فتاة شابة لم أكن رأيتها من قبل ، وقدمت لي مرتبكة رزمة من الرسائل ، وقالت بخجل هادىء : إنها من سعيد ، كان يراسلني منذ شهور . وتضرج وجهها بحمرة التفاح ، وأردفت كالبكاء : هل تراني قادرة على الاحتفاظ بها وهي تميتني كل يوم .

توقف كل شيء في رأسي مرة واحدة ، وجدتني مصابا بدوار كأنني سمكة خرجت من الماء ، ماذا يعني أن أجد نفسي محاصرا بقصة تلهب الرأس وتنفجر في الداخل كقنبلة موقوتة ؟ كيف يستيقظ المخبوء في النفس الانسانية على موضوع صغير يتلخص في بضع كلمات ؟ وهل الحياة ـ يا للحياة العظيمة ـ سوى كتاب ببضع كلمات ؟ وأيقنت أنا الجندي الذي أمضى في الحرب ثلاث سنوات ، أن الاشياء العظيمة هي ما يتلخص بأصغر المفردات ، والا بم أوجز السنوات الثلاث التي أمضيتها محاربا بينما الموت والحياة يسيران جنبا الى جنب توأم لايفترقان ؟ وأنا في الخندق أحاول ابعاد شبح الموت والخراب بأظافري ، وبقيت في غرفتي ـ مستيقظا ـ منشغلا باستعادة عبارات الرجل العجوز وربط أجزائها من جديد ، أحاول في آخر الليل هضمها على مهل ، ماذا يعني الليل ؟ إنه الدوي والانهيار الذي يعقبه صمت مقلق حين تستيقظ صباحا لترى البيت الذي كان بجوارك قد أصبح فراغا مجرد هياكل طابوقية ، ونثارا من اللحم والدم ، وأصواتا كانت تحاورك ذات يوم ، فلقد عودتنا الكتل النارية اللاهبة أن لاموعد للموت القادم . وهل كنت أتوقع وأنا أعود من الجبهة الى بيتنا القديم ، هل كنت أتوقع أن كتلة لامرئية ستتجه الى البيت فيستحيل كل شيء الى دخان ؟ في الواقع أن ثمة شيئا أبيض ، ربما هو فيض من ضباب لاأعرف ماهيته غلف رأسي فلم أعد أرى شيئا ، لكنني استطعت أن أميز عشرة أذرع لخمسة أجساد بخمسين أصبعا تبرز من باطن الارض كعروق لاهبة وتمسك السماء .

وفي الجبهة ظل الفيض الضبابي يغلف رأسي وأنا أحدق الى الامام قابضا على رشاشي بأسناني ، وأهمس بغضب مكتوم : لن تنفجر قنبلة أخرى ، لن أرى الشوارع تمتلىء بالحفر السود ، لن تقف البيوت على هياكل طابوقية . وكان الرجل العجوز عالما جديدا أطل عليه إذ يأخذني التعب والدوي فنتحاور ، ويمتد الحوار ، وتساءلت لماذا لم يلتق الرأسان من قبل وقد مضى على وجودي معه شهران ؟ وكان ولده الغائب وفتاته البصرية ثالثنا في الحديث ، كائنان يتوسطان جلستنا ويتحركان في فضاء الحوش كضباب سحري أزرق ، وكانت القنابل تتخلل الحديث ، وفي الجبهة أسرق الوقت لأقرأ رسالة وصلتني من الرجل فأتشرب الكلمات ببطء هادىء ، فها هو يحدثني عن الطيور وعن آخر كلام قرأه ، ويعيد لي مقاطع من قصيدة كتبها

سعيد ، ويسألني رأيي في طبع ما كتبه ذلك الشاعر الصغير ، وقال في نهاية رسالته إن الفتاة البصرية قد جاءته ثانية فأذهله قدومها المفاجيء قالت انها تريد استعادة رسائل سعيد ، واعترفت حزينة أنها نادمة اذ أعادتها أول مرة ، فهي أحق بها حتى لو كانت نزيفا في القلب .

وأعطاها الرجل الرسائل فاحتضنتها بحرص وغادرته دون أن يعرف من تكون . وفي رسالة لاحقة كتب لي أن الفتاة جاءته مرة ثالثة وطلبت أن ترى طيور سعيد لطالما حدثها سعيد عنها ، ودخلت الفتاة البيت . وصعدت الى السطح ، واطعمت الطيور وداعبتها بمرح ، ثم خرجت وهي أكثر مرحا .

وقال الرجل في ذيل الرسالة : في اجازتك القادمة سأضع بين يديك مذكرات سعيد ، لقد أخرجتها من مخبئها ونفضت عنها تراب الزمن ، أنا واثق أنك ستجد فيها شيئا فربما الهمتك - على الاقل - أن تكتب المذكرات .

وفي الاجازة كنت أجلس في البيت وبين يدي مذكرات سعيد ، مبهورا بالخط الجميل والكلمات التي تشبه حبات اللؤلؤ ؛ وفيها يقول : أنا حائر أمام هاجس الشعر ، إنه يطوقني كالقيد حتى وأنا في مواجهة العدو ، إنه السيد المطاع وأنا العبد ، ولكن لماذا أعبد ذلك السيد الجميل ؟

ويقول في مكان آخر : لقد علمتني الحرب أن الشهداء لايقدمون التحية لأحد ، إن الآخرين هم الذين يلقون التحية ، إذاءعلى القرن الحادي والعشرين أن يرفع قبعته بمجرد أن يقترب من قبري .

وفي صفحة أخرى : حبيبتي . ليس الحب أن ينظر بعضنا الى بعض ، وإنما أن ننظر سوية في اتجاه واحد .

ويختتم إحدى الصفحات قائلا : لقد قرأت هذا الاسبوع ثلاثة كتب مرة واحدة ، فتعلمت الكثير ، وأدركت أننا نتعلم من احتكاك الافكار في الهواء الطلق ، ولكن لماذا تريد الرصاصة أن تقتل هذه الافكار ؟

اعترف أنني التهمت المذكرات ، قرأتها كلمة كلمة ، وتيقنت أن ذلك المقاتل كان يمتلك موهبة التحرك في جميع الاتجاهات بطريقة مدهشة . وإلا كيف وجد الوقت للحرب والحب والكتابة ، وتمنيت لو أقرأ ما كتبه لابيه ولحبيبته ، تمنيت أن أقرأ كل ما خطه الرأس المضيء ، وهممت أن أطلب الى الرجل ذلك غير أنني ترددت ووجدت قدمي تقوداني ذات يوم الى السطح حيث الطيور والفضاء الابيض والشط الذي لاح عن بعد كبيرا وهادرا ، أصغيت الى الهديل الذي يلمس القلب فكيف لم أر الطيور من قبل وهي فوق رأسي دائما ؟

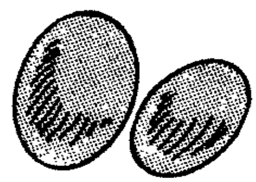
تقدمت مراقبا حركاتها الهادئة ، وعيونها الخرزية اللامعة . وغمرتني نشوة أثيرية وأنا أرى أفراخا زغبية تصرصو في الزاوية ، وفي الزاوية الاخرى ثمة بيض على كومة من قش ينتظر التفقيس . مددت يدي ولمست مداعبا الاجنحة اللحمية والزغب الاصفر الناعم . ومضت فترة من الوقت لا أعلم مداها حين دهمتني الاغفاءة . لمس النعاس جفني كنسمة هادئة ، فاتكأت بين اليقظة والمنام على القفص ورفرفت الطيور حولي ، شعرت بحفق أجنحتها وبهواء منعش يلمس وجهي ، ولم انتبه إلا على دوي انفجار قنبلة سقطت على المدينة ، وانهار شيء ما ، وارتفعت سحابة غبارية ، ولبرهة انفجرت قنبلة أخرى ، ورفرفت الطيور مذعورة ، وحطت على القفص من جديد . كنت لاهيا عن كل ماعدا الطيور ، متكئا على القفص . تسحبني الاغفاءة الهادئة ، ولم أكن أكترث أن تأتي القنبلة السوداء المذعورة . □

- قيل لعمر رضي الله عنه : ما العاجز ؟ فقال . من عجز عن سياسة نفسه .

الجديد في العلم والطبّ

إعداد : يوسف زعبلاوي

بيض دجاج خالٍ من الكولسترول



● استمع المؤتمر السنوي الذي عقده اتحاد الجمعيات الامريكية للبيولوجيا التجريبية في لاس فيجاس في الولايات المتحدة ، وذلك في اوائل شهر مايو من السنة الحالية (١٩٨٨) استمع الى بحثين علميين هامين ، تناول أحدهما بيض الدجاج المعدل الذي نجحوا في تطويره حيث يستطيع المرء تناوله دون أن يخشى من ارتفاع نسبة الكولسترول في دمه ، وركز البحث الثاني على الكيماويات الغذائية الكفيلة بخفض نسبة الكولسترول في الدم .

وذكر البحث الأول فيما ذكر أن التجارب التي أجريت في جامعة يوتاه قامت أساسا على ادخال زيت السمك في الطعام الذي قدم الى الدجاج موضع التجربة ، وبعد ثمانية اسابيع من هذه التغذية قدم بيض الدجاج المذكور الى ١٢ رجلا ، وأثبتت الفحوص انخفاض ضغط الدم ونقصان نسبة الكولسترول في دم أولئك الرجال جميعا ، أما رائحة السمك ونكهته التي غلبت على ذلك البيض فليس من الصعب التخلص منها ، ففي الامكان القضاء على رائحة زيت السمك الذي يعطى الى الدجاج بالمعالجة المعروفة بـ (Deodorization) . وذكر البحث الثاني أن زيت احد التوابل الشائعة في تايلند كفيل بخفض نسبة الكولسترول في الدم ، والزيت المذكور هو زيت عشبة يسمونها حشيش الليمون (Lemongrass) وقد صنعوا منه كبسولات بتركيز ١٤٠ ملغراما ، وأعطوا هذه الكبسولات (واحدة في اليوم) لجماعة من الذين يعانون ارتفاعا غير سوي في نسبة الكولسترول ، فهبطت هذه النسبة بمعدل ١٠٪ أو يزيد في أكثر من ثلث تلك الجماعة .

■ ■ ■

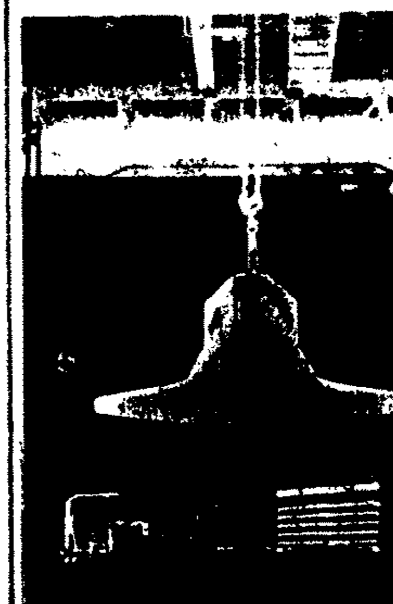
حذار تدفئة الرضع

● نشرت المجلة الطبية البريطانية في أحد أعدادها الصادرة في شهر يونيه الماضي بحثا خطيرا حول تدفئة الأطفال الرضع ، واعتمد البحث على قصة طفل يبلغ من العمر أربعة شهور اضطر أهله لادخاله المستشفى ثم مالبث أن مات ، واحتار الأطباء في سبب الوفاة ، واعتقدوا في باديء الامر أن الطفل تعرض لجلطة لسبب أو الآخر ، وأن تلك الجلطة هي التي أدت الى موته .

وما أسرع ماتبين للأطباء أن سبب وفاة الطفل انما كان التدفئة البالغة ، فقد



طائرة الهليكوبتر متخلفة نسبيا



درجت امه على وضعه في السرير المتنقل (Carrrycot) وعمدت الى لفة بغطاءين . من صوف بحيث تجاوزت درجة حرارته الأربعين مئوية ، وارتفعت أحيانا الى ٤٢ درجة أو يزيد ، وهي الدرجة التي كان عليها حين دخل المستشفى .

من هنا جاء تحذير الأطباء للامهات بألا يضعن ثقتهن العمياء في التدفئة ، وأن يحرصن على قياس حرارة أطفالهن بالميزان عند الاشتباه بارتفاع تلك الحرارة أكثر مما ينبغي ، والتحذير موجه لسكان المناطق الباردة الذين يخشون على أطفالهم الموت من شدة البرودة ، فما بالك في سكان المناطق الدافئة والحارة ؟ فهم يخشون على أطفالهم من البرد وكأنهم من سكان الأصقاع الباردة ، والأولى بهم أن يكونوا أشد حذرا من التدفئة وهي مقترنة بحرارة الطقس في بلادهم .

■ ■ ■

● شهد شهر يناير الماضي استكمال أعمال الانشاء في مجمع لأنفاق الريح ، ويعد أضخم مجمع لهذه الأنفاق في العالم كله ، وذلك في مركز « آمس » لأبحاث « ناسا » في كاليفورنيا .

والغاية من هذه الأنفاق انما هي اجراء التجارب على نماذج الطائرات بدلا من اجرائها على الطائرات نفسها في أعالي الجو ، ويكون ذلك باطلاق الطائرة الأنموذج في نفق الريح حيث تتعرض لتيارات هوائية موجهة ، وفيما يمضي المهندس في مراقبة الطائرات الأنموذج على شاشة التلفاز ، يمضي جهاز « الكمبيوتر » في فحص الهواء المحيط بالأنموذج ، ويتحسس مواطن الضعف والقوة فيه ، لكي يصار الى اجراء التعديلات المناسبة ان كان ثمة حاجة لمثل تلك التعديلات .

ويغطي النفق الأكبر في المجمع رقعة واسعة تبلغ مساحتها ١٢ فدانا وتعمل في محطته ٦ محركات ضخمة تحتاج الى ١٠٠ ميجاواط ، أي مايكفي لاضاءة ٧٠٠٠ منزل ، أما مراوحه العملاقة فتستطيع أن تشفط في الثانية الواحدة (٦٣) طنا من الهواء وذلك عبر محطة تجميع تبلغ مساحتها مثل مساحة ملعب لكرة القدم .

ومع أن هذا النفق يستطيع أن يستوعب طائرة بوينغ (٧٣٧) الا أن التجارب التي تجرى فيه تجرى في الغالب على طائرة الهليكوبتر التي مازالت متخلفة بالمقارنة مع الطائرات ذات الأجنحة الثابتة ، وذلك حسبما يؤكد الخبراء . والغريب أن النفق لا يعد صالحا لاجراء التجارب على الطائرات المقاتلة النفاثة ولا على تلك المصممة للانطلاق الى الفضاء ، هذا على الرغم من السرعة الفائقة التي يبلغها الهواء في داخله ، وهي لاتقل عن ١١٥ ميلا في الساعة،والى جانب النفق الأكبر الذي ذكرناه يشمل المجمع عشرة أنفاق أخرى أصغر حجما ومعدة لاجراء التجارب على نماذج الطائرات كما سبقت الاشارة .

والجدير بالذكر أن أنفاق المجمع كلها محجوزة لصالح الشركة التي تصنع الطائرات ، ولصالح جهات أخرى حكومية أو غير حكومية ، على مدى السنتين القادمتين ، وعلى نحو متواصل .

براءات بحيوانات جديدة مخلقة



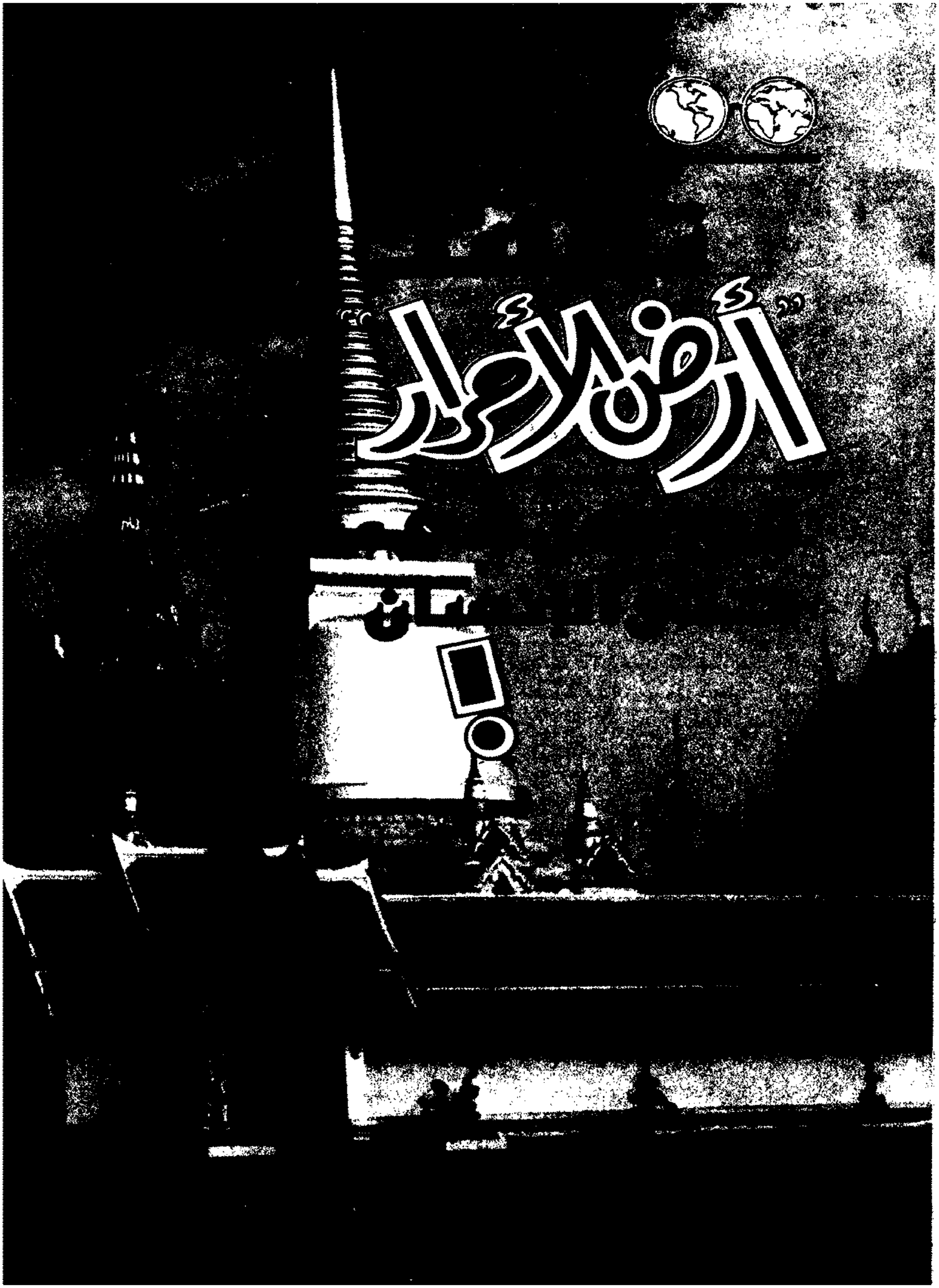
من المعروف أن الاختراعات تسجل ، وبراءاتها تمنح في الحالات التي تكون المبتكرات فيها سلعا أو منتجات أو أساليب ، وقد أضيفت الى هذه وتلك في المدة الاخيرة المبتكرات التي تمخضت عنها الهندسة البيولوجية في مجال النبات ، ومجال الحشرات ، فحصلت شركات شتى على براءات تشمل أشجارا طورتها أو بكتيريا خلقتها ، الا أن هذه البراءات حظرت حظرا تاما فيما يتصل بالحيوانات المخلقة كالأرانب والدجاج والخيول والثيران وما الى ذلك حتى كان شهر ابريل الماضي ١٩٨٨ فقد خرجت دائرة الاختراعات والبراءات الامريكية على هذه القاعدة ، ومنحت جامعة هارفرد الشهيرة براءة اختراع على فأر جديد نجح في تخليقه علماء تلك الجامعة . .

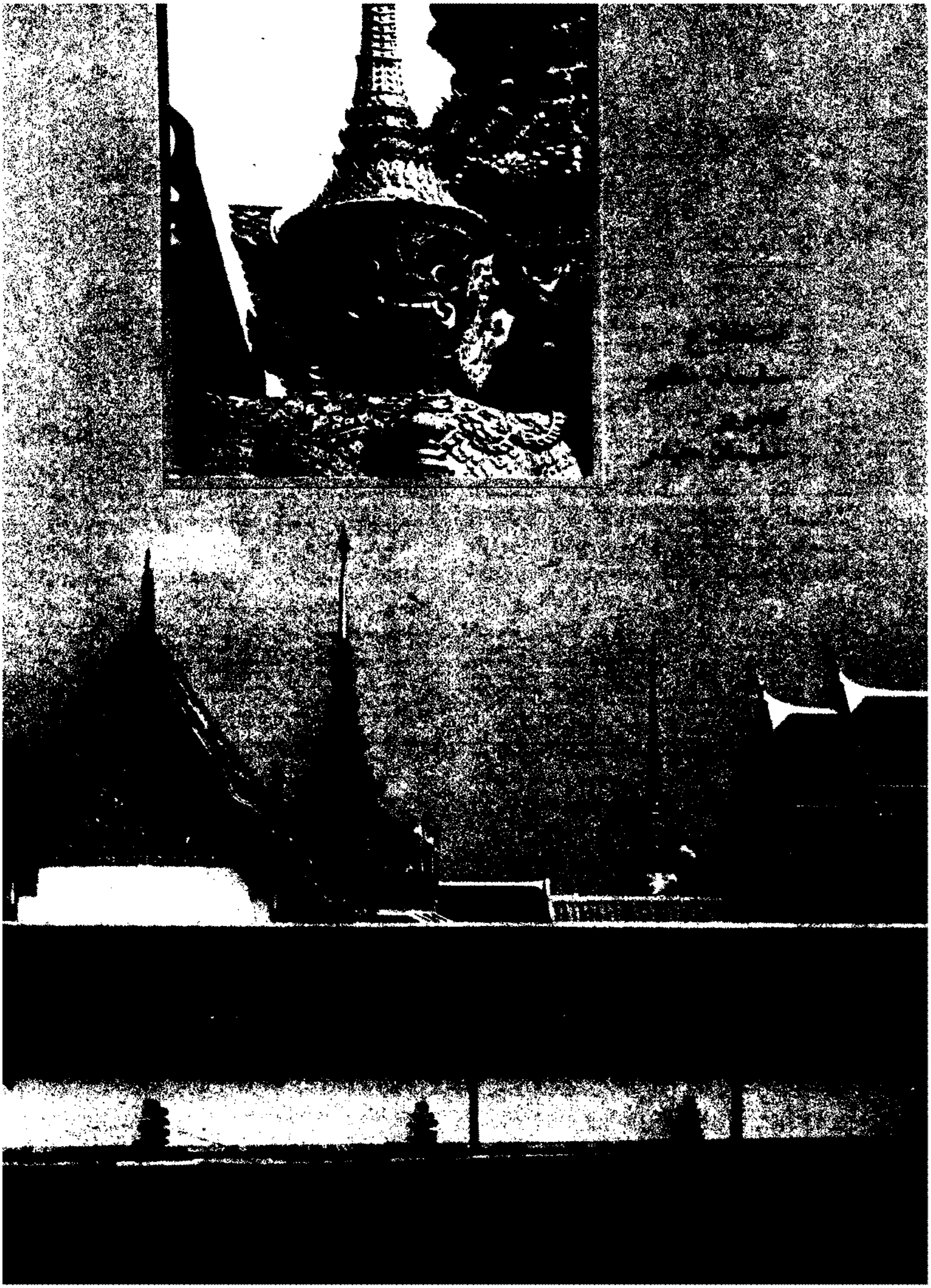
وتتميز الفئران الجديدة بقابلية فائقة للاصابة بسرطان الثدي وقد تميزت مواليدها بمثل تلك القابلية مع الفارق أن قابلية هذه المواليد وراثية ، وهذا هو بيت القصيد .

اذ أن مايسعى اليه علماء جامعة هارفرد هو المقارنة بين العوامل الوراثية كالقابلية التي ذكرنا والعوامل البيئية ، بل وتحديد التفاعل بين الفئتين من العوامل في حالات الاصابة بسرطان الثدي ، الامر الذي يؤدي الى مزيد من الدقة والاحكام في تشخيص سرطان الثدي في بني الانسان ، وبالتالي في معالجته . وما أسرع ما أقدمت جامعة هارفرد على حصر حق انتاج أو تخليق الفئران الجديدة في شركة دي بونت الشهيرة ، ولكن البراءة التي ظفرت بها جامعة هارفرد لم تمر بسلام ، فقد أثارت موجة غضب واحتجاج ترددت أصداؤها في طول البلاد وعرضها ، وبلغت الموجة ذروتها في الكونجرس الأمريكي ، وقد سارع الى فرض حظر شامل على منح البراءات على الحيوانات المخلّقة كلها دون استثناء ، وذلك ريثما يتسنى له استكمال التدقيق في المشاكل والمخاطر المترتبة على تخليق الحيوانات أصلا ، فالحيوان المخلّق قد يسلك خارج جدران المختبر سلوكا مغايرا لسلوكه داخلها ، فيصبح بمثابة المستر هايد بعد أن كان كالدكتور جيكل ويتسبب ـ بالتالي ـ بأضرار للانسانية ككل ، تفوق كل المنافع التي قصد اليها العلماء من تخليقه .

ولو أطلق العنان لتخليق الحيوانات دون قيد أو شرط لوجد بين الشركات الصناعية الجشعة من لا يعبأ بالأضرار التي يمكن أن تترتب على ماتخلق منها ، مادامت تضمن للشركات ماتسعى اليه من ارباح .

ويرد انصار الاستمرار في تخليق الحيوانات وفي منح البراءات على مثل الفأر الذي خلقته جامعة هارفرد ، ويؤكدون أن الحظر الذي فرضه الكونجرس الأمريكي خطأ كبير ، ولامعنى له الا شل التقدم العلمي في أمريكا وافساح المجال لليابان وغيرها للمنافسة ، ولربما السبق أيضا في مجال حيوي بالغ الخطورة ، وهم يطالبون برفع الحظر المشار اليه دون تأخير . □


أرض الأسرار



« ألا أونا » « ألا دوي » . . هل من مزايد ؟ هل من يدفع اكثر ؟ انظروا اليه . . إنه صبي رائع قادر على صنع كل شيء . من يزيد على الدولارات العشرة ؟ لا أحد . . لا أحد ؟ . . إذن « ألا ترى » . . !

ويرسو المزاد على الصغير ، ويمد المشتري يده ليسوق الصبي أمامه بعد أن يدفع الثمن ، تماما كما يساق آلاف مثله يتم بيعهم كل أسبوع في سوق الرقيق بالعاصمة بانجوك ، وفي مختلف مدن وقرى تايلند . . وكلهم تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة . . !

سوق النخاسة القديم الجديد لا يتوقف أبداً رغم جهود الحكومة التايلندية لوقفه ، وزبائنه يتزايدون كل يوم ، وبيع الاطفال أصبح تجارة رائجة مثل كل أعمال البيع والشراء في البلد الذي يتاجر في كل شيء حتى الانسان . والسماسرة بارعون في إقناع الأهالي المعوزين الفقراء ـ وخاصة في مناطق الشمال الشرقي ـ ببيع أبنائهم ليتيحوا لهم حياة أفضل . . ! والمشترون ، وخاصة السواح والزوار ، يتسابقون الى الشراء والمساومة ودفع الرشاوي للحصول على عمال أو خدم أو عبيد ، دون وازع من ضمير يمنعهم من أن يحرموا الأبناء من آبائهم لينطلقوا بهم إلى بلادهم فرحين كأنهم قد فازوا بصفقة العمر ، وهم الذين يدعون أن انسان بلادهم قد بلغ أعلى مراحل التطور والتقدم والمدنية !

ومع ذلك فإن الاطفال الذين يباعون للملاك والسادة من أهل البلاد ، قد يكونون أسعد حظاً ، فهم على الأقل يستطيعون أن يتمتعوا برضا المالك الجديد إذا أثبتوا أنهم ـ خدماً وعبيداً وعمالاً ـ قادرون على تحمل العمل المستمر دون توقف أو حدود ، مستعدون لتحمل أقصى الاهانات وأقسى المعاملات . . . فعندئذ يسمح لهم السيد برؤية ذويهم وأهليهم مرة كل بضع سنوات . . !

مدينة الملائكة

مع ذلك فالشعب التايلندي يبتسم دائما . . وهو يسمى عاصمته بانجوك . . « مدينة الملائكة » . والملائكة فيها يتصور التائيون الحديثون هم الرهبان البوذيون الذين ينطلقون من المعابد في أثوابهم الزعفرانية ورءوسهم المحلوقة ، حاملين صحافاً فارغة ليملأها لهم الناس ، إنهم يطرقون الأبواب صامتين ، ينتظرون أن تملأ تلك الأواني بقليل من الأرز أو بعض الفاكهة ، وحين لا تمتلىء الصحاف في الوقت المناسب ، فإن الرهبان الكبار يتوقفون في ورع وتأمل بانتظار من يحضر من المتبرعين بالطعام والهدايا . ويأتي المتبرعون بصحبة أطفالهم أحياناً ويقدمون الأرز الساخن والمأكولات الأخرى لتقديمها للرهبان المنتظرين . وبعد بزوغ الشمس بساعة يعود الجميع الى معابدهم لتناول وجبة طعامهم الأولى ، ويتركون ما يتبقى لوجبة ما قبل الظهر ثم لا يأكلون بعد ذلك بقية النهار .

هؤلاء الرهبان هم « الملائكة المحدثون » . أما الملائكة الذين انتسب اليهم اسم المدينة وهو « كرانجثب » ، فهم خدم الآلهة . والاسم مستمد من اللغة السنسكريتية لغة البلاط الملكي . وكلمة « ثب » معناها الملائكة التي تخدم الآلهة في الطقوس البراهمية القديمة . وقد استبقيت هذه الآلهة والملائكة لتتبع العقيدة البوذية ولكنها ليست ضرورية لها ، وقد قبل بوذا نفسه وجود هذا التقليد ولم يغيره ، ولكنه لم يعترف به . . . !

بانجوك أو « كرانجثب » كانت قبل مئات السنين مجرد نقطة حصينة على منحنى النهر لحماية العاصمة السابقة « أيوثايا » . وتعني كلمة بانجوك نفسها المكان الذي ينمو فيه الزيتون البري .

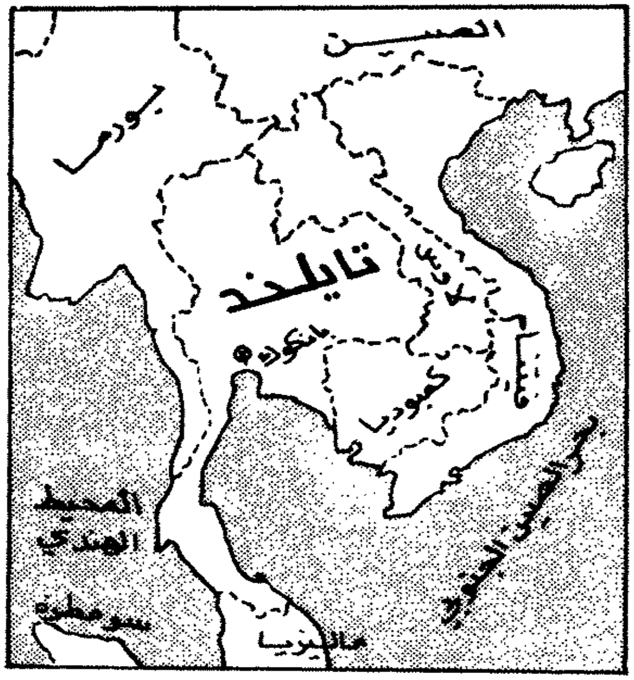
وقد استمدت « أيوثايا » اسمها من « أيودايا » المدينة الخرافية في شمالي الهند التي شن منها الإله راما حملته لغزو سيلان التي كانت تسمى عند الرحالة العرب « سرنديب » وهي الآن سريلانكا . وقد

ظلت بانجوك على حالها وعرفت هكذا لدى التجار الاوربيين . ولكن أيوثايا سقطت في أيدي البورميين بعد حصار طويل في منتصف القرن الثاني عشر ، وقد دمرت تدميراً تاماً . ونقل السكان الأسرى إلى بورما تمشياً مع تقاليد تلك الأيام ، ولكن جزءاً من جيش « تاي » بقيادة الجنرال نصف الصيني « تاك سين » هرب قبل سقوط المدينة . ولجأ تاك سين الى الشرق بالقرب من كمبوديا ، وحشد جيشاً هزم به البورميين وطردهم من البلاد فلم يعودوا إليها ثانية .

وأصبح تاك سين ملكاً ، واتخذ من « تونبيوري » عاصمة له عبر نهر تشاونابا أمام بانجوك . وبعد السنوات الأولى من حكمه استطاع أن يوقف البورميين من ناحية والكمبوديين من الناحية الأخرى . إلا أنه أصيب في أخريات أيامه بالخبل وبدأ يتخيل نفسه إلهاً . وحينئذ خلفه قائده جنرال شاكري وتولى الحكم ، فنقل العاصمة الى بانجوك عام ١٧٨٢ ونصب نفسه ملكاً ، وأقام قصره الكبير الذي أصبح مركزاً للعاصمة الجديدة ، إذ جاء الأهالي فأقاموا حوله بيوتهم التي ظلت تتزايد حتى أصبحت مدينة كبيرة رائعة . أما الملك تاك سين فقد قتله الملك الجديد على الطريقة الملكية التالية : حوكم وهو موضوع داخل « جوال » ، وضرب بهراوات من خشب الصندل حتى لا يسكب دمه الملكي على الأرض إذا ذبح أو جرح . وفيما بعد أطلق على « شاكري » أول ملوك الأسرة الملكية الحالية لقب « راما » ، وتبعه خلفاؤه في حمل نفس اللقب حتى الملك الحالي « بهوميبول اديوليديج » الذي اتخذ اسم « راما التاسع » وذلك تبركاً بإسم الإله « راما » الذي نشهد تفاصيل قصته المأخوذة عن « رامايانا » على لوحات متتابعة مرسومة على جدران المدخل الشرقي لمجموعة القصر الملكي الكبير ومعبده الرئيسي . . وهي القصة التي انتهت بانتصار راما على ملك الشياطين « رافانا » بمساعدة القرد « هانومان »

أرض الاحرار

إذا كان للعاصمة قصة فان لتايلند نفسها قصة أخرى . فهذ الاسم لم يطلق عليها إلا في عام ١٩٣٩ قبل خمسين عاماً فقط ، حين قرر المسئولون تحويل

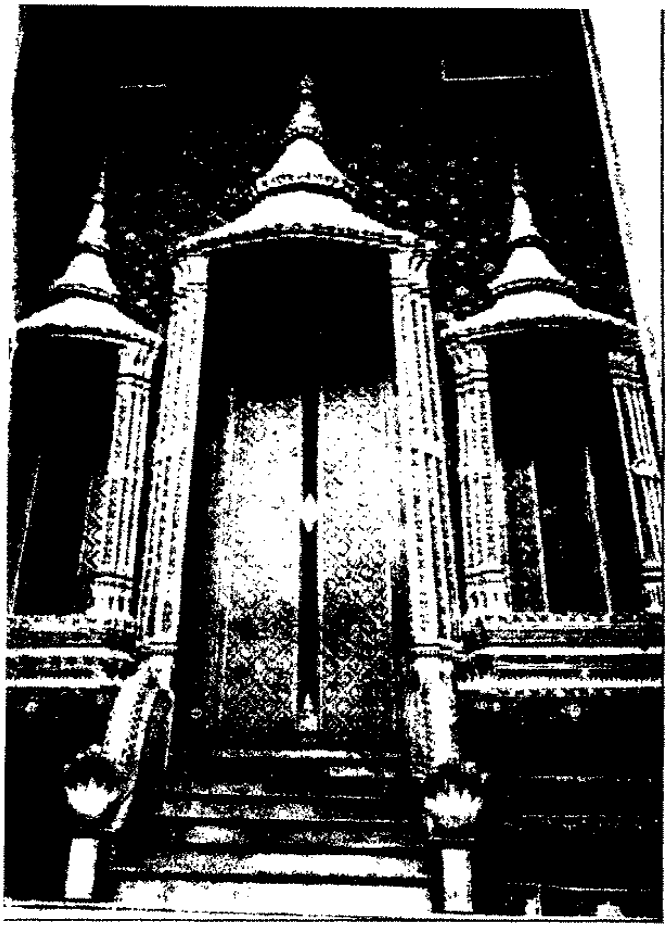


● خريطة تبين موقع تايلند والدول المحيطة بها

اسمها الاصلي من « سيام » الى « موانج تاي » التي تعني باللغة السيامية « أرض الأحرار » ومن ثم أصبح الاسم الرسمي للمملكة يتكون من شقين هما « تاي » و « لاند » . وسيام (أو تايلند) إحدى الدول التي تشكل شبه جزيرة الهند الصينية في جنوب شرقي آسيا والتي تضم فيتنام وكمبوديا ولاوس وبورما وماليزيا ، وهي كلها تشترك في الحدود مع تايلند ماعدا فيتنام .

بدأ اتصال سيام بأوروبا عن طريق البرتغاليين في أوائل القرن السادس عشر ، وعن طريق التجار الهولنديين والانجليز والفرنسيين بعد ذلك بقرن ، وقد سعى الفرنسيون الى مزيد من التوسع في سيام ولكن مجازفتهم في سيام انتهت بكارثة .

المهم هنا أنه مع توالي أحداث التاريخ استطاع ملوك أسرة شاكري وأولهم راما الأول عام ١٧٨٢ وتاسعهم الملك بهو ميبول راما التاسع الحالي ـ أن يقيموا حضارة جديدة للبلاد ، وكان أبرز عصورها في فترة حكم راما الخامس (١٨٦٨ ـ ١٩١٠) وهي تعتبر فترة تغيير جذري واتجاهاً نحو أعلى مستويات التقدم . أمام الفترة المهمة الثانية فهي فترة تغيير نظام







ثلاثة مشاهد لا تستطيع أن تراها إلا إذا دخلت القصر الملكي الكبير وأنت في ملابس تتميز بالحشمة . . الاولى لمدخل « معبد زمردة بوذا » على جانبيه تمثالان لحارسين أسطوريين . . والثانية لمدخل جناح الاستقبال الملكي بزخارفه التقليدية التي تمثل الفن الهندسي التائي القديم . . . والثالثة لأتباع بوذا يتعبدون ويقدمون الولاء والتبجيل للتمثال الذهبي .



الحكم من نظام ملكي مطلق الى نظام ديمقراطي في عام ١٩٣٢ في عهد الملك السابع حين قام بتغيير النظام جماعة أرادوا الحصول على نظام ديمقراطي أيده الملك نفسه وقبل ذلك التغيير بالتسليم ، ووقع على الدستور المؤقت في يونيو ١٩٣٢ ، وهو تاريخ بداية نظام الحكم الديمقراطي في مملكة تايلند ، حيث أصبح الملك يملك ولا يحكم ، وإن ظل يتمتع بقدسية واحترام كبيرين بإعتباره مازال تجسيداً لبوذا المستقبل في أنظار الشعب ، الذي تدين أغلبيته بالبوذية بنسبة ٩٣٪ من عدد السكان البالغ ٥١ مليون نسمة بينما يمثل المسلمون نسبة ٤٪ والمسيحيون نسبة ٢,٦٪ والباقي من الهندوكيين .

القصر الكبير

زيارة بانجوك تبدأ دائماً من قلب المدينة حيث ساحة القصر الملكي الكبير والمعابد البوذية المحيطة به التي تعرف باسم « وات » .

القصر آية في الفن التقليدي التايلندي ، أقامه الجنرال فايا شاكري (راما الاول) عام ١٧٨٣ على الضفة الشرقية لنهر « تشاونابا » على مساحة ٢١٨ ألف متر مربع ، وأحاطه بجدران أربعة ضخمة طولها ١٩٠٠ متر ، تضم بداخلها مقر إقامة الملك وجناح الحريم والمكاتب الرسمية للحكم ورجال البلاط ، بالاضافة الى المعابد الملكية وأهمها معبد بوذا الزمردي (زمردة بوذا) .

حين وقفنا نتأمل القصر الكبير بعد أن اجتزنا البوابة المزدوجة ، تذكرنا تلك الصورة الباذخة التي شهدناها في فيلم « أنا وملك سيام » ، ودار بنا الزمن في عودة سريعة لنتابع « يول برينر » يدور بين زوجات الملك الاربعين وأبنائه المائة وهو يؤدي دور الملك مونجكوت (راما الرابع) في أيامه الأخيرة عام ١٨٦٨ ، قبل أن يموت تاركاً الحكم لابنه الملك شولا لونجكورن الذي حكم من بعده أربعين سنة على عرش مملكة سيام .

في ذلك الوقت كان الملك يحكم حكماً مطلقاً باعتبار أن الملوك هم « بوذا المستقبل » الذين حققوا بسموهم الخلاص لأنفسهم وللبشرية عامة ! وكما يحكمون على الارض فإنهم يحكمون في السماء بحالتهم المقدسة . . وهم يسيرون في ذلك جريا على مذهب « الملك الإله » الذي يحكم من فوق عرشه بالقصر الملكي .

قال لنا مرافقنا ونحن نجتاز باب القصر الحديدي :

في هذا القصر شهدت سيام مسيرة الاصلاح التي وضع أسسها راما الرابع ، الذي كان من الحكمة بحيث فطن إلى الحاجة للاصلاح مع تمتعه بالحكم المطلق . وكان حصيفاً بحيث استخدم المعونة الأجنبية بنجاح دون أن يتورط في الحكم الاستعماري الذي يقترن عادة بوجود المستشارين الأجانب .

كان الملك « مونجكورت » قد بدأ حياته راهباً لمدة سبعة وعشرين عاماً قبل أن يرتقي العرش ، ودرس اللغة الانجليزية على يد المبشرين الامريكيين واللاتينية والرياضيات والفلك على يد الاسقف باليجوا . وقد عمل بهذه العقلية المتطورة على وضع خطوط الإصلاح ، كما لقي خليفته ابنه « شولا لونجكورن » مساعدة جدية فعالة في المهمة الاصلاحية الكبيرة التي اضطلع بها ، وصبغ البلاد بالصبغة العصرية مع احتفاظه بالاستقلال ، وقام بتغيير النظام الاداري القديم ، وأنشأ الوزارات والادارات ، ووضع أسس التربية والتعليم بإقامة المدارس ، كما أقام المستشفيات والمشاريع العامة ووضع القوانين التي تساير العصر الحديث . وقد ألغى راما الخامس الرق والسخرة في البلاد ، وألغى عادة الركوع والسجود أمامه تخفيفاً على الأجانب ، كما حرم تقليد الانبطاح على الأرض أمام الملك .

ونتذكر ما قالته المعلمة « أنا » في مذكراتها « عندما كان الشخص مهما بلغ مركزه يمثل أمام الملك . . فإنه ما يكاد يراه حتى ينبطح أمامه ويرفع يديه ملتصقتين فوق رأسه ويميل بجسمه إلى الأمام ثم يجلس وساقاه من خلفه ويبدأ في الكلام فيقول : إني ذرة من التراب تحت قدميك المقدستين . . وإني طوع أمرك أتلقى أوامرك ايها السيد المقدس . أما الموظفون والحاشية فيزحفون بجوار الزائرين ورءوسهم محنية ويقدمون لهم الطعام وهم راكعون ، ولا يستثنى من ذلك زوجات الملك وأبناؤه » . وقد انتهى كل ذلك بصورة معقولة في عهد راما الخامس .

الآن . . ندخل القصر الملكي دون أن نزحف أو نركع أو ننبطح على الأرض . الشرط الوحيد الذي

يطلب من الزائرين هو أن يكونوا في أزياء محتشمة وملابس محترمة كاملة وأن يمتنعوا عن التدخين وإثارة الضجيج فالقصر ما يزال له قدسيته بالرغم من أن الملك الحالي بوميبول قد انتقل منه الى قصر آخر في أعقاب توليه الملك بعد مقتل أخيه الأكبر الملك أناندا عام ١٩٤٦ بشكل مأساوي لم يعرف معه هل كان الحادث مصادفة أم انتحاراً أم جريمة قتل . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد القصر مقراً لإقامة الملك ، واكتفى بأن تقام فيه بعض الاحتفالات الرسمية التى يحضرها الملك ، أو ليتلقى أوراق اعتماد سفراء الدول .

ويسمح لنا فقط بدخول جناح الاستقبال الملكى الذى أنشأه الملك راما الخامس ، وخصص قاعاته لإحياء الذكرى السنوية لملوك أسرة شاكرى . الجناح يمثل مزيجاً من الفن الهندسى التايلندى والغربى ، والأسقف تتميز بالطراز الفنى التائي بينما الجدران وزخارفها تتفق مع الطراز الفيكتورى الانجليزى . وفى وسط كل قاعة عمود يحمل صندوقاً ذهبياً يحتفظ فيه برماد ملوك شاكرى السابقين . أما القاعات الرئيسية فتضم بالإضافة إلى لوحات لأبرز الفنانين العالميين صوراً زيتية ملونة لملوك أسرة شاكرى وصوراً لرؤساء وملوك الدول الذين استقبلهم الملك راما الخامس والتقى بهم في رحلاته خلال عهده الذى استمر حوالى أربعين سنة . ويتوسط المبنى الرئيسي قاعة العرش حيث يستقبل الملك سفراء الدول الاجنبية وهو جالس على عرشه الذهبي الذي تظلله تسع مظلات بيضاء مزخرفة صنعت خصيصا للملك شولا لونجكورن . الى الغرب من جناح الاستقبال الملكي يقوم الجناح الأقدم الذي أنشأه أول ملوك شاكري عام ١٧٨٩ . المبنى نموذج رائع للفن التقليدي السيامي بأفاريزه الأربعة الخارجية التي يعلو بعضها البعض فوق تسع طبقات متراكبة أسطحها موشاة بالذهب مشكلة على هيئة الأفعى الملكية . أما الشرفة الخارجية فيتوسطها العرش الذي كان يجلس عليه الملك راما الاول خلال الاستقبالات الرسمية المفتوحة .

في القسم الخلفي من الجناح الملكي يوجد باب يقود الى الأقسام الممنوعة . ويضم جناح الحريم مقر إقامة زوجات الملك . ولم يكن يسمح لغير الملك باجتياز هذا الباب الذي يخفي وراءه حدائق وأشجاراً ومقاصير رائعة الجمال . وحتى الآن فليس متاحاً لأحد زيارة جناح الحريم الحالي إلا مرة واحدة في السنة حين يستقبل الملك الدبلوماسيين الأجانب في احتفال للزهور بمناسبة ذكرى مولده .

زمردة بوذا

ونتنقل الى المعبد الملكي الرسمي ـ معبد وات براكيو ـ أو معبد بوذا الزمردي حيث يؤدي الملك طقوس عباداته . المعبد يشكل قصراً منيفا تحيط به جدران عالية مثل أديرة التبت البوذية ، يستقر فيه تمثال بوذا الزمردي أو « زمردة بوذا » . المشهد داخل المعبد مثير غريب . . .

تمثال زمردة بوذا أحضر الى بانجوك بعد سلسلة من المغامرات الاعجازية ، وهو أشهر تمثال من نوعه في الوقت الحالي والقسم به معناه أقدس قسم . والتمثال نفسه صغير مصنوع من قطعة واحدة من حجر الزمرد (اليشبي) وهو مستقر في مؤخرة المعبد ، وقد ركب فوق قاعدة ذهبية عالية تحيط به تماثيل ذهبية لبوذا وهو واقف ، في حين تمثل المظلات الصغيرة التي وضعت إحداها فوق الأخرى مع صغر حجم كل طبقة علوية عن الطبقات السفلى . وأمام المظلات توجد أشجار ذهبية وفضية صغيرة في علب زجاجية مقدمة من أمراء لاوس تكريما لملوك تاي ، أما هدايا الاسر الحاكمة الاخرى التذكارية فهي متناثرة بلا نظام هنا وهناك .

على إطارات نوافذ المعبد الداخلية نتابع قصة حياة بوذا منذ مولده حتى صعوده الى (النيرفانا) وهو السمو الأعظم . وهو الذي يرمز اليه تمثال بوذا في وضع اللوتس ، على حين تشير يده الأخرى إلى الأرض . وزهرة اللوتس هي أجمل الزهور تفتح بتلاتها فوق الماء وتعني النقاء النابع من العالم المادي . ويجلس بوذا على عرش من اللوتس وعلى وجهه تعبير الرصانة والرحمة والسلام .

المعابد والرهبان

ليس معبد بوذا الزمردي إلا واحداً من حوالي ثلاثمائة معبد موجودة في بانجوك . ومن خلال مشاهدتنا لكثير من المعابد لاحظنا أن مبانيها الرئيسية عبارة عن أسقف من ثلاث أو أربع طبقات متراكبة ،



الرقص التقليدي عبادة عند التايلنديين وتقدم عروضه في كل مكان والراقصة تؤدي الرقصة بجسدها وأصابعها وحركات جسدها ويديها مثل أنغام والخلاخيل والشخاليل في قدميها الحافية

وأفاريز أسطحها الموشاة بالذهب مشكلة على هيئة ناجا وهي الافعى الملكية ، في حين تتولى تماثيل الاسود حراسة مدخل المعبد .

وتنتمي الروعة الخارجية والفخامة التي تتصف بها أبنية المعابد وزخارفها إلى عالم خيالي . . ففي أحد الجوانب نشهد تمثال « الجارودا » الذهبي الذي يرمز الى أسطورة فشنو وهو نصف رجل ونصف طائر . وفي الجانب الآخر نرى تماثيل عمالقة ارتفاعها لا يقل عن ثمانية أمتار مطلية بألوان زاهية لها وجوه عابسة متوحشة وأنيابها بارزة . ويرتفع برج ذهبي رئيسي في الهواء على أبراج موشاة بالذهب مدرجة تضيق كلما ازداد الارتفاع ، في حين تقرع نواقيس المعبد مع حركة الهواء . .

في « وات أرون » أي معبد الفجر نلاحظ أنه ذو طابع معماري تقليدي بأبراجه المدرجة المرتفعة ، وارتفاع أعلى أبراجه لا يقل عن ثمانين متراً . أما « وات بو » وهو معبد بوذا المضطجع فنجد تمثاله ضخماً من الطوب والاسمنت المسلح ومغطى بطبقة من الذهب ويبلغ طوله ١٥٠ مترا وارتفاعه نحو ٤٠ قدما . ونلاحظ أن زخارف المعبد الرخامية صنعت على شكل أشخاص ومناظر من أسطورة رامايانا . وكنا نرى الصبية الصغار وهم منهمكون في إعداد دهانات من أوراق الأرز والزيت يبيعونها بسعر رخيص للزائرين الذين تشغلهم تماثيل الحراس الصينيين ، والاسود وغيرها من الوحوش في مختلف جوانب المعبد .

وفي « وات بنكاما بوتت » وهو معبد الملك شولا لانجكورن نعرف أنه بني في السنوات الأولى من هذا القرن . وهو مهيب المنظر مشيد من المرمر الأبيض وأسقفه مصنوعة من البلاط المزجج . . ونجد تماثيل لبعض الفنانين داكنة اللون مركبة على أفاريز الأسطح ، وقد وضعها البناءون الصينيون الذين لم يستطيعوا مقاومة الاغراء بإضافة ما يدل على إسهامهم في العمل ، على حين تنسجم النوافذ المزخرفة باللونين الذهبي والأحمر مع المرمر الأبيض الذي يزين الجدران .

ولا نستطيع أن نتجاوز معبد « وات سوتات » الذي كان يستخدم ملاذاً للناس عند ضرب المدافع لبانجوك خلال الحرب الاخيرة . . فالمثير هنا أن وراء جدران المعبد تقام مهرجانات للالعاب السحرية والبهلوانية في موسم أعياد الحصاد التقليدية ، وتجري الألعاب من حول تماثيل بوذا الرائعة المتناثرة بمختلف الأحجام والمواد ، بينما الرهبان الدارسون يروحون ويجيئون وهم يتذاكرون القواعد والتعليمات التي يبلغ مجموعها أكثر من مائتين ، وأهمها « الفقر والعزوبة وعدم استخدام العنف » . . ويقول لنا مرافقنا أن هؤلاء الدارسين من الرهبان يدركون أن كل راهب يستطيع العودة الى العالم إذا شاء حيث لا كهنوت أو كنيسة بالمعنى المفهوم في المسيحية . وكل رجل يلقى تشجيعاً ليصبح راهباً لمدة ثلاثة أشهر عادة ولمرة واحدة على الأقل في أثناء حياته ، ويكون ذلك عادة في شبابه قبل أن يتزوج . وتمنح الحكومة والقوات المسلحة رجالها أجازة بمرتب ليدخلوا « الدير » حيث يحظى الرهبان الدارسون بإحترام كبير ويعرفون بإسم « بهارا » وهو تعبير يدل على الانتماء للملكية أو التقديس .

ويضيف مرافقنا : هناك رهبان أشرار وآخرون أخيار بالطبع ، بين ذلك العدد الكبير الذي يتجاوز ربع مليون ، يقيمون في حوالي ٢١ ألف دير قائمة في تايلند وبعض الرهبان كسالى وبعضهم الآخر يشترك في التآمر وإن كانوا ليسوا رهباناً سياسيين كالحال في بورما وسيرلانكا . وهناك فريق منهم جهلاء يؤمنون بالخرافات ويملأون عقول الناس بالمخاوف غير العادية حول الأرواح والأشباح . وهم يستغلون المعتقدات الشعبية بأن البلاد مملوءة بأشباح القتلى أو الذين افترستهم الحيوانات الضارية أو النساء اللاتي أسلمن الروح وهن يلدن ، أو الرجال الذين ماتوا بعيداً عن الوطن . . وكذلك ضحايا الكوليرا والأمراض المميتة . . وهذه الاشباح الشريرة يصعب إرضاؤها . وهم يتصورون أن بعض الأرواح أو ما تحدثه من خدوش يمكن أن تسبب المرض الذي يكون مميتا في بعض الاحيان (ويجري الآن إبادة هذه الأرواح بإستخدام مادة ال د.د.ت) وتقود بعض الأرواح المسافرين الى طريق الحيوانات الضارية ، أو تستدرجهم الى المهاوي ، وبعضها تسحر الرجال الشديدي الحساسية بجمالها الأخاذ ثم تفتك بهم فيما بعد ، والبعض الثاني يقتل ويصيب بالمرض كل من يسرق نفائس الكهوف أو المعابد . كما أن هناك فريقا

ثالثا! يخيف الاطفال في الظلام . وقد لاحظنا أنه في معظم البيوت هياكل مبنية على شكل معابد صغيرة مطلية بالالوان الزاهية ومركبة على عمود وبداخله تمثال منحوت لاله وحوله تماثيل من الجص لجياد أو ماشية أو عبيد وهبوا للاله مقابل خدمات أو أمنيات تحققت ، تحيطها الزهور وأعواد البخور والفاكهة والأرز . ومع أن سكان بانجوك لا ينظرون الى هذه الهياكل نظرة جدية إلا انهم ما زالوا يتبعون هذا التقليد وذلك لتجنب المجازفة بإغضاب الآلهة والارواح . . !

المدينة ذات المائة وجه

الجولة في شوارع بانجوك لا تخلو من متعة مادمت تعرف أنك تتجول في المدينة ذات المائة وجه الزاخرة بالمتناقضات .

في البداية ، نقف عند حجر الأساس لمدينة بانجوك بالقرب من مبنى وزارة الدفاع ، الحجر عبارة عن عمود قائم داخل نصب على هيئة هيكل يسمى « لاكموانج » أقامه الملك راما الأول عند تأسيسه لعاصمته الجديدة . ندخل الى الهيكل وسط زحام من الزائرين الذين جاءوا يغمرون النصب بالأزهار والورود وقرابين الارز والطعام والفواكه ، وهم يشعلون الشموع والبخور وباقي مستلزمات الطقوس البوذية . والاعتقاد السائد بين هؤلاء هو أن من يزور هذا الهيكل تتحقق له رغباته وأمنياته ، وبخاصة الفوز بجائزة اليانصيب الوطني أو على الأقل الانعام بالانجاب على الزوجة العقيم . وينفتح الهيكل على غرفة جانبية تقدم فيها عروض موسيقية تقليدية راقصة تؤديها فرق شعبية أو رسمية يستأجرها من تحققت لهم أمنياتهم فيجيئون لتقديم الشكر لروح « لاكموانج » . ولا نكاد نغادر الهيكل حتى نفاجأ بمجموعات من الأطفال تحمل أقفاصا بها عصافير ملونة للبيع ، ولكن المشترى لا يدفع الثمن مقابل الحصول على الطائر ، إنما لفتح باب القفص وإطلاق العصفور في الجو بين تهليل الناس وإظهارهم البهجة بتحرير الطائر السجين حسب المعتقد البوذي !

غير بعيد من النصب التأسيسي نجد أنفسنا وسط السوق الكبير الفسيح المسمى « سانام لوانج » . في هذا السوق تستطيع أن تشتري أي شيء يخطر على بالك . خليط غريب من البضائع رخيصة الثمن . . ملابس وبلوزات وجينزات أمريكية وهدايا وعطور وحقائب من جلد الثعبان وأجهزة تسجيل ، كلها تباع على عربات يد أو مفروشة على الأرصفة . الى جانب ذلك نجد باعة الأرز الحار والتوابل ، بجوار بائعة البط والدجاج والفئران الملونة ، جنباً الى جنب مع باعة السيوف والسكاكين والأواني المنزلية . وغير بعيد منهم نجد بائعة القطط السيامية الشهيرة تحيط بها السائحات المغرمات بهذا النوع للفرجة أو للشراء ، ونطل الى حلقات من الشباب تصيح وتهتف فإذا بهم يتحلقون لمشاهدة مباراة في الملاكمة بالأرجل أو قتال للديوك او الأسماك أو الصراصير . . !

الشوارع المحيطة بالسوق تضم المراكز التجارية النشطة المتخمة بالبضائع المعروضة بشكل أكثر تشويقاً ، وأغلبها يبيع الأوعية الفضية والحلي وعلب السجائر الفضية والمجوهرات والتحف التقليدية التايلندية وجلود التماسيح وأنياب الفيلة والتماثيل المصنوعة من خشب الساج . في شارع تشادفونين أطول وأقدم شارع في المدينة ـ وكان من قبل طريقاً للفيلة ـ نشهد خليطاً عجيباً من الدكاكين ذات الشرفات الصفراء والبيضاء تبرز منها مظلات مصنوعة من التيل أو القماش القطني ، تحمل إعلانات ذهبية اللون . هذه المظلات تفصل الحوانيت عن المنازل التي تعلوها في الطابق العلوي ، وتتخلل محلات البضائع حوانيت للحائكين الذين يفصلون ملابسك فوراً وحسب الطلب وبأرخص الاسعار . وتتناثر المطاعم والنوادي الليلية وهي في أغلبها صينية الى جانب حوانيت العقاقير المصنوع بعضها من طحين قرون الخرتيت والثعابين والضفادع المجففة والأعشاب البرية والمساحيق الغريبة والسموم الخطرة التي تصرف بدون تذكرة طبية مثلها مثل الأدوية المقلدة بلا تصريح .

بين القديم والحديث

الصورة البارزة أن حركة التطور واسعة في المدينة . فكلما زرت بانجوك بين فترة وأخرى على مدى سنوات ، تستطيع أن تشهد تغيرات كبيرة في معالمها ومبانيها وتطورها . والذي شهدناه في بانجوك قبل سنوات أحسسنا كأنه قد اختفى في الأيام

الأخيرة ، حيث تبدلت الصورة وبخاصة من ناحية العمران . كانت المعابد البوذية أبرز المعالم المميزة ترتفع بأبراجها الجميلة المزخرفة وأفاريزها المذهبة ويمكن مشاهدتها من أي مكان . هذه المعابد وأبراجها أخذت تختفي عن العيون وراء المباني الخرسانية والأبراج العمرانية بجدرانها الزجاجية التي ازداد عددها في السنوات الاخيرة . فالنمو الاقتصادي السريع وانخفاض أسعار الفائدة وعدم الاستقرار في سوق الأوراق المالية المحلية وانهيار العديد من المشروعات الاستثمارية شجع رجال الأعمال حديثي الثراء على الاتجاه الى الاستثمار العقاري ، وانتشرت المباني الحديثة بسرعة مذهلة .

ولكن هذا العمران الحديث إذا كان واضحا في وسط المدينة بالمباني العصرية العالية والطرقات المرصوفة الواسعة ، إلا أن المدينة القديمة وشوارعها الخلفية تبدو في صورة مناقضة تماماً . فالطرقات في أغلبها غير ممهدة ، والمرصوف منها مليء بالفجوات والحفر ، والبيوت مقامة من خشب الساج الذي كان ذات يوم جميلاً بزخارفه ، ولكنه أصبح الآن كئيب المنظر متآكلا مع مر الزمن . وأغلب البيوت وخاصة المطلة على القنوات وجوانب الأنهار وحول خطوط السكك الحديدية والطرقات التجارية مقامة على أعمدة ترتفع حوالي مترين من الأرض ومسقفة بأعواد البامبو وأوراق الشجر وسعف النخيل الجاف . وعند مداخل البيوت درجات غير زوجية العدد لمنع الأرواح الشريرة من دخول المنزل . ويؤدي السلم الى الشرفة أو الى الطرق الرئيسية مباشرة . وتجلس النساء والاطفال عند مدخل المنزل أطول فترة من النهار للمراقبة والانتظار ، بينما تعيش الخنازير والدجاج تحت المنزل . أما البيوت الأخرى فترتفع فوق قوائم من الاسمنت المسلح أو الطين .

هنا في هذه الأحياء الفقيرة تماما كما في القرى تتم التجارة في كل شيء . . الملابس القديمة والأحذية العسكرية البالية والأواني المستهلكة ، جنبا الى جنب مع المنتجات التقليدية والملابس المطرزة والأقمشة ذات الألوان الصارخة ، ثم أنواع الفاكهة والخضراوات والأرز المطبوخ . ومن هنا أيضا يخرج الاطفال المشردون والهائمون على وجوههم يعرضون خدماتهم في الشوارع التي يرتادها السياح ويبيعونهم عطورات الياسمين والزهور ، وينطلق بعضهم الآخر مع السماسرة الذين يسوقونهم إلى سوق الرقيق حيث يباع الإنسان بأبخس الأثمان . . !

حمى المنافسة

اللافت للنظر في بانجوك أن الصينيين أو التائيين من ذوي الأصل الصيني يكادون يشكلون أكثر من نصف سكان المدينة . بل إن جميع سكان منطقة الاعمال تقريبا من الصينيين . والواقع أن عدد الصينيين في تايلند يزيد عن عدد الذين نجدهم في أي دولة اخرى في جنوب شرق آسيا . وهم إلى جانب الهجرات المتتالية التي انطلقوا خلالها من الصين الأم الى هذه المناطق ، كان الطلب يزداد عليهم في مجالات البناء والإنشاء وكعمال للموانيء وزراع للارز ومضاربه ، كما اشتد الطلب أيضاً على زملائهم عمال الطرق وعمال المتاجر والمكاتب نظراً للنقص المستمر في العمال التائيين المتخصصين ، لأن هؤلاء يفضلون الاستمرار في الفلاحة على الاعمال الاخرى . ولكن مع ظهور القومية التائية خلال الخمسين سنة الماضية ، اتخذت الاجراءات الحازمة ضد الصينيين الوافدين وضد التعليم الصيني ، وأغلقت مدارسهم الثانوية وقيد تعليم اللغة الصينية في المدرسة الأولية ، واستبعد الصينيون من بعض الاعمال التي خصصت للتائيين الاصليين مثل أعمال صناعة الطلاء والعمل في الغابات وبيع الفحم الحجري وقص الشعر وقيادة مركبات الساملور وسيارات الاجرة والاوتوبيس ومن زراعة الارز وصناعة الملح . كما حرم على الصينيين منافسة التائيين في صناعة مذابح بوذا وتصنيع الأوعية التي يستخدمها الرهبان .

ومع ذلك فإن الصينيين أو التائيين ذوي الأصول الصينية هم الأكثر بروزا في شوارع وأسواق بانجوك . وهم يقومون بمعظم عمليات البيع من شارع لآخر بأسعار رخيصة . ومع ذلك فإن التائيين يعملون على منافستهم وخاصة في ميدان بيع الأطعمة الخفيفة ومستحضرات اللحوم والتمر هندي المحلى بالسكر وجوز الهند والكعك والموز المقلي وعجة البيض وغيرها .

وبمناسبة الطعام فإن كلمتي الأرز والطعام مترادفتان عند التائيين . وكما يقولون من خلال ترديد







في حديقة الزهور تقدم ألوان متباينة من الفنون التقليدية التائية . . . أبرزها عروض الرقص التي تمثل مختلف القوميات التي يتشكل منها سكان تايلند كما تبدو في الصورة الاولى . . . أما الصورة الثانية فلعرض الفيلة وهي تتنافس وتثبت قدرتها في المصارعة وحمل الاثقال وتحطيم الحواجز . . بينما الصورة الثالثة لرقصة البامبو التي يمارسونها خلال أعياد الحصاد .



الشوارع واسعة في مدينة الملائكة ، حيث تتداخل السيارات وتتسابق بغير روية أو حذر من جانب سائقيها ..
ومع هذا فإن مسلة « تمثال النصر » في وسط الميدان الرئيسي تذكر الجميع بالانتصار على القوات الفرنسية في الهند الصينية عام ١٩٤١ .



الأفكار البوذية « إن سعادة الناس تتوقف على أربع مواد : منزل يسكنون فيه ، وثياب يرتدونها ، وأدوية يعالجون بها عند المرض . . وطعام يأكلونه ليتمكنوا من مواجهة المواد الثلاث السابقة وأبرزه الارز » .

فالارز هو الطعام الأساسي . ولهذا يحرص الفلاحون على زراعته كمحصول رئيسي . والى جانب الأرز هناك أطعمة عادية مساعدة أبرزها السمك الى جانب صلصة الشيلاي وهي فاكهة ساخنة والجرجير والموز . . أما الفاكهة الأخرى فهي إما غالية جدا أو غير موجودة في متناول الفقراء . وتضيف صلصة السمك التي يسمونها « نام بلا » قوة وطعما للغذاء التافه بالنسبة للتائيين ، بينما الصينيون شرهون وبالاخص بالنسبة للحوم وأنواع كثيرة من السمك التي لا يستسيغها التائيون .

جندول البندقية

كل هذه الصور من حياة الناس لخصتها لنا جولة نهرية في بانجوك . ففي قارب يشبه جندول البندقية قمنا مع الصباح الباكر بجولتنا النهرية . الصورة مثيرة حقاً . عشرات الآلاف من السكان يمارسون حياتهم في القوارب والمنازل العائمة أو المنازل المحمولة على قوائم على طول شواطيء الأنهار والقنوات . وتشكل الأنهار وروافدها شبكة من الطرق المائية الصالحة للملاحة طوال العام . وعلى جوانب الشوارع المائية تقوم البيوت كما يتصل بعضها بالبعض بقناطر خشبية مقوسة . ووقفنا عند سوق صغير عند أحد أركان النهر واشترينا من البائعة العجوز موزاً مقلياً جربناه فوجدناه لذيذ الطعم . وكان هدفنا أن نصور المرأة بقبعتها المصنوعة من القش . والغريب أنها رفضت أن تأخذ ثمن الموز المقلي بإعتبار أنها قانعة بأن صورتها ستنتشر في العالم كله وتكون دعاية تجتذب السائحين لقاربها بالاضافة الى نشوتها بفلاشات آلات التصوير . . بينما جاراتها في القوارب الاخرى كن يطلبن البقشيش مقابل السماح بالتصوير .

على امتداد شواطيء القنوات كانت القوارب مختلفة الأشكال والالوان والمظلات أيضا تصطف وفي كل قارب امرأة تعرض ما لديها من بضاعة ، فواكه وخضراوات وأدوات منزلية ، بينما القنوات الرئيسية والانهار تتسع لجميع أنواع اللنشات وقوارب الركاب و « السامبنس » التي تسير بالمجاديف وهي محملة بالفحم الحجري أو المواد المنزلية أو الفاكهة . وغالباً ما تطل الخضرة على جوانب القنوات فتكسبها منظراً رائعاً لأن الأشجار والحشائش توجد عادة حيثما يوجد الماء ، على حين تؤدي القناطر الخشبية الضيقة الى المنازل على الجانب الآخر .

مزرعة الافاعي

ونواصل جولتنا بين معالم بانجوك . .

على مدخل مزرعة الأفاعي الواقعة في شارع الملك راما الرابع في نطاق معهد باستير ، نجد مجموعة من النساء جالسات في انتظار خروج أزواجهن أو أخواتهن من المبنى الذي تقع فيه المزرعة . ونسأل إحداهن عن سبب الانتظار فتقول أنها ترفض مشاهدة الثعابين والحيات وهي تنفث السموم . وتقول أخرى أنها تخشى أن تلدغها الكوبرا فتموت كما ماتت الملكة كليوباترا منتحرة . وتقول ثالثة : من يدري فربما ثارت الأفاعي لتقذف سمومها التي يسبب بعضها الصمم ويتسبب بعضها الاخر في سقوط شعر الملسوع . . فماذا أفعل لو سقط شعري خلال ثوانٍ إذا لدغتني إحدى الحيات ذات الرأسين ؟!

يقول لنا مرافقنا ونحن في مزرعة الأفاعي أن الحكومة لم تقم هذه المزرعة وتهتم بها ليشاهدها السياح . ولكن الهدف الرئيسي منها هو تربية الافاعي والحيات للحصول على سمومها التي تستخرج من أنيابها وفق طريقة معينة ، ثم تعالج لتصبح أمصالا ولقاحات تستعمل في مجالات عديدة ويرسل أغلبها الى المناطق الريفية حيث حقول الارز التي تكثر فيها لدغات الأفاعي والثعابين . مزرعة الأفاعي تحتل مساحة تقع أسفل مجموعة كبيرة من أشجار الظل الضخمة ، حيث حفرت ثلاث حفر واسعة عميقة تضم مئات من الأفاعي السامة . وأبرز أنواع الأفاعي الموجودة في المزرعة « ملكة الكوبرا » التي يزيد طول بعضها عن أربعة أمتار ، بالاضافة الى أنواع أخرى من حيات الكوبرا والافاعي المتسلقة العصارة والحيات الخبيثة . وتستخرج السموم من

الأفعى بطريقة كانت لافتة لأنظارنا ، فقد أحضرت الافاعي « لحلبها » كما يقولون بواسطة اثنين من العاملين المدربين ، ينزلان الى الحفرة وكأنهما يذهبان للجلوس على مقهى للتسلية ، يلتقطان الأفعى من النوع المطلوب استخلاص سمه . ويمسك أحد الرجلين بكأس زجاجي فيقربه من فم الافعى أسفل النابين ، بينما يمسك الآخر برأس الافعى ويضغط على الجيوب السمية خلف العينين ، فعندئذ يخرج من النابين سائل أصفر يسيل داخل الكوب الزجاجي هو الذي يتم تحويله بعد ذلك الى مصل مضاد للدغات الأفاعي . المهمة في الحقيقة ليست سهلة . ويقول لنا أحد العاملين أن أحد ملوك الكوبرا ثار في أحد المرات لكثرة ما استخلص من سمه واستطاع أن يلدغ أحد العمال الذي أمكن إنقاذه من الموت بإعجوبة . أما كيف تتم المحافظة على المصل فإن السم فور استخراجه تحقن به جياد مخصصة لذلك من حظيرة قريبة من المزرعة . وعندما يجرى السم في دماء الجياد يتم الحصول على دمها بشكل دوري بعد أن تختبر فعاليتها . وبعد أن يتم التأكد من مدى فعالية السم المطلوب يجري فصل السم من دم الحصان ويتم تجفيفه وتجميده وإرساله الى المستشفيات المخصصة لعلاج لدغات الافاعي .

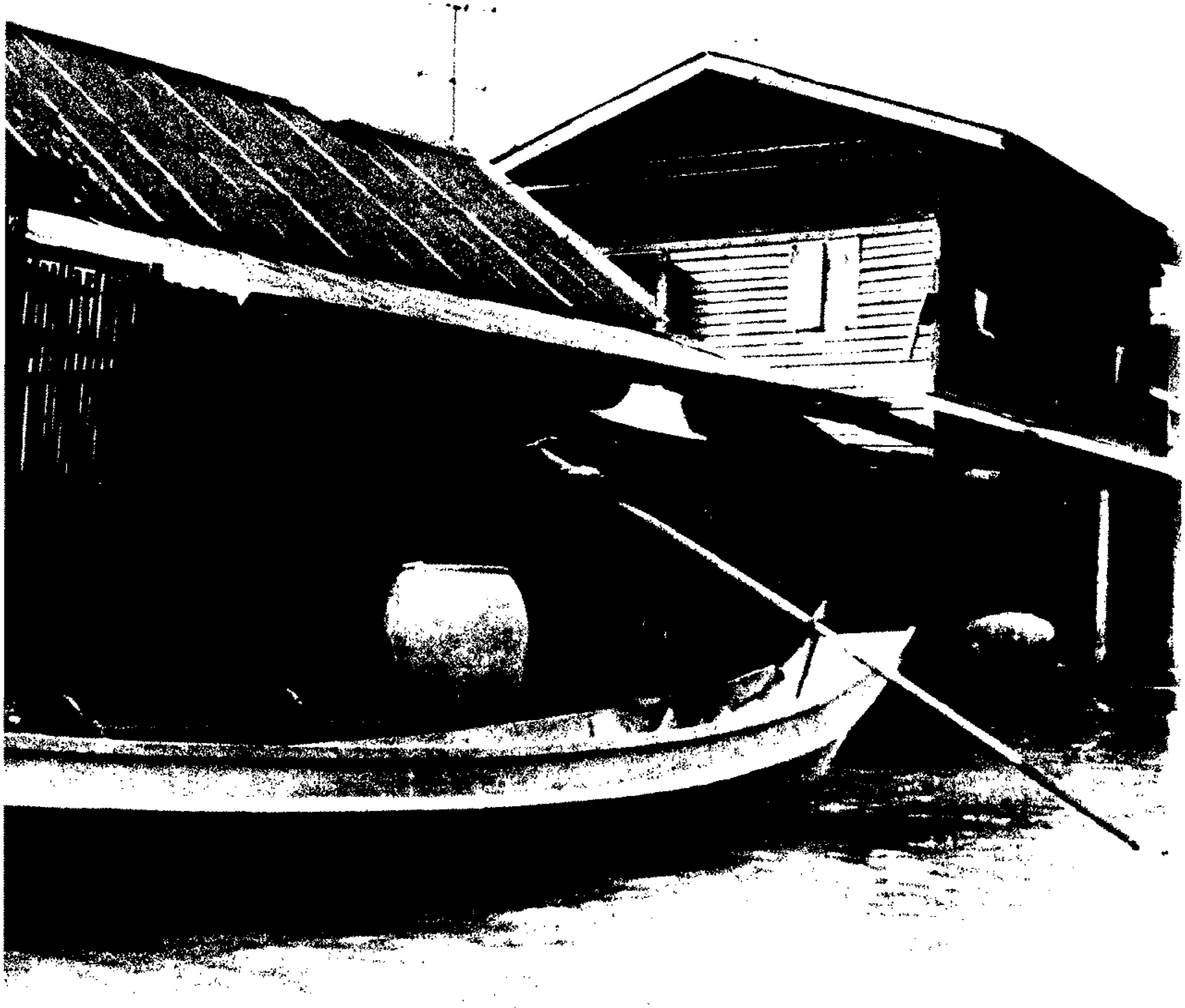
حديقة الزهور

على جانب نهر تاشان على مسافة ٣٢ كم بالسيارة الى الغرب من بانجوك نزور حديقة الزهور . الحديقة أقامها على نمط ديزني لاند أحد كبار محافظي العاصمة . تغطي الحديقة مساحة تفوق ٢٠٠ الف متر مربع ، وهي مليئة بالورود والزهور ، ويتوسطها فندق حديث مقام على الطريقة التقليدية التائية يضم حوض سباحة وملاعب للجولف وساحة للتجديف وتسهيلات للانزلاق على الماء ، بالاضافة الى قرية تقليدية تقدم فيها بعد ظهر كل يوم عروض الفلولكور التقليدية للسياح تتميز بالجمال وحسن الاداء .

مما يثير الانتباه في العرض التقليدي عرض « التاكرو » وهو نوع من الألعاب تشترك فيه مجاميع من الصغار والكبار يصطفون في حلقة دائرية ويتقاذفون فيما بينهم كرة يجب ألا تسقط على الأرض ويسمح لكل من اللاعبين أن يستقبلها بأي جزء من جسمه أو رأسه أو قدمه ولكن دون استخدام يديه .

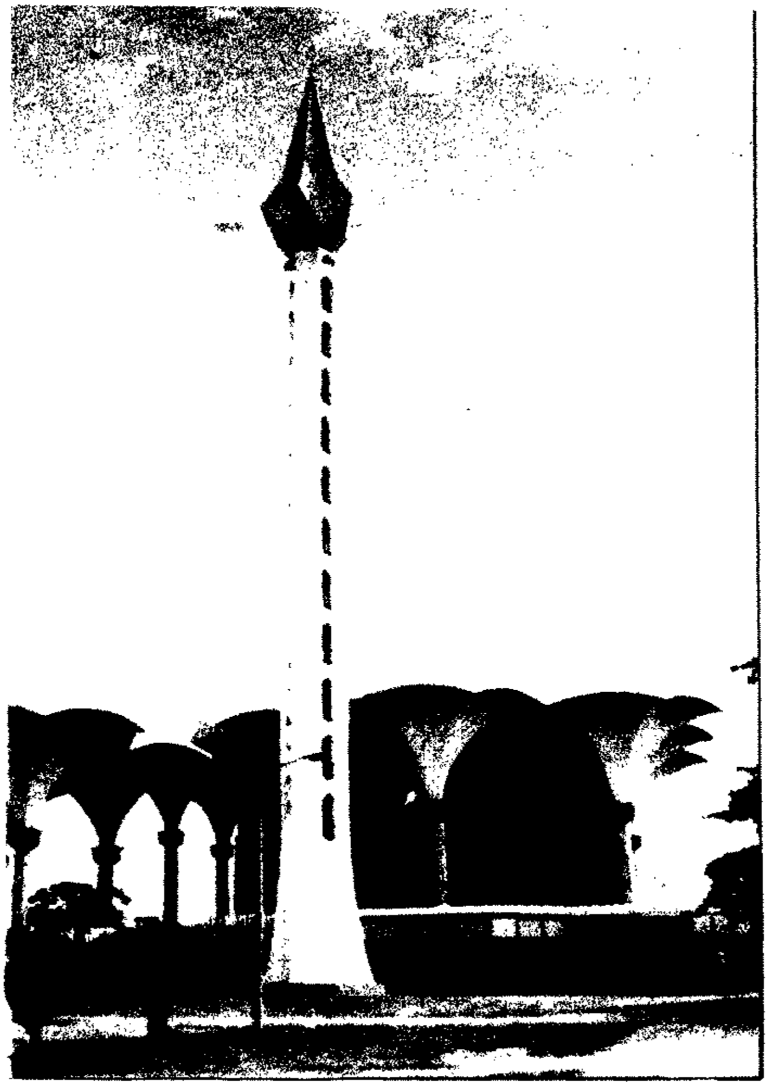
ولكن العرض العنيف الذي يشد الانتباه هو عرض الملاكمة التايلندية ، فليس هناك ضربات ممنوعة إطلاقاً ، ويستخدم الملاكم قبضته ويوجه لكمته الى قمة رأس خصمه او على مناطق منخفضة تحت البطن ، كما يمكن استخدام الرأس للنطح والأرجل للرفس . . والحلبة تشبه حلبات الملاكمة العادية ، والملاكمون حفاة نحاف الاجسام ذوو مستوى عالٍ جداً من اللباقة البدنية . وفي البداية يحيون الجماهير بالانحناء أمامهم بكل احترام ثم ينسحب كل ملاكم الى زاويته وهو يتمتم بدعاء ديني ، ثم يركعان ويسجدان بحيث يمس رأس الملاكم الارض ويكرران ذلك في الاتجاهات الأربعة . بعد ذلك تبدأ تمرينات الإحماء ، كل ملاكم في زاويته يلاكم أو يرفس خصماً وهمياً . وبعد أن تعزف فرقة موسيقية مقطوعة صغيرة تبدأ المباراة ، ويشهد المتفرجون حركات غاية في الرشاقة والسرعة في الهجوم والدفاع والرد على الضربات بقسوة ووحشية . وتأتي الضربة القاضية عندما يتمكن أحد الملاكمين من رفس خصمه في مكان حساس فيسقطه أرضا ويتابعه بالضربات على رقبته بكعب قدمه الحافية . ويظل الخصم المهزوم فاقداً وعيه لعدة دقائق . هذه اللعبة ذات شعبية كبيرة خاصة في الريف حيث أنها الوسيلة الممتعة لقضاء سهرة جميلة بعديوم شاق من العمل في الحقول . !

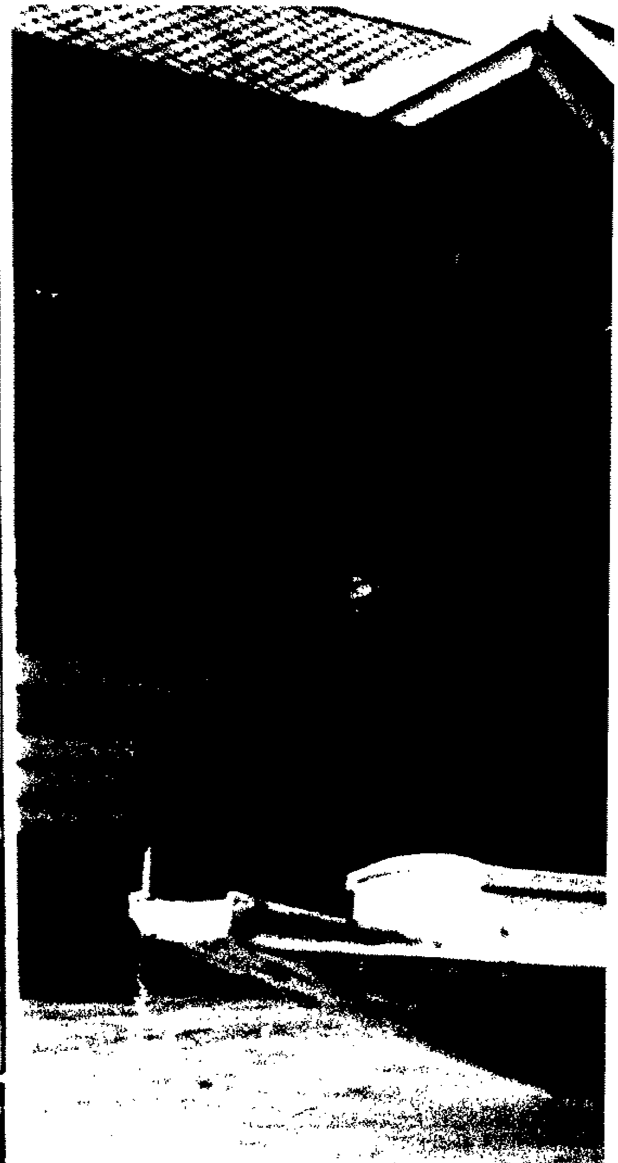
هناك عرض آخر مثير يسمونه « لوتشينج تشا » . فيتم نصب أربع أرجوحات بإرتفاع حوالي خمسة عشر متراً ، وكل أرجوحة عبارة عن عمود من الخشب موضوع بشكل أفقي ومعلق من وسطه بحيث يتأرجح صعوداً وهبوطاً كالميزان . ويشترك في اللعبة ثمانية رجال فيجلس كل لاعبين في أرجوحة كل منهما عند أحد طرفيها . وعلى هؤلاء اللاعبين أن يرتفعوا في الهواء وأن يلتقطوا محفظة مملوءة بالنقود معلقة فوق رءوسهم بخيط وقضيب من الخيزران . وعلى اللاعب عند ارتفاعه الى أعلى أن يستخدم أسنانه فقط في اقتلاع المحفظة من مكانها لتكون له لا ينازعه فيها أحد . وبالطبع يتعرض اللاعبون لخطر السقوط من ارتفاع كبير . وإذا سقط أحد اللاعبين













البندقية الجديدة (الى أعلى) . . بطرقها المائية التي تخترق المدينة وقوارب الخضراوات والفاكهة وبائعاتها من النساء (والى اليمين) يبدو مبنى معهد باستير حيث مزرعة الأفاعي وسمومها . . التي ترفض النساء الدخول اليها (والى اليسار) مسجد بانكوك ومئذنته أمام مقر المركز الاسلامي . . والمسئول عن الشئون الثقافية يتابع كتب التفسير والحديث في المكتبة الرئيسية للمركز . .

من طرف العمود فإن اللاعب الآخر على العمود نفسه يفقد توازنه ويسقط أرضاً . هذه اللعبة ترتبط بموسم حصاد الأرز .

العرض في حديقة الزهور يستمر أكثر من ساعتين تتخلله رقصات تقليدية تمثل مختلف القوميات التي يتشكل منها سكان تايلند . وأبدع هذه العروض مشاهد حفلات الزواج التقليدي . ومع نهاية العرض نتجه الى حيث تقوم الفيلة بعرض آخر تثبت فيه قدرتها على حمل الأثقال على ظهرها ، ومقدرتها على جر هذه الاثقال وقلع الأشجار وتحطيم بعض الحواجز . وهذا العرض يعتبر بسيطاً الى جانب ما يجري في سباقات الفيلة حيث يشترك في السباق عشرة من الفيلة في المباراة ، ويقف على ظهر كل فيل سائسه وقد أمسك حبلا في يد وسوطاً في اليد الاخرى . ومع بدء السباق تجري الفيلة في تثاقل ثم تسرع في جريها تحت ضربات السياط التي تثيرها فتجعلها تقتتل مع بعضها البعض ، ويحاول كل فيل إسقاط الفيل المجاور له ويطيح به أرضا مستخدماً خرطومه للاخلال بتوازنه . ويتم في النهاية توزيع الجوائز على الفائزين من السياس . كما نشاهد القردة وهي تقطف جوز الهند من الاشجار وعادة ما تكون قد دربت بشكل جيد على ذلك بتقليد صاحبها ، فعندما يقذف المدرب القرد بجوزة هند من على الأرض يفعل القرد ذلك ولكن من فوق الشجر .

عروض فنية رائعة أخرى نشهدها في مختلف الفنادق والملاهي في بانجوك . لا يخلو فندق من الفنادق الكبيرة من قاعة رئيسية تقدم فيها الرقصات التقليدية والموسيقا ومباريات الملاكمة بالأرجل . وأبرز هذه العروض تقدم في المطاعم الكبيرة وبخاصة مطعم شهير يعد من أكبر مطاعم العالم بمساحته الممتدة على أربعة هكتارات ويبلغ عدد مقاعده ثلاثة آلاف مقعد موزعة في أرجائه الواسعة بين أحواض الزهور والمساقط المائية والأشجار المورقة ، ويقوم على خدمة الرواد عمال وعاملات يتحركون على زلاقات لسرعة إحضار الطلبات .

أثار استغرابنا في احدى زوايا الحديقة الرئيسية زحام شديد لم نكد نقترب منه حتى عرفنا أن المشاهدين يتابعون مسابقة قتال الأسماك ، حيث ترتفع أصوات المراهنين والمضاربين تماما كما شهدنا من قبل في حلبات صراع الديوك . حلبة قتال الاسماك تقوم حول مائدة يبلغ طولها ستة أمتار يتحلق حولها المتفرجون وقد جلسوا على مقاعد منخفضة . على المائدة عدة أوان زجاجية مخروطية الشكل ، في كل آنية منها وضعت سمكة صغيرة من النوع الصيني ذي الذيل المشرشر المشهور بروحه العدوانية وحبه للقتال . وعندما تبدأ المباراة يقوم الحكم باغتراف سمكة من آنيتها بأداة تشبه الملعقة الكبيرة ويسقطها في الآنية التي تسبح فيها سمكة أخرى من نفس النوع .

وفي لحظة يضطرب الماء وتنقض كل من السمكتين على منافستها تريد عضها وانتزاع زعانفها ، وكلما استمر القتال وبدء الاجهاد على السمكتين توقفتا لهدنة مؤقتة ليعود القتال بعدها أشد عنفا بينما الصيحات والتصفيق يرتفع من المشاهدين . ولا يقل زمن المعركة المستعرة عن خمس دقائق وتنتهي بموت احدى السمكتين . وعندما تهبط السمكة المهزومة الى القاع تتابعها المنتصرة وتقتلع زعانفها وذيلها ثم تبدأ في نهش لحمها ، وتكافأ السمكة المنتصرة بإطعامها ببعض الديدان يقدمها لها صاحبها بعد أن يكون قد فاز بالرهان .

المسلمون بين مد وجزر

كل هذه الجولات لا تغني عن لقاء مع المسلمين في بانجوك . ونبدأ اللقاء مع الإمام المسئول عن الشئون الدينية شافعي عبدالقادر في مقر المركز الاسلامي الذي يحدثنا عن مسيرة الاسلام في تايلند ونشاط المركز في بانجوك في نشر الثقافة الاسلامية وتعليم الطلاب والطالبات وخاصة انهم في الايام الاخيرة بدأوا يتعلمون لغة القرآن والتفسير السليم . بدأ الدين الاسلامي انتشاره أولا في شبه جزيرة الملايو ثم جاء الى بلاد سيام عن طريق التجار العرب الذين جاءوا للتجارة ونشر الاسلام معاً ، وفي عهد دولة « ايوتيا » حوالى عام ١٥٩٠ جاء تاجر مسلم اسمه الشيخ أحمد واستوطن البلاد وأقام مركزاً للتجارة في مدينة أيوديا حيث تمتع بتكريم الملك له بمنصب المسؤول العالي (وهو منصب رئيس الوزراء) ويعتبر الشيخ أحمد الجد الاول لبعض عائلات تايلندية الان .

أما المسلمون في جنوب تايلند فهم مواطنون

أصليـون ولم يتصل نسبهم الى التجـار أو الاجانب الذين هاجروا اليها . ويثبت التاريخ أنهم مواطنون محليون مقيمون في هـذه البقعة قبـل الميلاد وبعـدة سنــوات ، وأقــامــوا دولتـهم بـإســم « مملكــة لانكـاشـوكـا » ، وفي سنـة ١٦٧٥ أقـامـوا دولتهم الجديدة باسم « مملكة سرى ويشاى » ، واستمرت الدولة صاحبة نفوذ إسلامى قوى حتى أوائل القرن التاسع حيث غرست الديـانة الاسـلامية جـذورها داخل مملكة فطانى التى أسسها « برياتوانكو »الـذى عالجه طبيب مسلم اسمـه الشيخ سعيـد من مرض مميت أصيب به وكان شرطه لمواصلة العلاج هو أن يعتنق الملك الاسلام بعد شفائه .

ونكث الملك ثلاث مرات عن وعده بعد الشفاء ، فكان المرض يعـاوده ثانيـة حتى شفى تمامـاً في المرة الثالثة ، فأسلم هو وزوجتـه وأولاده وبناتـه وتبعه شعبه في اعتناق الاسـلام ، وأصبحت مملكة فـطانى مملكة إسلاميـة منذ ذلـك الوقت ، وتـوسعـت حتى شملت الـولايـات الجنـوبيـة كلهـا وهى « جـالا ، وفطانى ، وناريتواسى ، وستول » .

يؤكد الشيخ شافعى أن عدد المسلمين في تايلنـد يبلغ حوالى مليونى نسمة ثلاثـة أرباعهم في منـاطق الجنـوب . ويقـول إنهم يتمتعـون بمسـاواة كـاملة وبحرية مكفولة في ممارسة شئونهم الدينية والسياسية والتعليمية ويمارس عدد كبير منهم المناصب الهامة في مختلف المحافظات . إن فى بانجوك وحدها حـوالى ٢٠٠ مسجد من بين حوالى ٢٠٠٠ مسجد في تايلند كلها تدعم إقامتها الحكومة وبعض الدول الاسلامية التى تقدم منحاً دراسية كثيرة لأبنـاء المسلمين ولكن هناك حاجة الى المزيد من المعونات .

ولكننا نقرأ ونسمع أشياء أخرى ، من المسلمين أنفسهم ، سواء في مناطق الجنوب أو ممن زاروهم وتحدثوا عنهم ، فعددالمسلمين يتجاوز خمسة ملايين نسمة منهم أربعة ملايين في الجنوب وحده ولكنهم يلقون أسوأ المعاملات وبخاصة بعد أن أعلنت تايلند عام ١٩٠٢ ـ بعد حروب وغزوات ضد فطانى استمرت ٤٦ سنة ـ ضم فطانى واعتبارها جزءاً من المملكة ، وألغيت جميـع حقوق سيـادة السلاطـين الفطانيـين المسلمـين وآخرهم تنكـو عبدالقـادر . ومنذ ذلـك الوقت أصبحت فطانى منطقة تـابعة لمملكـة تايلنـد الكبرى . وحكمت الولايات الفطانية بشكل مباشر وعينت الحكومة حكـاما بـوذيين يحكمـون الجنوب المسلم . وبعد أحداث ١٩٣٢ ازداد الموقف سوءاً وفـرضت عليها يـد من حـديـد وأهملت مصـالـح الشعب ، ولجـأت الـدولـة الى استخـدام سيـاسـة الدمج ، وعوقت مشاريـع التنمية وبـرامج تـطوير الثقافة الاسلامية . وأدى كل ذلك الى قيـام حركـة الكفاح الشعبى من أجل الاستقلال بقيادة أحد علماء فطانى « حاج سولونج تؤمينا » وحـدثت اشتباكـات خـلال عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٨ وقبض عـلى الزعيم المجاهد وزملائه ، وهاجمت القوات التايلندية قرية « دوسـون بـور » وقتلت أربعمـائـة من الـرجـال والنساء ، وأحرقت مساكنهم ، وشردت ٢٥ عائلة في قرية بلوكـر ، وأغلقت المدارس الاسـلامية وقبض على بعض المسئولين فيها . وخلال السنوات التالية ازداد التعسف ضد المسلمين ، ومنع الشعب الفطانى من استخدام اللغة الملاوية مع وجوب التعامل باللغة التايلندية ، وجرى تهجير عدد كبير من البوذيين من الشمال وتوطينهم في الجنوب . وكان أغلب هؤلاء من الجنود الذين خاضوا حرب فيتنام .

قـال لنا أحـد شباب المسلمـين : في عام ١٩٧٥ قامت فرقة من المشاه البحرية بالقبض على خمسة أفراد من طلبة المدارس الاسلامية وأجبروهم على الركوع أمام تمثال بوذا ، ولما أبوا قتلوهم ورموهم في النهر ، وقام أهالى فطانى بمظاهرات شعبية ضخمة استمرت ٤٤ يوماً احتجاجاً على تلك الجريمة ، وطلباً للعدالة والحرية . واضطرت الحكومة لبذل الـوعود ولكن أخلفتها فيها بعد . ولكن الاضطهاد استمر حتى بلغ عـدد الضحايـا من المسلمين الأبريـاء الـذين قتلتهم القـوات التايلنـدية ٣٦ ألف ضحيـة ، وبلغ عـدد المهاجرين الفطانيين الذين لجأوا الى ماليزيا وحدها حوالى ٥٠ ألف شخص .

يقـول محدثنـا : بـرغم كـل مـا يقـولـون في النشرات الاعلامية عن المعاملة الطيبة والمساواة التى يتمتع بها المسلمون ، الا أن الاضطهاد ما زال يحيط بالشعب الفطانى ، ولا يمكن لهذا الشعب المسلم أن يقبل مواصلة العيش بلا معنى في وطن أجدادهم ، وهم يفتقـرون الى الاستقلال والحـريـة ، في بـلاد تستعمرهم وتسمى نفسها « أرض الاحرار » . □

أسواق القاهرة القديمة

د . قاسم عبده قاسم *

التسوق متعة للكثيرين ، والأسواق ملتقى اجتماعي يمكن التعرف من تكويناتها على الملامح الاجتماعية للشعوب ، وهذه رحلة سريعة ، ومشوقة ، لأسواق القاهرة في الحقبة المملوكية ، تثير مقارنة ممتعة فيما كان وما هو كائن ، وتفصح عن ملامح الحياة اليومية والاجتماعية للمصريين في عصر المماليك .

شهدت مصر مع بداية عصر سلاطين المماليك نموا سكانيا كبيرا . ويمكن تفسير ذلك النمو السكاني في ضوء حقيقة مؤداها أن القرن الأول في حكم سلاطين المماليك كان يمثل فترة سلام واستقرار الى حد كبير . ففي عصر المماليك البحرية الذي يمثل خط الصعود في تاريخ سلطنة المماليك ، كان النظام السياسي راسخا ، وكانت القوة العسكرية للدولة توفر لها الهيبة في الخارج .

ومنذ بداية ذلك العصر الزاخر بالاحداث تمكنت مصر من صد الهجوم التتاري الشرس قبل أن تستطيع هذه الجحافل الظالمة المدمرة اختراق الحدود المصرية . وكان معنى هذا نجاة جماهير المصريين من المذابح المرعبة التي اقترنت بغزوات التتار وبعبارة اخرى احتفظت مصر بمعدل ثابت للنمو السكاني . كذلك فان غزوات التتار دفعت بالكثيرين من سكان العراق والشام الى الهجرة والاستقرار في مصر . ومن الغرب جاءت هجرات اخرى ، اقل عدداً ، بسبب الظروف السياسية في بلاد المغرب الاسلامي ، وتدهور الموقف العسكري في الاندلس . كما تشير مصادر تلك الفترة الى بعض الهجرات المغولية والكردية والتركمانية الى مصر .

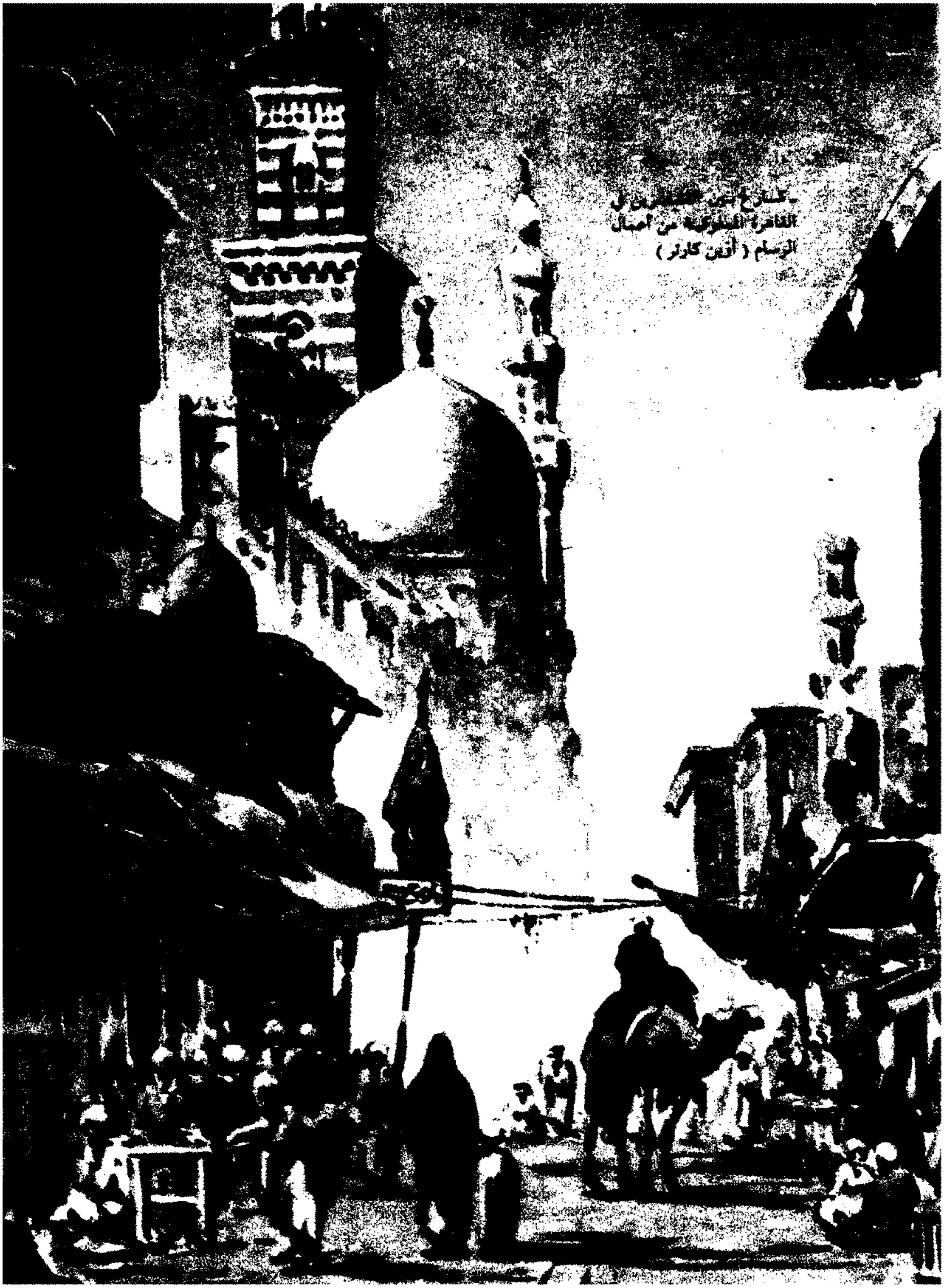
هذه الهجرات كان لها تأثيرها ، بطبيعة الحال ، على معدل النمو السكاني وتدور تقديرات الباحثين لعدد السكان في مصر كلها آنذاك حول الثلاثة ملايين نسمة ، بينما يقدر عدد سكان القاهرة فقط ستمائة ألف نسمة في الفترة نفسها . وقد ذكر المقريزي أن عدد قرى مصر آنذاك كان حوالي الفين وخمسائة قرية ، فاذا افترضنا ان عدد سكان القرية كان يتراوح بين الف وخمسائة والفين من السكان لبدا لنا الامر معقولا .

ابهى ما يشاهد في القاهرة :

على اية حال ، فان النمو السكاني انعكست نتائجه واضحة في أسواق البلاد المصرية عامة ، والقاهرة خاصة . وتميزت هذه الأسواق بكثرة عددها من ناحية ، ووفرة البضائع والحركة والنشاط فيها من ناحية اخرى .

والواقع الذي تكشف عنه مصادرنا التاريخية يبين لنا أن أسواق القاهرة في عصر سلاطين المماليك عرفت نوعا من التخصص في نوع البضاعة التي

* استاذ التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة الكويت ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة الزقازيق .



شارع بين القصرين في
القاهرة المملوكية من أعمال
الرسام (أوين كارتر)

يبيعها كل سوق . وهو ما يبدو متسقا مع طبيعة الحياة الاجتماعية في مصر آنذاك . فقد كان التقسيم الاداري لسكان القاهرة تقسيما يقوم على أساس النشاط الاقتصادي للسكان الى حد بعيد ، اذ كان أبناء كل طائفة حرفية يسكنون حيا ، عرف، في عصر المماليك بالحارة ، ينسب اليهم : مثل حارة المغربلين ، والصنادقية . . وغيرهم .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن أسواق المواد الغذائية كانت منتشرة في جميع انحاء العاصمة ، وهو أمر يتمشى بالضرورة مع توزيع التجمعات السكانية . وقد لفت انتباه الرحالة الاسباني « بيروتافور » ، الذي زار مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، هذا الرواج الذي تعكسه أسواق القاهرة فقال : « إن أحسن وأبهى وأروع شيء يراه المرء في القاهرة سوقها الذي تعرض فيه اكداس هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند . . . »

تخصص الاسواق :

وكان سوق باب الفتوح واحدا من أشهر أسواق القاهرة ، إذ كان الناس يقصدونه « . . من أقطار الارض لشراء انواع اللحم الضأن والبقر وشراء أصناف الخضراوات » كما يذكر المقريزي . كذلك عدد لنا المؤرخ ابن الصير في اصناف اللحوم والجبن التي كان المصريون يستهلكونها ، ويبدو من عددها الكبير مدى حال الرفاهية التي عاش المصريون في ظلها في بداية ذلك العصر .

أما الطيور والدواجن فكانت تباع في « سوق الدجاجين » الذي كانت تباع به طيور الزينة ايضا . كذلك كان بالقاهرة سوق مركزي للفاكهة هو « دار التفاح » او « دار الفاكهة » التي كانت الفاكهة المنتجة محليا والمستوردة من بلاد الشام ترد اليها ، لكي يتم توزيعها بعد ذلك على أسواق الأحياء والضواحي .

اما أسواق الملابس ولوازمها . فقد تنوعت أسماؤها حسب تخصصها . « سوق الشرابشيين » . مثلا تخصص في بيع ملابس الامراء والوزراء والقضاة ، وكان تجار هذا السوق يشترون الخلع والتشاريف من الصناع ويبيعونها لديوان الخاص السلطاني وللدواوين الامراء . كذلك تخصص « سوق الحوائصيين » في بيع الحوائص ، او الاحزمة التي كان الفرسان يلفونها حول خصورهم لوضع اسلحتهم فيها . وكانت هناك اسواق للفقراء مثل « سوق الخلعيين » الذي كانت تباع فيه الملابس المستعملة .

وفي القاهرة كانت هناك اسواق خاصة بلوازم القتال مثل « سوق السلاح » الذي تم انشاؤه في العصر الايوبي وكان قريبا منه « سوق المهامزيين » الذي كانت حوانيته تبيع المهاميز المستخدمة في الركوب ، و « سوق اللجميين » الذي كانت تباع فيه المعدات الجلدية مثل اللجام ، وكان مجاورا للسوقين السابقين وكان به عدد من صناع السروج وغيرها .

وكان هناك عدد من أسواق لوازم السفر في القاهرة آنذاك ، مثل « سوق المرحلين » الذي كان يزدهر ايام موسم الحج . وكانت تباع به ادوات تجهيز الجمال التي كانت وسيلة المواصلات البرية الوحيدة للمسافات الطويلة . وكان هذا السوق من الضخامة بحيث كان يمكن تجهيز مائة جمل في يوم واحد منه . وكان هناك سوق مشابه هو « سوق المحايريين » الذي كانت تباع فيه المحاير التي كان الناس يسافرون فيها الى الحجاز وبيت المقدس .

أما الاسواق التي كانت تباع بها حاجات الناس اليومية فكثيرة متنوعة . ومن أهمها « سوق الصنادقيين » الذي كانت تباع به شتى انواع الاثاث المنزلي مثل الصناديق والخزائن والأسرة . كذلك كان « سوق الشماعين » من الاسواق التي اتخذها القاهريون مكانا للنزهة المسائية على ضوء الشموع الكثيرة التي كانت تتوهج في أرجاء السوق الذي كانت حوانيته تظل مفتوحة الى ما بعد منتصف الليل .

وللأمكنة أسواقها :

ومن الملاحظ أن التطور السكاني لمدينة القاهرة في عصر سلاطين المماليك كان يقتضي حدوث تغيرات نوعية ومكانية ، بحيث تندثر بعض الأسواق القديمة وتنشأ أسواق جديدة ، كما ينبغي أن نلاحظ أن اسماء الأسواق لم تكن على الدوام مشتقة من نوع نشاط

السوق ، بل كانت هناك اسواق اشتقت اسماؤها من أماكن وجودها ، مثل « سوق جامع ابن طولون » ، و « سوق الخانقاه » ، و « سوق حارة برحوان » كما كان لبعض الاسواق أسماء اشتقت من اسماء بعض الجاليات التي سكنت القاهرة في ذلك الزمان : مثل « سويقة العراقيين » ، و « سويقة المغاربة » و « سويقة اليهود » . وقد حملت بعض الأسواق أسماء اشخاص مثل : « سويقة معتوق » و « سويقة ابن العجمية » و « سوق وردان » التي تنسب الى وردان مولى عمرو بن العاص وقد ذكرها المؤرخ « ابن دقماق » ضمن أسواق الفسطاط . وكانت لبعض الأسواق اسماء ريفية مثل « سوق البراغيث » ، و « سوق لحاف » ، و « سوق العياطين » .

ويبدو من كلام ابن دقماق والمقريزي عن أسواق عصر سلاطين المماليك أن هذه الاسواق كانت تقام في أماكن تسمح للسوق بمنافذ متعددة بحيث يسهل على رواد السوق الدخول والخروج . كما يتضح أيضا انه كانت لبعض الأسواق في القاهرة مخازن خاصة بها . وقد عرفت اسواق القاهرة ايضا نظام الصيارفة الذين كانت مهمتهم استبدال العملات وتغييرها لرواد الاسواق .

أسواق ارباب المقاعد :

والى جانب الاسواق التي انتشرت في ارجاء القاهرة عرف القاهريون الباعة الجائلين الذين كان بعضهم يفترش الارض في السوق ببضاعته ، على حين كان بعضهم الآخر يتجول بما يحمله من بضائع في شوارع القاهرة وأزقتها .

أما الباعة الذين كانوا يفترشون أرض الأسواق ببضاعتهم فقد عرفتهم مصادر تلك الفترة باسم « أرباب المقاعد » وكان اولئك يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات والفواكهة والخضراوات ، او الخواتم والاساور وغيرها من زينة النساء . نفي سوق السلاح كان اولئك الباعة من ارباب المقاعد يفترشون الارض امام حوانيت السوق ، فاذا اقبل الليل اشعلوا المشاعل التي تضفي على المكان جوا بديعا كان يغري الناس باتخاذ هذا المكان متنزها في امسيات الصيف . وفي القصبة - الشارع التجاري الرئيسي في القاهرة آنذاك - كان « أرباب المقاعد » يجلسون على امتداد الشارع « . . باطباق الخبز واصناف المعايش . . » على حد تعبير المقريزي .

وقد وجد بالقاهرة سوق باكمله لبيع أدوات الزينة النسائية ، وهو « سوق القفيصات » الذي كان الباعة يجلسون فيه ، تجاه القبة المنصورية ، وأمامهم تخوت عليها أقفاص صغيرة (قفيصات) من الحديد ، وقد شبكت عليها الخواتم والفصوص وأساور النساء وخلاخيلهن ، وما الى ذلك . وكان اولئك الباعة يستأجرون الارض التي يجلسون عليها ببضاعتهم من المشرف على البيمارستان (المستشفى) المنصوري الذي كان هذا السوق من أوقافه .

ويبدو من كلام المؤرخ « تقي الدين المقريزي » أن المنافسة كانت تشتد بين الباعة من « أصحاب المقاعد » الذين يفترشون أرض الاسواق من ناحية ، واصحاب الحوانيت من ناحية اخرى وكانت تتصاعد احيانا الى حد الاشتباك الذي يوجب تدخل الدولة .

أما النوع الثاني من الباعة الجائلين ، فكانوا يطوفون شوارع القاهرة وأزقتها (وهو مايزال من الامور المعتادة في القاهرة حتى اليوم) ، وكان هؤلاء ينادون على بضاعتهم باصوات عالية ، وبأغنيات وأهازيج في بعض الاحيان . ويطوفون الاماكن البعيدة عن الأسواق فتخرج اليهم النسوة من بيوتهن للشراء . كذلك كان بائعو الاقمشة والدلالات يدخلن البيوت لعرض البضائع على ربات البيوت .

مرآة لحياة القاهرة الاجتماعية :

وكان من الطبيعي أن تخضع الأسواق لرقابة الدولة التي اتخذت عدة اشكال ، منها وجود الموظفين المسئولين عن رقابة الاسواق . ومنها الضرائب التي كانت تفرض على ارباب السوق ، كما كانت تتدخل الدولة من آن لآخر لتنظيم الأسواق وتخطيطها

من ناحية اخرى ، ارتبطت أسواق القاهرة بالكثير من عادات المصريين وتقاليدهم كما كانت



ـ شارع من شوارع القاهرة المملوكية من أعمال الرسام (أوين كارتر)

تعبيرا عن جوانب هامة من الحياة اليومية في المجتمع القاهري آنذاك .

ففي داخل كل سوق من هذه الاسواق كانت تقام مجموعة من الحوانيت ، بيد ان صغر مساحة الحانوت كان يستدعي بناء مصطبة امام كل حانوت يجلس البائع عليها لمساومة المشترين ، او لتبادل الحديث مع زواره . ولذلك كانت الاسواق القاهرية من أهم مراكز الاخبار وصياغة الراي العام تجاة الاحداث الجارية .

وفي ذلك العصر جرت العادة ـ عموما ـ على أن تشتري النساء حاجاتها من الأسواق . وغالبا ما كانت النساء تمثل غالبية رواد الاسواق في بعض المواسم التي اعتاد المصريون الاحتفال بها . والجدير بالذكر أن بعض المعاصرين لتلك الحقبة كانوا يرون في خروج النساء الى الاسواق أمرا منكرا ، وكثيرا ما ثارت المناقشات في الدوائر الحاكمة ، بحضور النقهاء والقضاة لمنع النساء من ارتياد الاسواق ، خصوصا في اوقات الازمات الاقتصادية والأوبئة .

ومن مظاهر ارتباط الاسواق بعادات القاهريين وتقاليدهم الاجتماعية ، « سوق الحلاويين » الذي كانت تباع به التماثيل من السكر والتي اعتاد القاهريون (والمصريون عامة) أن يشتروها لاطفالهم في مواسم اول رجب ، ونصف شعبان ، وعيد الفطر . كذلك كان الناس يهدون هذه الحلوى لاصهارهم ، وخاصة اذا كانت المصاهرة حديثة او اذا لم يكن الرجل قد دخل بعروسه بعد . كما أن « سوق الشماعين » ارتبطت بالاحتفالات القاهرية بليالي شهر رمضان ، كما كانت تتلألأ بالاضواء في عيد غطاس النصاري .

وتكشف دراسة الاسواق ايضا عن أنه لم يكن من عادة القاهريين ـ بشكل عام ـ أن يعدوا الطعام في بيوتهم . بل إن العامة كانوا يتناولون الطعام خارج منازلهم التي كانت متواضعة للغاية ، وانتشرت في القاهرة آلاف المطاعم التي تحدث عنها الأجانب الذين زاروا القاهرة في ذلك العصر . وقد عرفت القاهرة نوعين من المطاعم ، اولهما « المطابخ » التي كان الناس يتناولون فيها الطعام الجاهز وحوانيت « الشرائحية » التي كان سكان القاهرة من الشرائح الاجتماعية المتوسطة يرسلون اليهم مايريدون طهيه من لحوم وخضراوات وغيرها ، ويقوم « الشرائحية » بطهيها بعد خلطها بالتوابل ، ثم ترسل مع الصبيان في قدور مغطاة الى المنازل لقاء أجر معروف .

تدهور الاسواق المملوكية :

هذه الصورة الزاهية للحياة في القاهرة كما تعكسها حركة الأسواق خلال الشطر الاول من عصر سلاطين المماليك لم تلبث أن تلاشت بفعل عوامل التدهور التي عانى منها المجتمع المصري في اواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

والواقع أن هبوط معدل النمو السكاني ثم تدهور أعداد السكان في مصر منذ منتصف هذا القرن بسبب « الوباء الكبير » او « الموت الاسود » (الذي انتشر في ارجاء العالم المعروف آنذاك) كان من أهم أسباب تقلص الأسواق القاهرية من حيث عددها وحركة البيع والشراء فيها كما أن زيادة النظام الاقطاعي العسكري الذي قامت عليه بنية الدولة ، كان من أهم عوامل التدهور الاقتصادي الذي ترك اثاره الوبيلة على حركة الاسواق .

والواقع أننا لا نستطيع أن نحصر العوامل التي أدت الى تدهور أسواق القاهرة في عصر سلاطين المماليك في اطار واحد بعينه ، سياسيا كان ام اقتصاديا ، واجتماعيا كان ام طبيعيا . فالحقيقة أن هذه العوامل كلها تداخلت وتشابكت في حركتها بحيث يصعب تحديد دور كل منها ، وعلى ايه حال ، فان تدهور الاسواق في القاهرة كان واحدا من المؤشرات العديدة على أن دولة سلاطين المماليك قد بدأت رحلتها الطويلة نحو الغروب . □

في ذكرى مرور ٧٥ عامًا على رواية

«البحث عن الزمن المفقود»

للأديب الفرنسي مارسيل بروست
بقلم الدكتورة : زينب عبدالعزيز

في تاريخ الابداع الروائي العالمي تنتصب ملحمة « البحث عن الزمن المفقود » رائعة مارسيل بروست كواحدة من أهم الأعمال التي تركت تأثيرات ضخمة في المسار الروائي الحديث .
ولذلك يهتم بها المبدعون ونقاد الأدب ومؤرخوه والمتذوقون له .

في الثانى عشر من شهر نوفمبر عام ١٩١٣ اعلنت جريدة « لى طان » الفرنسية عن ظهور رواية « عند ناحية سوان » لدى دار نشر برنارد جراسيه إلا أن كاتب المقال لم يذكر أن كافة دور النشر الأخرى كانت قد رفضت هذه الرواية !

ولم يدر بخلد رافضى ذلك النص أنه سيصبح من أهم روايات القرن العشرين ، بل حجر الأساس الذى قامت عليه الرواية الحديثة في فرنسا .

لذلك يعد مارسيل بروست واحدا من أهم الكتاب الذين مازالت آثارهم تمتد على مجريات الرواية الحديثة ومسارها حتى يومنا هذا ، بفضل ما أضافه في مجال التعبير والحلم وتوارد الخواطر . وتتلخص أهمية المكانة التي يحتلها في أنه استطاع أن يفرض على القارىء عالما خياليا أكثر واقعية من الواقع، وتعبيراً جديداً عن الزمن التجميعى في ذهن الانسان .

سنوات النضوج :

تعد أهم فترات حياة بروست الإجتماعية وأعنفها صراعا تلك السنوات التى واكبت قضية الإفراج عن الفريد درايفوس ، ذلك الضابط الفرنسى اليهودى الأصل الذي حوكم وسجن خمسة أعوام ثم أفرج عنه بفضل حملة اعلامية سياسية ودينية صاخبة ، شغلت الرأى العام الفرنسى وقسمته حتى التمزق . .

وكان مارسيل بروست قد انضم مؤيدا لهذه الحملة فيما بين عامى ١٨٩٨ و ١٨٩٩ ، ثم سافر إلى فينيسيا ليدرس مذاهب القيم الجمالية هناك . وما أن عاد من ايطاليا حتى بدأت أحزانه بوفاة والده ، وتوغلت الأحزان اكثر بوفاة والدته ـ تلك الأم التى سألوه ذات يوم ، وكان في الثالثة عشرة من عمره : « ماهو ابشع شيء يمكن أن يحدث لك وتعده قمة البؤس ؟ » فقال مندفعا . « أن أفقد أمى ! » .

الإنعزال والعمل :

وبفقدانه أمه ومعايشته لأبشع مايمكن أن يحدث له تبددت آماله وأحاط نفسه بستار من العزلة لتنصهر آلامه في بوتقة ذلك البؤس . انعزل ليكتب ويعبر عن جحيم الحياة ، ذلك الجحيم الذى ترتبط فيه الكوميديا الإنسانية العامة بالمأساة الذاتية لكل فرد ، واستكان الى عالم الذكريات والذكرى ليكتب ملحمته المعروفة باسمها الشامل : « البحث عن الزمن المفقود ، وهي ملحمة تقع في سبعة أجزاء ، لكل منها عنوانها الفرعى المستقل .

إنعزل بروست في غرفة مكتبه المبطنة بالفلين ، لتحجب عنه ضوضاء العالم الخارجى ، وليتمكن من الإستماع الى نبضات أصداء ذلك الزمن الضائع الذي حاول التعبير عنه ، ولا تحيط به سوى حشرجة أنفاسه وهى تنتزع رشفات الحياة ، وقد زادت حدة اصابته بالربو . ولقد شبه غرفته هذه بسفينة نوح التى « سمحت له برؤية العالم وفهمه بفضل غلقها المحكم والسواد الدامس المحيط بها » - على حد قوله .

وفي عام ١٩١٩ حصل على جائزة جونكور الأدبية عن الجزء الذى يحمل عنوان : « في ظل الفتيات المزدهرات » . بينما اشتدت وطأة المرض عليه ، وفى الثامن عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٢٢ خبت أنفاسه وانطفأت بينما ارتسمت على محياه عطور تلك الزهور التى أجاد التعبير عن عبيرها الأثيرى . انتقل تاركا مخطوطات ثلاثة أجزاء من ملحمته تم طبعها تباعا .

ملحمة « البحث عن الزمن المفقود » :

تتضمن هذه الملحمة أو هذه المجموعة الروائية سبعة أجزاء هي :

■ « عند ناحية سوان » (١٩١٣) : ويحكى فيها المؤلف ذكريات الطفولة التى تبادرت الى ذهنه بينما كان يغمس قطعة من الكعك الجاف في قدح من الشاى ، ومن خلال توارد الخواطر هذه قام بتقديم أفراد اسرته أو شخصيات الرواية بالإضافة الى أولى خطواته في كل من عالم الادب وعالم الحب . .

■« في ظل الفتيات المزدهرات » (١٩١٨) ويعبر الأديب فى هذا الجزء عن المجال الفنى والموسيقى والأدبى من خلال مجتمع الأرستقراطية الفرنسية وتحذلق طبقة البورجوازية .

■ « ناحية جيرمانت » (١٩٢٠) : يتعرض الأديب في هذا الجزء للمجال العاطفي والنفوذ الاجتماعي لتلك الشخصيات .

■ « سودوم وجومور » (١٩٢٢) : وهنا يتوغل الأديب اكثر في أعماق شخصياته ليعكس اخلاقيات ذلك المجتمع وما ينطوى عليه من فساد وانحراف وشذوذ .

■ « السجينة » (١٩٢٣) : يتناول الاديب في هذا الجزء مشاعر الغيرة التى تدفع حامليها الى تصرفات غير سوية حتى تأتى عليها .

■ « الهاربة » (١٩٢٥) : ويتضمن هذا الجزء اراء الكاتب في قضية الموت وآثاره عبر ملكة عالم النسيان .

■ « العثور على الزمن المفقود » (١٩٢٧) : اما في هذا الجزء الأخير من الملحمة فيبوح الكاتب بآرائه الأساسية حول التناقض وصراع الاضداد وخلاصة فكره عن الفن الذى يمثل الخلاص الحقيقى من تفاعيل الزمن ، فالفن - فى نظره - هو « الشىء الوحيد الصادق في هذا الوجود واللحظات التى تبلورها الذاكرة عبر الزمان والمكان ، تمثل أصدق ماعشناه » .

تمثل هذه الملحمة تاريخ حقبة معينة من حياة المجتمع الفرنسى وتاريخ ذاكرة كاتبها ، فهى تعكس في آن واحد العالم الخارجى برمة أحداثه وأصداء تلك الأحداث في أعماق راويها ، وإن كان البطل الحقيقى فيها هو الزمن الذى يمتد ويتنوع التعبير عنه طوال هذا النص من جزيئات دقيقة الى مالا نهاية الدهر . . ذلك الزمن الذى يحاصر الإنسان ويطارده ضاغطا وجوده في لحظات محدودة مابين مشرق ومغيب !

وتعتمد فكرة البناء الدرامى لهذه الرواية الطويلة على قاعدة اللبنة الأولى في البناء الضخم وعلى أهمية تلك اللبنة التي تلتف حولها بقية اللبنات بترتيب معمارى بارع ، متماسك ، قائم على الترابط وكثيرا

ماشبهه الأديب نفسه ببناء الكاتدرائية التى ترتفع ببنيانها الشاهق حتى القمة ، بفضل عدة دعامات أساسية، تمثلها هو في صراع مشاعر الإنسان والموت والذاكرة عبر الزمن . .

لذلك أجمع النقاد على أن بروست ليس واحداً من أساتذة الفلسفة العامة فحسب ، وانما واحد من اكبر فلاسفة علم الحياة ، اذ يكشف عن سعة درايته بأعماق الانسان وبغياهب تلك الغابة المتداخلة المشاعر ، معتمدا على ديناميكية صراع الاضداد .

وتكمن عظمة مارسيل بروست في تشييد هذا لبناء الدرامي الضخم في تعبيره عن عملية تحويل أحداث الحياة الاجتماعية والذاتية الى خلاصة فهو يقوم



ببلورة وتخليد تلك اللحظات التي افلتت من طغيان الزمن والنسيان .

المجتمع والشخصيات :

وسواء كان البناء موسيقيا كالسمفونية أو معماريا كالكاتدرائية فان ترابط العمل وتجانسه يبدو مذهلا ، ويرجع هذا الترابط الى قوة الخيال ، والى شدة الملاحظة التى يربط بها اختيارات توارد الخواطر ، إلا أن المناخ العام الذى تدور فيه أحداث هذه الملحمة يقتصر على شريحة اجتماعية معينة ، أما الطبقات الدنيا أو الكادحون فهم غير ممثلين إلا من خلال طبقة الحاشية أو الخدم الذين يقومون بخدمة هذه الارستقراطية .

ورغم الزيف الذى يتألق به بريق ذلك المجتمع والذى اجاد الكاتب التعبير عنه فهو يجعل الكاتب اشبه مايكون بالتأثيريين القائلين بألا قيمة للموضوع مهما كان تافهاً إلا بفضل الضوء الذى يسلط عليه وبالأسلوب الذى يعالج به .

أما الشخصيات فهى تتسم بذلك التواجد الدائم الذى لا ينسى ، انها شخصيات مستقلة الوضوح والتميز ، حتى الشخصيات الثانوية منها فهى مصورة بنفس التركيز والبلورة . وذلك ليس من خلال وضعها الاجتماعى فحسب وانما من خلال مختلف مكوناتها النفسية عبر الزمان المكان .

الذاكرة والزمن :

ويعتمد المؤلف في كتابته على بلورة لحظة زمنية معينة ، ولتلك اللحظة التى مضت واستكانت أهمية كبرى ، والانسان الذى يستطيع إحياءها من جديد ومعايشة أبعادها في لحظة أخرى يصبح في نفس ذلك الوقت خارج الزمن الذى يعيش فيه بالفعل . لذلك يفرق بين الذاكرة العادية التقليدية في الحياة اليومية ، والذاكرة الإنفعالية التى تلتقط تلك اللحظات القابعة في استكانة ، والتى يمثل الكشف عنها نفس تأثير الهزات الأرضية التى تشق سطح الكرة الأرضية ، فتلوح مقتنيات العالم الزمنية التي تمثل خلاصة صادقة لما عاشه الإنسان .

وهنا يتبلور مفهوم الأديب بين الزمن الواقعى الذى تدور فيه الأحداث في الحياة اليومية ـ وقد تستغرق السنين، وذلك الزمن الخاطف كالومضات الذي يستغرقه استرجاع معايشتها في الذاكرة .

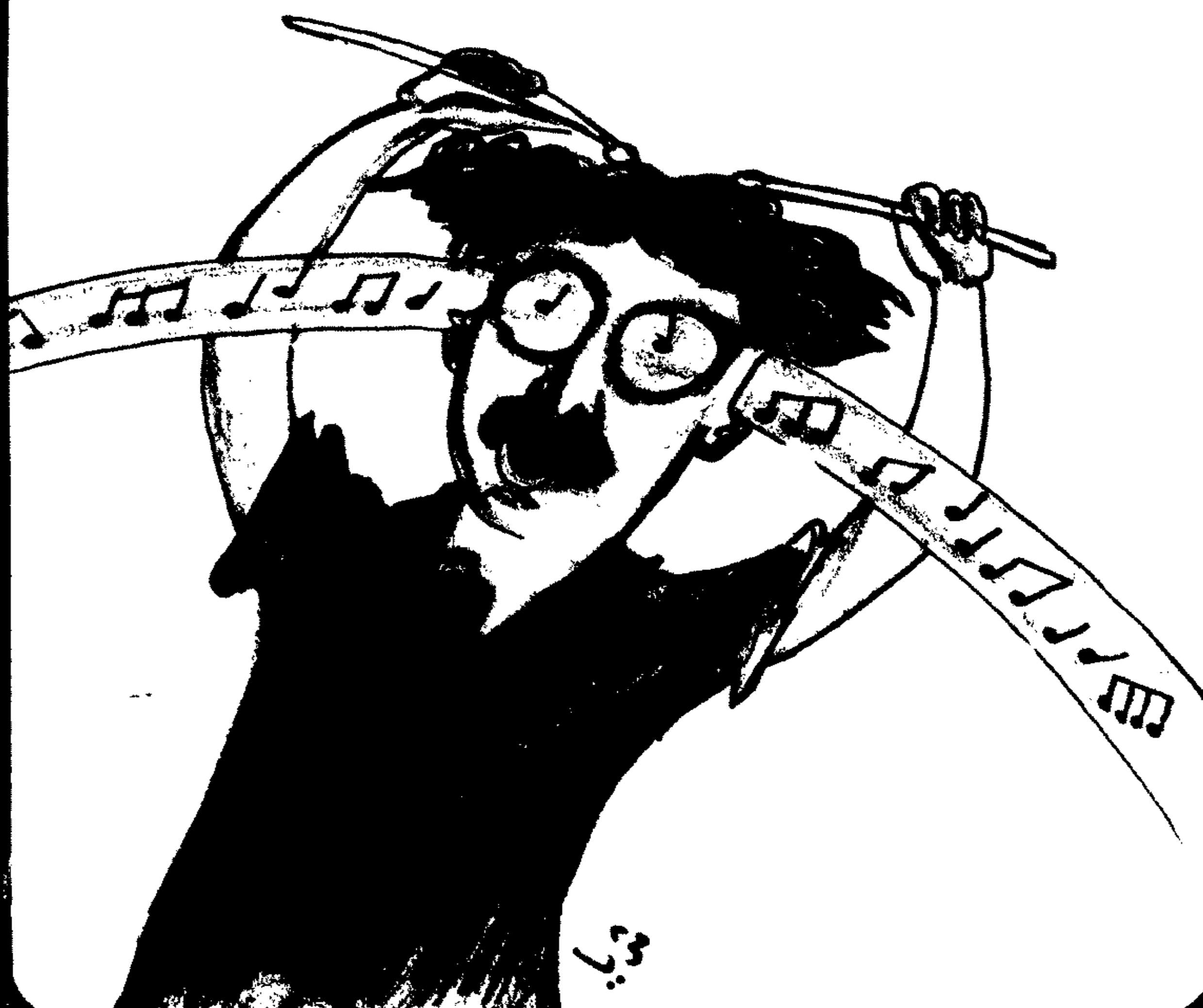
في عام ١٩٢٣ كتب الأديب الفرنسى بول فاليرى في مقال بعنوان : « تحية الى مارسيل بروست ، يقول : « يمكننا أن نفتح روايته في أي جزء نشاء ونستمتع بالقراءة إذ أن حيويتها لاتعتمد على ماسبق من نص ، وإنما تكمن في حيوية نسيج النص نفسه الذى يمكننا أن نقرأه من أى مكان » . □

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

■ أصوات مميزة يحدثها جسم الانسان

■ الطفح الجلدي الحاد لدى الأطفال



الطفح الجلدي الحادّ لدى الأطفال

بقلم : الدكتور صباح السامرائي

مع تقدم العلوم الطبية قد نكتشف أن كثيرا من الأمراض هي أقل خطورة مما نظن ، وأن الأمر أبسط مما نعتقد ، إلا أننا مع ذلك نزداد إيمانا بتلك النصيحة الطبية الثمينة « درهم وقاية خير من قنطار علاج » .

أربعة أمراض شائعة بين الأطفال تعد السبب الرئيسي لظهور الطفح الجلدى الحاد وهى : الحصبة ، والحصبة الألمانية ، والحُماق أو جديري الماء ، والحمى القرمزية . وأول ثلاثة من هذه الأمراض تنشأ عن غزو « الحمات » للجسم : والحمات ـ جمع حمة أي فيروس ـ كائنات صغيرة جدا ، لا ترى إلا بالمجهر الالكتروني . أما رابع هذه الأمراض ـ الحمى القرمزية ـ فينشأ عن الإصابة بنوع من الجراثيم أى « البكتيريا » ، يسمى بالمكَورات السُبحية المقيحة . وعلى الرغم من عدم خطورة الطفح الجلدى فانه يثير التوجس في نفوس الآباء والأمهات وكأنه جرس انذار يدوى في اذانهم : « إن وراء الأكمة ماوراءها » ! جميع هذه الأمراض معدية تنتقل من الشخص المصاب إلى الشخص السليم بالتلامس أو استعمال أدوات مشتركة ، أو مع الرذاذ المتطاير من فم المريض وأنفه « أثناء الكلام أو السعال مثلا » . ونتحدث في السطور التالية عن كل مرض من هذه الأمراض بصورة موجزة .

الحصبة

بعد فترة حضانة تبلغ نحو عشرة أيام ، تظهر أعراض المرض بهيئة سعال والتهاب في اللوزتين أو الأذن الوسطى . كما تلتهب ملتحمة العين ، ويغدو الطفل عكر المزاج كثير البكاء . ومن العلامات الخاصة بالحصبة التى تظهر قبل الطفح الجلدى وتساعد كثيراً في التشخيص ، بقع بيض صغار في بطانة الفم نستطيع رؤيتها في اللثة والجزء الأمامى من

تضطرب حركة المريض ويختل توازنه ، أما لدى الأطفال فقلما ترافقه أية مضاعفات إلا إذا كان الطفل ناقص المناعة « نتيجة للاصابة باللوكيميا أو ابيضاض الدم ، أو غير ذلك من الأمراض السرطانية ، أو نقص المناعة المكتسبة . الايدز » ففي هذه الحالات يكون المرض عنيفا قاتلا .

ولا ضرورة للوقاية من هذا المرض ، إلا في حالة كون الشخص ناقص المناعة ، وعندئذ يعطى « الكلوبيولين البشرى » المضاد للمرض .

أما العلاج فهو علاج تحفظي « أي علاج أعراض المرض » ، وينصح ـ لهذا الغرض ـ بالاستحمام يوميا بماء يحوى مواد مطهرة لمنع تقيح الطفح الجلدى أو غزوه من قبل الجراثيم ، ويفضل دلك الجلد بالمحاليل الملطفة علاجا للحكة ، وإذا كانت الحكة شديدة مسببة اضطراب النوم فيجب اعطاء المصاب العقاقير المضادة لها .

الحمى القرمزية

بعد فترة حضانة تتراوح ما بين ١ ـ ٥ أيام تظهر أعراض المرض بهيئة ألم عند البلع نتيجة لالتهاب اللوزتين ، كما ترتفع حرارة الجسم . وفي اليوم التالى يظهر الطفح الجلدى بهيئة احمرار يشمل الجذع والأطراف ولا يظهر على الوجه ، ويتصف هذا الطفح بشحوب اللون عند الضغط عليه بالأصابع . ومن علاماته الأخرى شحوب حول الفم نتيجة احتقان الوجنتين بسبب الحمى ، وبعد أربعة أيام يبدأ الطفح بالتوسّف « Desquamation » ، أي أنه ينسلخ بصورة طبقة رقيقة . ويكون اللسان مكسوا بطبقة رقيقة بيضاء .

وقد يؤدى هذا المرض إلى التهاب الأذن الوسطى ، وخراج حول اللوزتين وأحيانا يؤدى إلى الحمى الرئوية والتهاب كبيبات الكلية . وعلى الرغم من عدم وجود وسيلة فعالة تقى من الحمى القرمزية ، فإنها سهلة العلاج بالمضاد الحيوى المعروف « بنسلين » . .

وإذا تركنا المضاعفات النادرة جانبا ، فإن الحمى القرمزية تعد من الأمراض البسيطة ، عكس ما كان ينظر إليها في السابق حينما كان المريض ينقل بسيارة اسعاف « سوداء » إلى مستشفيات معزولة ، وتمنع زيارته منعا باتا ، ولا داعى لكل هذا العناءيا أطباء الماضى عليكم رحمة الله !!□

---

* أحسن المصلحين ، هم الذين يبدأون بأنفسهم .

(برنار- شو)

* أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في حق الحياة سواء .

(أحمد شوقي)

* الرجل الذي لا يعرف نواحى القوة هدف سهل للمرأة التي تعرف نواحى الضعف فيه .

(شارلى شابلن)

* لا ينبغى أن تقول كل ما تعرف ، ولكن ينبغى أن تعرف كل ما تقول .

(كلوديوس)


شارلى شابلن



أصوات مميّزة يحدثها جسم الانسان

اعداد : د. عامر خالد*

من منا لا يضايقه سماع الأصوات العالية التي تصدر من نائم معه في نفس الغرفة ، أو يزعجه عطاس ملازم له ولا يملك رده بالسيطرة الذاتية أو العلاج . إن السعال وزقزقة البطن وطقطقة عظام الجسم ، كلها أصوات تصدر عن جسم الانسان فما سببها . . ؟ وهل لها علاج . . ؟

كل أجسام بني الانسان تصدر أصواتا مختلفة ، ومتنوعة المصدر والنغمة من حيث تنظيمها إراديا أو لا إراديا ، فمنها ما يكون مصدره الحبال الصوتية للتعبير وتوضيح ما يجول في الذهن من أفكار ، ومنها ما يكون هضم الغذاء سببه ، ومنها ما يدلل على أن شيئا ما اخترق حجابات الجسم الدفاعية عبر الأنف أو الحنجرة ، ورغم عدم سيطرة الجسم على مختلف هذه الأصوات ، إلا أنه احيانا تكون له معرفة بقرب حدوثها ، ولن نتطرق في موضوعنا إلى كيفية حدوث الكلام البشري ـ لأنها باتت معروفة للجميع ـ ولا لتأثير العوامل المرضية على هذه الأصوات .

السعال :

عند دخول أشياء معينة الى الحنجرة ، كدقائق الغبار ، أو سماكة من اللعاب ، أو قطعة من الغذاء ، فإنها تدخل خطأ للمجرى التنفسي ، فيحدث صوت وحركة معينان يسعى بهما الجسم

* مدرس بكلية طب الاسنان ـ جامعة بغداد

للتخلص منها وطردها وهما ما يعرفان لنا بالسعال .

وهو عملية مفيدة للجسم . يقوم بها لتنقية وتصفية القصبات الهوائية والمجاري التنفسية تماما كالتي نجريها عندما ننفخ في انبوب مطاطي لتنظيف داخله ، كذلك يزيل من داخل القصبات ما علق بها من لعاب سميك او فتات غذاء ، إلا أنه في حالات الاصابة الخمجية **Infection** ، لا يزيلها ، ولهذا تستمر حينذاك نوبات السعال ، وقد تتألم منها عضلات المعدة والصدر . ويصبح اللجوء الى استعمال العقاقير الطبية لعلاج المتسبب وازالته أمرا ضروريا وطبيعيا .

وعموما فان السعال يحدث بصورة واحدة . فبعدما تستنشق الهواء ليصل رئتيك وتنغلق المجاري التنفسية ، وتتقلص عضلات الصدر والبطن استعدادا لدفعه بقوة ، فان الهواء يندفع من الرئة وبقوة هائلة محدثة « انفجارا » هو السعال ، نتيجة مروره السريع والقوي عبر الحبال الصوتية في الحنجرة . وتعتمد قوة صوت السعال على كمية ما اندفع من هواء . وعلى حالة الحبال الصوتية مريضة كانت أو متعافية .

العطاس :

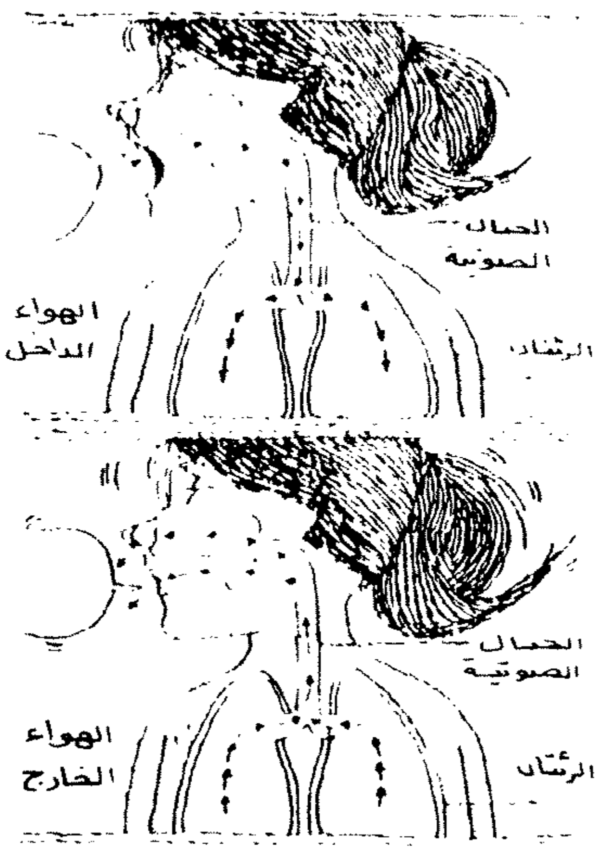
ان العطاس يشبه السعال في أوجه كثيرة . إلا أنه أكثر منه علوا ، ويكمن مصدره في الأنف ، نتيجة لتخرشه بمادة معينة ، كدخول دقائق من الغبار اليه ، او استنشاق روائح معينة ، أو زيادة الافراز المخاطي بفعل عامل مرضي .

وتتم عملية العطاس بسحب كمية من الهواء عبر الحبال الصوتية وهو ما نسمعه من صوت بشكل (آآه) ، بينما تأتي تكملة العطس (تشو) عند خروج الهواء مندفعا عبر الانف والفم . وقد قاس العلماء سرعة اندفاع الهواء في العطسة الواحدة فكانت مئة ميل في الساعة .

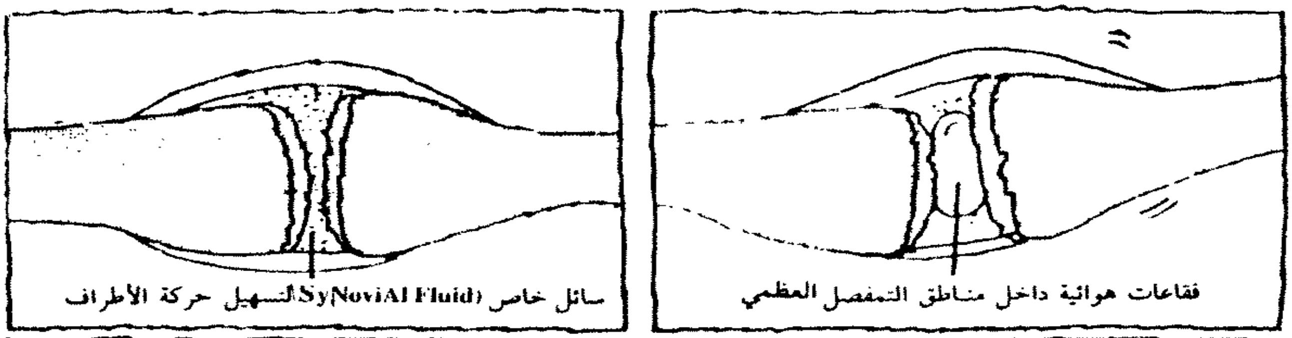
ويختلف الناس في طرق عطسهم ، فمنهم من يعطس عبر الأنف ، وآخرون عبر أفواههم ويختلفون في الأصوات التي يصدرونها ، فمنهم من يعطس مدويا ، وآخر بنعومة واضحة . ويختلفون أيضا في عددها ، فمنهم من يعطس عطسة مفردة ، وآخرون مزدوجة ، وغيرهم بشكل نوبة من العطاس . كل ذلك حسب ما تعود عليه بنو الإنسان .

الشخير :

يعد الشخير من الأصوات المألوفة في مضاجعنا ، ولا أحسبنا نجونا منه ، فجميعنا يشخر حتى الرضيع منا ، في أحيان معينة . وهو يحدث أثناء النوم ، عندما يعمد النائم الى التنفس عبر الفم ، ونتيجة اهتزاز الحبال الصوتية ، اثناء مرور الهواء وخروجه خلال عملية التنفس ، يساعدها في ذلك سقف الفم الرخو والمرن وأحيانا الشفاه والخدود ، حيث تكون عضلات هذه الأجزاء جميعاً مرتخية ومنبسطة في حالة



العطاس



للعظام أصوات أيضا

النوم ، مما يسهل تحريكها بمرور الهواء عبرها .

ويختلف الناس في شخيرهم ، فمنهم من يشخر دوما ، ومنهم من يشخر عندما يصاب بانغلاق في الأنف ، فيجبر على التنفس عبر الفم ، ويختلفون أيضا فيما يصدرون من نغمات صوتية ، إلا أن الأصوات الصادرة جميعا تعتمد على مقدار الهواء المتحرك وعلى وضع النائم في فراشه ، فأعلى الأصوات هي تلك التي تنتج عند النوم على الظهر نتيجة ازدياد عدد الأجزاء المرتخية والمتحركة .

التثاؤب :

يحدث التثاؤب عادة عندما نكون متعبين أو ضجرين أو عندما يلم بنا الجوع او بفعل انعكاسي نتيجة تثاؤب من يجاورنا . ولم يتوصل العلماء الى المعرفة الكاملة والمفصلة لأسرار هذه العملية ، وإلى فعل « العدوى » الكامن فيها حتى الآن ، ويعتقد أنها تحدث نتيجة حاجة الجسم الى كميات اكبر من غاز الاكسجين ، فالتثاؤب الاعلى يجلب للجسم كمية أكبر من الأوكسجين ، وتسهم في اداء هذه العملية عضلات الوجه والحنجرة والخدود ، وأحيانا عضلات الجفون فيتسبب من ذلك ذرف دموع قليلة نتيجة الضغط على الغدد الدمعية القريبة .

الزغطة :

تحدث الزغطة لجميع بني الانسان ، نتيجة اختلال في توافق حركة الحجاب الحاجز المستمرة ، التي عبرها تتم العمليات التنفسية ، لسبب لم يستطع العلماء كشفه . فعند تقلص الحجاب يندفع الهواء نحو الرئتين عبر المجاري التنفسية ، الا انه عند تشنج الحجاب الحاجز ولو لهنيهة لا تزيد عن أجزاء من الثانية ، فان عملية أخرى تحدث ، إذ يصطدم الهواء الخارج من الرئة بلسان المزمار ـ وهو امتداد عضلي يحكم مجرى القصبة الهوائية ـ مانعا الهواء من المرور للخارج ومحدثاً صوت « هيك » المعروف للزغطة يعود بعدها الحجاب لوضعه الطبيعي ، إلا أنه سرعان ما يعاود التشنج ، تتكرر العملية حتى زوالها مسببة الازعاج لصاحبها .

ولم يعرف للآن سبب تشنج الحجاب الحاجز هذا ، إلا أنه يعتقد أنه ناتج عن تناول سريع للغذاء ، او نتيجة للضحك بصوت عال ، او لإصابة الحجاب بندبة .

أصوات العظام :

وللعظام أصوات أيضا ، مصدرها المفاصل عادة ، وبالأخص مفاصل الساعد والقدم والساق والأصابع ، وهي تحدث عادة باحدى طريقتين ، الاولى : وتتم بفعل الأنسجة الرابطة للعظام ، وتتموضع عند مناطق التمفصل العظمي ، وتحدث الأصوات نتيجة سحب هذه الانسجة ، وارتطامها بالقريب منها من تراكيب . فسحب أصبع مثلا يعني انزلاق أليافه الرابطة ، أو عظامه واصطدامها بعظام اليد ، محدثة صوتا خاصا يشبه (الطقطقة) .

والطريقة الثانية : وتحدث عند ليّ الأصابع أو الأطراف بقوة وبزوايا كبيرة ، وتكون أصواتاً ملحوظة تعرف (بالطرقعة) ، وهي تحدث نتيجة (انفجار) فقاعات هوائية داخل مناطق التمفصل العظمي .

فمن المعروف أن جميع المفاصل المتحركة في الجسم تحتوي على سائل خاص(synovial fluid) لتسهيل عملية انزلاق ، وحركة الأطراف المتمفصلة بشكل سهل وناعم ، وتتواجد في هذا السائل عادة فقاعات هوائية دقيقة جداً ، ونتيجة لحركة المفصل الدائبة فإنها تبقى دقيقة وثابتة فى مكمنها ، إلا انه عند ابتعاد عظمتين عن بعضهما بالسحب تخرج الفقاعات الى ما تُرك وكبر من فراغ بينهما ، وتتحد مع بعضها مكونة فقاعة واحدة ، تكبر تدريجيا الى أن تنفجر محدثة صوت « الطرقعة » كما يعرفه الناس ، ويحتاج الهواء المنفجر الى مدة من الزمن كي يذوب ثانية في السائل المفصلي ليعود فقاعات دقيقة ، قدَّرها العلماء بحوالي عشرين دقيقة ، لذلك يكون حدوث الصوت لمرة واحدة في الأغلب طول تلك المدة .

أصوات قناة الهضم :

ولقناة الهضم ـ بأجزائها المختلفة والمتعددة ـ أصوات خاصة بها تبدأ بصوت عملية « التجشؤ » **ERUCTATION** ، التي مصدرها المعدة والأمعاء ، والتي تبدأ بتشكيل فقاعات هوائية دقيقة داخل المعدة ، نتيجة اندفاع الهواء مع هضم الغذاء ، فنحن عندما نأكل ندفع مع ما نتناول من غذاء أو شراب عبر الفم كميات من الهواء ، وقد تزيد أحيانا عن مقدار ما نتناوله من غذاء ، وبشكل هواء حر او هواء يدخل في تركيب المواد المتناولة ، وعند وصول هذه الفقاعات الى المعدة ، فانها تتمركز في الطبقات العليا من المعدة ، وبازديادها يزداد الضغط الجوي للهواء داخل المعدة عن خارجها ، مما يؤدي الى اندفاعه من المعدة الى خارج الجسم ، وعبر المريء والفم محدثا صوتا عند مروره بنهاية المريء .

ويكون إما عاليا أو خافتا حسبما تعود عليه الفرد ، وقد يزيد من ظهور هذه الأصوات تناول أغذية معينة ، تعين على حدوثها كسوائل الصودا وغيرها .

وتعد عملية التجشؤ هذه مهمة للفرد ، للتخلص من الهواء المعيق لعملية الهضم ، وخاصة للأطفال الرضع الذين يصبح لزاما على امهاتهم وضعهم عموديا لفترة من الزمن بعد الرضاعة ودون إنامتهم ، كي يسهل حدوث هذه العملية ، وإلا أدت إنامته أفقيا الى انغلاق الممر المؤدي من المعدة الى المريء بسوائل المعدة عند منطقة اتصال الأخيرين ، وهذا يؤدي الى تراكم الهواء في المعدة ، مسببا الآلام وعدم الراحة للرضيع .

ويختلف الناس في اعتباراتهم لهذه العملية ، فمنهم من يعتبرها إثما يجب الاعتذار عنه ، ومنهم من يعتبرها مديحا لما تم تناوله من غذاء .

تعد المعدة من أقوى التراكيب المفصلية في الجسم الإنساني ، فبفضل قوتها المفصلية تلك ، تستطيع هضم وسحق أصلب غذاء نتناوله ، ودفعه باتجاه الأمعاء وهي مستمرة فى عملها هذا وحركتها تلك ، سواء كانت تحتوي على الغذاء أو بدونه ، وفي الحالة الأخيرة ، ولوجود كميات من السوائل الهاضمة والعصارات ، وكمية أكبر من الهواء فإنها تدور داخل المعدة ، أثناء حركتها الماضغة ، مصدرة أصواتا تعرف للعامة « بالقرقرة » وأحيانا « زقزقة البطن » ، وأحيانا قد يكون مصدرها الأمعاء ، وليس المعدة ، وبنفس الأسلوب ، بقى أن تعرف أن هذه الأصوات لا تصدر في حالة الجوع فقط بل في كل الأوقات .

ـ والرياح FIATUS نوع آخر من أصوات الجهاز الهضمي ، وهو ناتج من ابتلاع كميات من الهواء ومرورها عبر قناة الهضم ، وازديادها كما ونوعا بفعل امتزاجها مع ما ينتج من غازات أثناء عمليات التمثيل الغذائي ، ويصدر الصوت نتيجة سرعة مرورها عبر فتحة المخرج القوية التكوين . □

هو.. هي

هَل يموتُ الحبّ ؟

لم أشغل نفسي يوما بالتفكير بالثنائيات الكثيرة التي تملأ حياتنا ، كنت أعتقد أن الحب والكراهية من هذه الثنائيات الكثيرة المختلفة . شأنها شأن الليل والنهار ، والنور والظلام ، والعقل والجنون ، والنجاح والفشل ، لم أفكر كثيرا في تلك الثنائيات حتى اكتشفت بعد تأمل معذب أنه قد يكون هناك ظلام في النهار ، وأن الليل حين يجثم فإنه يحمل في رحمه شيئاً من النهار ، وأن النجاح رهن بالفشل ، وأن نقيض العقل قد لا يكون الجنون بل العاطفة ، أما الحب فليس عكسه الكراهية بل العدم ، الموت ، موت الحب ، انتهاؤه ووصوله مرحلة لايكون فيها سوى ذكرى على الرغم من أن الرجل الذي كان هو العاشق مازال يعيش وفي نفس المنزل مع المرأة التي أحبها ، معي أنا ، وتلك هي قضيتي التي لا أجرؤ على البوح بها إلا لنفسي .

لقد مضى على زواجي أكثر من خمسة عشر عاماً ، تزوجت عن حب لم أتصور يوما أنه سينتهي ، وخلال سنوات الزواج الخمس عشرة هذه تغلبنا ـ زوجي وأنا ـ على كثير من الصعاب والعقبات التي اعترضتنا ، واستطعنا أن نعطي لحياتنا معنى من خلال نجاح زوجي في عمله ، ومن خلال دوري في دفعه إلى هذا النجاح ، وتضحيتي بالكثير من أجله ، وهي تضحية بدأت مع بداية قصتنا معاً ثم زواجنا . فقد كان والداي رافضين للزواج في البداية ، إلا أنهما نزلا عند إصراري وتم الزواج ، وانتهت مشاكلنا مع عائلتي لتبدأ مع الحياة التي انطلقنا فيها من الصفر ، ولم يكن سهلاً أن يبدأ اثنان معركة الحياة من الصفر .

وانتصرنا في معركة الحياة ونجحنا ، زوجي وأنا ، في تحدي الحياة ، لكنني انتبهت فجأة لأجد نفسي وحيدة بعيدة عن زوجي الذي كان يتابع معركته مع الحياة ، ومع كل نجاح له كنت أشعر أن حبه لي لم يعد كما كان ، فأبتعد منزوية في ركن داني ، أراقب نجاحه بإعجاب لكن دون حماس ، بتقدير ولكن دون شغف .

ففي غمرة الحياة كان حبنا الذي مضى يتحول إلى عدم ، سهرات الأصدقاء واجبات اجتماعية جافة ، نزهتنا تفتقد البريق القديم ، وهدايا زوجي التي يحضرها لي بين حين وآخر خالية من تلك اللمسة الحميمة القديمة .

إن حبنا القديم لم يتحول إلى كراهية ، وكثيرا ماتمنيت لو أنه أصبح كذلك ، إذن لفعلت شيئاً ، لوجدت مشكلة أحلها ، ولقابلت الكراهية بكراهية أكبر ، أو بحب أكبر ربما ، ولانتصرت عليها . الكراهية ليست نقيض الحب ، بل هي عاطفة مثله ، وربما كانت إحدى صوره ، لقد تحول حبنا إلى عدم ، عدم أراقبه وهو يتشكل أمام عيني ، وأرى حبنا وهو يموت . فهل يموت الحب ؟

.. هي



ليسَ بالحبِّ وَحدَه

سألتني زوجتي مرة عن نقيض الحب ، فقلت لها إنه الحياة ، وعندما انتبهت إلى وجه زوجتي وهي تستمع إلى الإجابة شبه ذاهلة أضفت موضحاً : إنني أعني الحياة بمشاغلها ومشاكلها وشؤونها ومتطلباتها التي لاتنتهي . ولم أفكر بعد ذلك كثيراً بسؤالها المفاجيء ذاك ، لكنني بدأت أنتبه إلى شيء ما ، غريب في سلوك زوجتي ، فهي لم تعد تقبل على سهراتنا العائلية مع أصدقائنا القدماء منهم والجدد ، ولم تعد تتحمس للخروج إلى أماكن التنزه العامة ، أو للقاء بعض صديقاتها القديمات ، ولم تعد تستقبل الهدايا التي أقدمها لها في المناسبات العزيزة علينا كعيد زواجنا وعيد ميلادها بنفس الحرارة التي كانت تستقبلها بها في السابق .

لكن سؤال زوجتي عن الحب ونقيضه عاد إلى ذهني بقوة ، عندما استمرت حالة السهوم والتقوقع والبرود العاطفي الذي لاحظته عليها فما معنى أن تسأل زوجة زوجها مثل هذا السؤال بعد خمس عشرة سنة من الزواج ، وبعد قصة حب طويلة لم تخل من توترات بيني وبين أهلها ، كانت هي خلالها وعلى الدوام في جانبي حتى لو أغضب ذلك أهلها ؟ وما معنى أن تسأل زوجة زوجها مثل هذا السؤال بعد الصمود والنجاح في اختبار الحياة القاسي الذي لايرحم المحبين ، ولايقدم للمكافحين معاملة خاصة ؟

إن مشكلة زوجتي هي أننا لم نستطع تجاوز مرحلة الحب في حياتنا ، فالحب في ظني مرحلة من مراحل الحياة ليس أكثر ، إنه يعطي الإنسان قوة في معاركه الكثيرة التي يخوضها في الحياة ، التي تحتاج إلى العمل أكثر مما تحتاج إلى الحب ، الحب يعطي الحياة معنى ، لكن الحياة ليست حبا فقط ، بل هي قبل كل شيء آخر معركة يجب أن نخوضها ونكسبها ، وهي تحد يجب أن نقبله وننجح فيه ، وما الحب سوى دافع وحافز من حوافز عديدة من أجل النجاح في معركة الحياة الصعبة .

هذه بعض من خلاصات عديدة توصلت إليها بيني وبين نفسي ، بعد أن اكتشفت مقدار الأسى الذي يحتويه سؤال زوجتي ، فقد كانت هي وليس غيرها وراء نجاحي ، ووراء وصولي إلى ما أنا ـ نحن ـ عليه ، وقبل ذلك كانت هي وليس غيرها من ضحى بالكثير من أجل إنجاح زواجنا . وبيني وبين نفسي فقط أدرك كم هي الحياة جافة دون حب ، وأدرك كم أن زوجتي حزينة لما وصلنا إليه من نجاح يفتقد حرارة العاطفة وجفاف الروح ، الحياة هي النقيض الحقيقي للحب . الحياة بمشاغلها ومشاكلها وسرعة إيقاعها . إنها حقيقة قاسية حزينة مرعبة دون شك ، لكن ليس بالحب وحده يحيا الإنسان .

.. هو



طبيب الأسرة

قضايا منزلية

في البيت حامل مريضة بالسكر

بقلم : الدكتور حسن فريد أبو غزالة

مرض السكر أمره قديم شائع ، لهذا نجد له في تاريخ الطب عند كل الشعوب ذكراً وإشارة ، فالاغريق مثلا سموه الديابيطس ، وتعني بلغتهم النافورة ، ويبدو أن ابن سينا لم يجد لها بديلا عربيا فقال : « الديانيطس » (أبدل الباء بالنون) أما الهنود فسموا مرض السكر قديما «« بول العسل » لما فيه من حلاوة الطعم وتكالب الذباب عليه .

غير أن مرض السكر لم يلزم حدوده العتيقة ، بل استشرى وانتشر . وقد ساعده على هذا اكتشاف علاج الأنسولين الذى أعطى الفرصة لمريض السكر أن يعيش طويلا حياة طبيعية منتجة ، وأن ينجب خلالها من بعده أجيالا تحمل بذور وراثة المرض في خلايا أجسامها ، وبهذا أصبح مرضى السكر يعيشون طويلا ويتكاثرون .

كان هذا عقب عام ١٩٢١ بعد أن توصل العالمان الكنديان بانتنج وبست إلى استخلاص الأنسولين من بنكرياس الحيوانات وحقنه في أجسام المصابين .

وقبل ذلك التاريخ كان مرض السكر وبالا على صاحبه ، لايمهله سوى سنوات معدودات يعيشها المصاب في معاناة وشقاء وهو يذوى وينحل يوما بعد يوم . وربما كانت المرأة الحامل أكثر الفئات المصابة معاناة وأكثرها شقاء وأتعسها مصيرا وأوخمها نتيجة ، وربما كانت نسبة مرض السكر بين النساء عموما في عصرنا هذا لاتتعدى خمسة بين كل ألف منهن . لكنها ترتفع إلى حدود ١٢٠ بين كل ألف في أحوال الحمل .

قديما كانت الغيبوبة تلاحق ثلث النساء الحوامل المريضات . وكانت الوفاة بانتظار ٤٠٪ ـ ٥٠٪ من الأمهات والمواليد ، غير أن الصورة في عصر الأنسولين تبدلت وتغيرت . وأمكن للطب أن يقلم أظفار وحش السكر . وأن يكبح جماح سطوته .

لكن الحمل عامل مثير لمرض السكر . فقد قيل إن المشيمة تطلق هرمونا أقرب مايكون شبها بهرمون النمو الذى تطلقه الغدة النخامية ، ومن شأن هذا الهرمون المشيمى أن يعارض مفعول هرمون الأنسولين ، لهذا قد يظهر لدى الحوامل السكر في البول على الرغم من سلامتهن الظاهرية قبل الحمل ، وماهذا إلا لضعف كامن في البنكرياس عندهن ، عجز معه عن مواجهة هذا التحدى الجديد ، ولهذا يعتبر الحمل عند النساء عاملا مثيرا للسكر وعبئا على البنكرياس يكشف ضعفه الموروث الكامن إذا ماكان لدى المرأة الاستعداد وكانت تحمل بذرة المرض .



أثر مرض السكر على الحمل والحامل والجنين

العناية بالمرأة الحامل المصابة بمرض السكر يجب أن يحتل مرتبة العناية القصوى قبل أن تحمل ، إذا كان لها تاريخ مرضى سابق ، أوتكون العناية فور ظهور علامات السكر أثناء فترة الحمل المتميزة بالعطش الشديد وكثرة مرات التبول ، ووجود السكر في البول عند التحليل .

وهنا لامكان لعلاج الحامل إلا بحقن الأنسولين فقط ، ولا موضع للأقراص إطلاقا . وحقن الانسولين التى تؤخذ تحت الجلد أنواع شتى ، يختار منها الطبيب المعالج مايناسب المريضة حسب حالتها ، لكن أبرزها نوعان أحدهما الانسولين السريع المفعول العاجل الأثر ، وثانيهما البطىء المفعول الآجل الأثر .

ولعل السائد المفضل هو مزج النوعين في حقنة واحدة بنسب يقررها الطبيب المعالج لتحقن بهما مرتين يوميا ، الأولى قبل الافطار ، والثانية قبل العشاء بنصف ساعة على الأقل أو ساعة على الأكثر

غير أن اتجاها جديدا في الطب يميل إلى حقن المريضة بأربع جرعات :

الأولى : حقنة من أنسولين سريع المفعول قبل الإفطار .

الثانية : حقنة من أنسولين سريع المفعول قبل الغداء .

الثالثة : حقنة من أنسولين سريع المفعول قبل العشاء .

الرابعة : حقنة من أنسولين بطىء المفعول قبل النوم .

وقد قيل في تبرير هذا أنه يكفل لهرمون الأنسولين مستوى في الدم يقارب مستواه الطبيعى عند الناس الاسوياء .

فبهذا الأسلوب قد نتفادى المضاعفات الخطيرة التى تتربص بالنساء الحوامل المريضات بالسكر المهملات للعناية بأمور العلاج والوقاية . وهذه المضاعفات غالباً ما تتركز في إحدى الصور التالية .

أولا : حدوث تشوهات خلقية للجنين ، وتلك احتمالات قائمة لأسباب شتى في كل الأحمال ، غير أنها في حال مرض السكر قد تصل إلى ثلاثة أضعاف المعدلات المعتادة .

ثانيا : ولادة طفل كبير الحجم زائد الوزن ، وسبب هذه الظاهرة كما يعللها الأطباء هو تسرب سكر الجلوكوز (أو سكر العنب) من دم الأم الحامل إلى دم جنينها ، مما يثير بنكرياس الجنين وينبه إفرازه

هرمون الأنسولين ، فيزداد الجنين حجما ووزنا . ولو اعتبرنا أن معدل وزن المولود الطبيعي ثلاثة كيلوغرامات ونصف كيلوغرام لوجدنا أن وزن مولود مريضة السكر يتجاوز أربعة كيلوغرامات ، وهذا أمر قد يتطلب ولادة مبكرة قبل أوانها ، أو ربما إجراء عملية توليد قيصرية لتعسر الولادة الطبيعية .

ثالثا : حدوث الالتهابات : تؤكد الاحصاءات أن الحوامل المريضات بالسكر هن أكثر عرضة من الحوامل الطبيعيات للاصابة بالالتهابات عامة وحدوث الالتهابات الكلوية لديهن على الأخص ، وربما التهابات الفرج والمهبل ، وهذا أمر يفرض على هؤلاء الحوامل أن يبذلن أقصى جهو دهن في الحرص على النظافة والمراجعة الطبية والالتزام بقواعد الصحة والعلاج .

رابعا : ارتفاع ضغط الدم في الأحمال أمر مألوف ، وهو معاناة الحوامل من ارتفاع ضغط دمهن ، غير أن مريضات السكر أكثر عرضة لهذه المعاناة ، وهذا أمر يتطلب موالاة الاستشارة الطبية وقياس ضغط الدم على وجه الخصوص .

خامسا : الإصابة بتسمم الحمل : تسمم الحمل وتلك ظاهرة تصيب الحوامل ، وتتميز بحدوث قيء واستسقاء وارتفاع ضغط الدم ، وتلك معاناة فيها خطر شديد عليهن ، مما يوجب رعايتهن في المستشفى والحوامل المريضات بالسكر أكثر تعرضا للاصابة بهذه الظاهرة المرضية .

مراجعة الطبيب

مراجعة الطبيب بالنسبة لمريضة السكر أمر واجب كل أسبوعين عقب المراجعة الأولية الشاملة ، إلى أن يمضي على الحمل ٢٨ أسبوعا . وبعد ذلك تكون المراجعة أسبوعيا حتى يوم الولادة .

ولادة الحامل

الحمل الطبيعي للمرأة السوية يكتمل في الأسبوع الأربعين ، غير أن المريضة بالسكر قد تحتاج إلى ولادة مبكرة . وعلى أي حال فالأصلح إدخال الحامل المريضة في أسبوع الحمل الخامس والثلاثين ليتم توليدها في الأسبوع الثامن والثلاثين إذا ماوجب ذلك في تقدير الطبيب المعالج . غير أن هذا أمر يمكن تفاديه ، كما يمكن تفادي العملية القيصرية أيضا إذا ماتمت السيطرة على الحالة المرضية والتزمت المرأة بالعلاج بصورة سليمة دقيقة

الاب المريض بالسكر :

الاب المريض بالسكر قد يورث الاستعداد للإصابة بالمرض لبعض أبنائه ، لكن دوره في فترة الحمل معدوم لاموقع له إطلاقا ، فالأثر كله في هذه الفترة الحرجة للأم المريضة بالسكر .

أما عن الأم المريضة وتوريثها المرض لأبنائها فهناك احتمال قائم بنسبة واحد بين كل مائة ، بينما لاتتعدى نسبة هذا الاحتمال عند النساء السويات الطبيعيات واحد بين كل ألف ولادة فقط . □

ألف درهم لمدرس الطفل

احتفل الامام أبو حنيفة بولده يوم حفظ سورة الفاتحة ، وأعطى معلمه ألف درهم . فاستكثر المعلم هذا المبلغ من المال ، لأنه لم يعلم الطفل من القرآن سوى سورة الفاتحة ، فقال له أبو حنيفة : لاتستحقر ما علمت ولدي ، ولو كان معنا أكثر من ذلك لدفعنا اليك تعظيما للقرآن .

مساحة ود..

الاستثناء والقاعدة

قبل أن تحل لحظة الرحيل بأيام يشعر بظلها الكئيب يمتد إلى كل شيء . تمتد يد ذات أصابع نحاسية باردة ، فتقبض على صدره ، يتراخى كل شيء من حوله ، وعوده لابنته الصغرى بأن يذهب معها وحدها إلى مدينة الملاهي لتنفرد به بعض الوقت ، رغبته في أن يكمل مع ابنه الذي على وشك التخرج حديثا مابدأه منذ أسبوع ولم يكمله ! حماسه لأن يوضح لابنته الكبرى بأن ما يريده بالتحديد هو أن تسيطر على حماسها وتلقائيتها لا أن تفقدهما !!

وتمتد الظلال الكئيبة إلى من حوله ، فيكفون فجأة عن تذكيره بوعوده . يتعاملون مع لحظة سفره حين تقترب بصورة طبيعية ، وكأنها لاتختلف في شيء عن لحظات خروجهم للعمل كل يوم ، مع أن عمله في قطر آخر ، مع أن يوم عمله يمتد أحيانا عاما أو بعض عام ! يشعر بأن كل ما يفعلونه من أجل أن تمضي هذه اللحظة كشيء طبيعي أو غير طبيعي ، وأنهم بهذا يكشفون عن قلقهم أكثر مما يخفونه !

وفجأة يتذكر لحظة لقائه بهم التي لم يمض عليها سوى أسابيع ، إجازته كانت تحفل بأشياء غير طبيعية أيضا على الرغم من الفرح الطفولي الذي يغرق فيه الجميع ، على الرغم من عناق الأيدي والوجوه ، يدرك في قلب هذه اللحظة أن الفرح كالحزن ، كلاهما يستر أجزاء من الحقيقة ، وأنه في حاجة إلى بعض الوقت ، ليلتقي حقا بأولاده ، ليعرف أحزانهم المستورة ، ومخاوفهم الكامنة ، ويتسمع نبض تساؤلاتهم الحائرة !! ولايكاد يبدأ التواصل حتى تأزف ساعة الرحيل . منذ أكثر من اثني عشر عاما وهو يعيش هذه اللحظات ، يعيش تكرر هذه اللحظات . في البداية كان يتعامل معها كلحظات استثنائية ، يغالبها بقوة استثنائية ، وبكلمات حكيمة عن ضرورة التعايش بين ما هو طبيعي وماهو ضروري ، بين حاجة أبنائه إلى وجوده بينهم ، وبين حاجتهم إلى عمله بعيدا عنهم أيضا ، وهاهو الآن يرى الاستثناء يصبح قاعدة ، والضروري يطغى على الطبيعي ، والكلمات الحكيمة تفسح مكانها لصمت أكثر حكمة !

الآن يشعر بأن للزمان صلابة تفوق صلابة المكان ، وإذا كان الإنسان قدنجح في اختراق جاذبية المكان فإنه ما يزال عاجزا عن تغيير عاداته التي يصنعها الزمان ، وانت لاتروى القصة كاملة لمن لايمكنه أن يكون بجوارك في ساعة الجد ، ولم يعد يبصر في وضوح ما الذي يختبيء وراء الصمت الأكثر حكمة ، هل هو الاتفاق الكامل أم التواطؤ الكامل ؟ هل هو الخوف على مشاعره أم الخوف منها ، من أن يضعف الممثل عن أداء دوره ، فيتوقف العرض قبل وقته الذي لايجرؤ أحد على تحديده !! لايجرؤ أو لايريد ؟ حتى هو نفسه لايملك إجابة لهذا السؤال ، فبعض ما يخيفه بشأن مايجري في داخل أولاده ويستره صمتهم الأكثر حكمة ، شعوره ببعض مايجري في داخله ، ويهرب منه بالصمت نفسه !! قبل أن يحل الصمت ، كان يحدثهم عما كتبه « الفن توفلر » عن صدمة المستقبل ، عما يمكن أن يحل بمعنى الأسرة والصداقة والحب ، فهل هذا الصمت جزء من هذه الصدمة بعد أن أصبح المستقبل حاضرا والاستثناء قاعدة ؟ ! □

أبو المعاطي أبو النجا

جمال العربية

صفحة لغة

بقلم : الدكتور حسن عباس

دَعَسَ ، وَدَهَسَ

كنا قد أشرنا في العدد الماضي إلى بعض من جناية الصحافة على اللغة ، وهي جناية لا نظن أنها تقصد قصدا ، بل تأتي عرضا ، يكون السبب فيها تمجل العاملين في الصحافة ، وجهل بعضهم بقواعد اللغة وأساليبها ، وبالفصيح من كلام العرب . يخطر لأحدهم استعمال كلمة للدلالة على حدث ، فيأخذ الكلمة دون أن يتحقق من صدق مدلولها أو مطابقتها للحالة التي يريد وصفها ، فإذا لم تكن مطابقة عثرنا على فعل مثل « دهس » للدلالة على حادث لا يمكن له أن يوصف بالدهس ، وإلا اختلف المعنى اختلافا بينا . دعنا نبحث فيما تعنيه كلمة « دهس » في مصادر اللغة ، ثم نبحث في معاني الأفعال الصحيحة البديلة التي يمكن لها أن تعبر عن هذا الحادث تعبيرا صحيحا .

جاء في اللسان : دهس : الليث : الدهسة لون كلون الرمال والوان المعزى .

ابن سيده : الدهسةُ لون يعلوه أدنى سواد يكون في الرمال والمعز . ورمل أدهسَ بينِّ الدهسِ ، والدهاس من الرمل : ما كان كذلك ، لا ينبت شجرا ، وتغيب فيه القوائم . وقيل : هو كل لين سهل لا يبلغ أن يكون رملا ، وليس بتراب ولا طين ، وقال الأصمعي : الدهاس كل لين جدا .

وقيل الدهس : الأرض السهلة يثقل فيها المشي . وقيل : هي التي لا يغلب عليها لون الأرض ولا لون النبات . وأدهس القوم: ساروا في الدهس ، أوعثوا ساروا في الوعث ، والدهساء من الضأن التي على لون الدهس ، والدهساء من المعز كالصدآء (أي السوداء المشربة حمرة) ، إلا أنها أقل منها حمرة ، والدهس والدهاس مثل اللَّبث واللباث : المكان السهل اللين لا يبلغ أن يكون رملا ، وليس هو بتراب ولا طين . وفي الحديث : « أقبل من الحديبية فنزل دهاسا من الأرض . ومنه حديث دريد بن الصمّة » لا حَزْنٌ ضَرِس ولا سَهْلٌ دَهِس . ورجل دهاس الخلق أي سهل الخلق دمثه

هذه هي دلالات كلمة « دهس » ، وهي إما أنها تشير إلى لون معين ، وإما إلى صفة في الأرض ، وهي اللين والسهولة ، فأين هذه المعاني من دلالة الحادث الذي يذهب ضحيته إنسان نتيجة ارتطام جسده بسيارة ؟

إن هناك أفعالا أخرى تبين دلالة الحادث ، وتصفه وصفا صحيحا مقاربا . ومن هذه الأفعال : داس.جاء في اللسان في معنى هذا الفعل : داس الناس الحب وأداسوه : درسوه ، عن أبي حنيفة . وفي حديث أم زرع : « ودَائِسٍ ومُنَقٍ » : الدائس

في وجه قرار إداري يقضي بإضافة سنة رابعة إلى عدد سنوات الدراسة فيها ، ولم يقتصر نشاطه العام على ذلك ، بل كان يسهم مع أقرانه من الشباب الثائر في المظاهرات التي كانت تعم بغداد استنكارا للصهيونية وأعمالها في فلسطين قبيل قيام « اسرائيل » وللسياسة الاستعمارية الانجليزية في العراق . وكان من جراء ذلك أن دخل السجن في بلدة بعقوبة القريبة من بغداد .

ثم أعيد إلى دار المعلمين في خريف عام ١٩٤٦ ، وقد تخرج فيها ليعمل مدرسا للغة الانجليزية في إحدى المدارس الثانوية في غرب العراق . ولكنه ظل على ولائه للحركة الوطنية ، يستجيب لدواعيها ، ويشارك في أحداثها ما وسعه الجهد ، فاضطر بسبب نشاطه للفرار إلى البصرة ، ومنها إلى إيران ، وفي عام ١٩٥٣ جاء الكويت ، وعمل في شركة الكهرباء ، ثم عاد إلى بغداد ، وعمل في الصحافة . وقد توفي السياب في المستشفى الأميري بالكويت إثر مرض عضال ، ظل يؤرقه طيلة ثلاث سنوات . وقد خلف من الدواوين : « أزهار ذابلة » ، « والمعبد الغريق » ، « ومنزل الاقنان » ، و « أنشودة المطر » ، و « شناشيل ابنة الجلبي واقبال » .

مرحى غيلان

ـ « بابا . . . بابا . . . »
ينساب صوتُكَ في الظلام ، إليَّ ، كالمطر الغضيرِ ،
ينساب من خلل النُعاس وأنت ترقد في السريرِ .
من أيِّ رؤيا جاء ؟ أي سماوةٍ ؟ أيِّ انطلاقِ ؟
. . . وأظلُّ أسبح في رشاشٍ منه ، أسبح في عبير .
فكأنَّ أوديةَ العراقِ
فتحتْ نوافذَ من رؤاكَ على سهادي : كلُّ وادِ
وهبتْه عشتار الأزاهر والثمار . كأنَّ روحي
في تربةِ الظلماءِ حبَّةُ حنطة وصداكَ ماءُ .
أعلنتِ بعثي يا سماءُ .
هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماءُ .

« بابا . . . » كأنَّ يد المسيح
فيها ، كأنَّ جماجم الموتى تُبرعمُ في الضريحِ
تموز عاد بكل سنبلةٍ تُعابث كلَّ ريح .

« بابا . . . . بابا . . . . »
أنا في قرار بُوَيْبَ أرقد ، في فراشٍ من رمالِهْ ،
من طينه المعطور ، والدمُ من عروقي في زلاله
ينثال كي يهبَ الحياة لكل أعراق النخيلِ .
أنا بَعْلُ : أخطِرُ في الجليل . . .
على المياه ، أنُثُّ في الورقاتِ روحي والثمارِ
والماء يهمس بالخرير ، يصلُّ حولي بالمحار
وأنا بُوَيبَ أذوب في فرحي وأرقد في قراري .

« بابا . . . . بابا . . . . »
يا سُلَّم الأنغام ، أيَّةُ رغبةٍ هي في قرارِكْ ؟
« سيزيف » يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارِك .
يا سُلَّمَ الدم والزمان : من المياه الى السماءِ
غيلانُ يصعد فيه نحوي ، من تراب أبي وجدي
ويداه تلتمسان ، ثَمَّ ، يدي وتحتضنان خدِّي
فأرى ابتدائي في انتهائي .

« بابا . . . . بابا . . . . »
جيكور من شفتيك تولَد ، من دمائِكَ ، في دمائي
فتُحيل أعمدةَ المدينة
أشجار توت في الربيع . ومن شوارعها الحزينة
تتفجَّرُ الأنهار ، أسمع من شوارعها الحزينة
وَرَقَ البراعِمِ وهو يكبر أو يمصُّ ندى الصباح
والنُسْغَ في الشجرات يهمس . والسنابلَ في الرياح
تَعِدُ الرَّحى بطعامهنّ .
كأن أوردة السماءِ
تتنفَّسُ الدمَ في عروقي والكواكبَ في دمائي .
يا ظلِّيَ الممتد حين أموت ، يا ميلاد عمري من جديدِ :
الأرضُ ; يا قفصا من الدم والأظافر والحديدِ
حيث المسيح يظلُّ ليس يموت أو يحيا . . كظلٍّ ،
كبِدٍ بلا عَصَبِ ، كهيكل ميتٍ ، كضُحى الجليد ،
النور والظلماءُ فيه متاهتان بلا حدودِ
عشتار فيها دون بَعْلِ

والموت يركض في شوارعها ويهتف : يا نيامُ
هبّوا ، فقد وُلِدَ الظلامُ
وأنا المسيح ، أنا السلامُ .
والنار تصرخ : ياورود تفتّحي، وُلِدَ الربيعُ
وأنا الفُرات ، ويا شَمّوعُ
رشّي ضريحَ البَعْل بالدم والهُباب وبالشحوب
والشمس تَعْول في الدروب :
بردانة أنا والسماء تنوء بالسُحُب الجليد .
« بابا . . . . بابا . . . . »
من أيّ شمس جاء دفْؤُكَ أيّ نجم في السماء ؟
ينسلُّ للقَفَص الحديدِ ، فيُورِقُ الغَدُ في دمائي ؟

أول ما توحي به هذه القصيدة هو أنها قصيدة مناسبة ، فقد نظمها الشاعر بعد أن رزق طفلا أسماه غيلان ، وهذا صحيح ، ولكنها ليست ككل قصائد المناسبات من حيث دلالاتها ورموزها والأساطير التي تحفل بها . إنها قصيدة انتصار الحياة على الموت . والبعث على الفناء . والتجدد على الزوال . لقد بدأت شأنا خاصا . ثم لم تلبث أن تحولت إلى شأن عام . فغيلان ، ذلك الطفل الذى لم يكن يلفظ غير كلمة « بابا » ، صار ـ عبر سلسلة من التداعيات ـ رمزا لبعث الحياة وتجددها .

والطفل والمطر في القصيدة شيئان متطابقان . كلاهما يحمل البشرى ، هذا يبشر باستمرار النوع ، وذاك يبعث في بذور الأرض القدرة على التولد والتجدد والخصب والنماء ، بل إن روح الشاعر الإنسان قد تحولت في التربة المظمئة إلى حبه حنطة ، يفعل فيها المطر ما يفعله صوت غيلان في أبيه : تفتح جديد ، وتوكيد لديمومة الحياة . ولطالما صارع الإنسان الفناء والعدم ، فيأتي الميلاد الجديد كأنه يد المسيح التي تحمل للإنسان الشفاء من علته الأزلية . ويوغل الشاعر في الحلم ، فيرى نفسه راقدا في قاع نهر بويب ، هناك حيث يتم الاتحاد بالطبيعة ، فيختلط دمه بالماء الذي يهب الحياة لكل أعراق النخيل ، بل يتحد المعقول باللامعقول بالاسطورة ، حين يرى الشاعر في نفسه بعلا يخطر على المياه في الجليل . على هذا النحو تجلّى فرح الشاعر بالميلاد ، فقد رأى فيه بعثه وخلوده ، ورأى فيه انتصار الإنسان على الفناء .

كان للميلاد هذا الأثر في السياب ، وقد استدعى كل هذه التداعيات . فما هو الأثر الذى تركه في جيكور القرية ؟

ولدت جيكور من جديد من شفتي غيلان ، وتحولت أعمدة المدينة إلى أشجار توت مورقة ، وتفجرت من شوارعها الحزينة أنهار تشيع الحياة في الجدب ، فإذا بأوراق البراعم تهمس وهي تكبر أو تمص ندى الصباح ، ويعلو صوت السنابل في الريح وهي تعد الرحى بالطعام . إذا صار الحال بعد الميلاد على النحو الذي تقدم فكيف كان حال الأرض قبل الميلاد ؟ الأرض قفص من أظافر ودم وحديد ، فيها المسيح معلّق كالظل . لا هو حي ولا هو ميت ، إنه كهيكل فاقد للحياة . وفيها تتداخل حدود النور والظلام . فتغدوان متاهة والموت ـ لا الحياة ـ هو الذي يجوب الشوارع ويهتف . « هبوا . فقد ولد الظلام » . والنار تزعم أنها هي الفرات . وتعلن عن ميلاد الربيع . والصقيع يملأ الأرض جمودا . حتى أن الشمس تعول في الدروب قائلة : بردانة أنا والسماء تنوء بالسحب الجليد ! فأين واقع الأرض هذا من حلم الشاعر الجميل ؟وما المعنى الذي تحمله النقائض في القصيدة ؟ يجيب الدكتور إحسان عباس في كتابه عن السياب بأن صورة النقيضين في دفء وبرد كما رسمها الشاعر « تتصل بوجود تموز وبعل والمسيح أو عدم وجودهم ، فعند غيابهم يصبح الكون في قبضة الأضداد الذين يتحلون غير حقيقتهم ، حتى ليدّعي الموت أنه المسيح والسلام ، وتدّعي النار أنها الماء الذي يسقي الورود لتتفتح، والشموع ترش ضريح بعل بالشحوب بدلا من الماء ، والشمس ، مصدر الدفء ، تقفقف من البرد ، وعشتار مصدر الخصب تصبح رمزا للعقم لأن « بعل » غائب عنها . إن انتصار جيكور كان عودة لبعل وتموز والمسيح ، للخصب والدفء والسلام ، كان بعثا للدفء الذي يستطيع أن يطرد قشعريرة الأرض ، وزمهرير الجو الجليدي ، وكان ذلك كله معناه الخلود الذي لا ينتقص منه الموت الجميل أي شيء . □

قصيدتان

بقلم : زهور دكسن



١ التسامح

أي جذوري ؟
ألمُّ شراعي وأترك صاريتي وأسامح
تأخذني الريح بالمدركات ، وأعلم أنّ التحمّل همٌّ . .
وأن التجمّل وَهم وأدرك بالمعجزات احتمالي . .
وتمضي النهاراتُ تلو الليالي ، أردُّ انكسارها حين أقوى . .
وحين أنوء تردُّ انكساري
وما بين . . هلاّ أسامحُ ؟
ما بين . . أنّى أسامحُ ؟
ينأى شراعُ القرارِ !

٢ يا أرحم الراحمين

أتقيُّلُ باسمكَ وَعْثَ السفرْ
في ظلام المفاوز . . في حدرات الحُفَرْ
وباسمك يا بارئي أتقرّى الأمانْ
على عسف هذا الزمانْ
أُحاور ذَاتِيْ ، أُقاومُ حدّ الترفُّع، كلّ قرارٍ مُدانْ
أمدُّ اليقينَ
معابرَ . . للضفتين
وباسمكَ أقفل راجعةً . .
من لهاث المواسمِ . . للموت
يا أرحم الراحمين .

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

نوفمبر
١٩٨٨

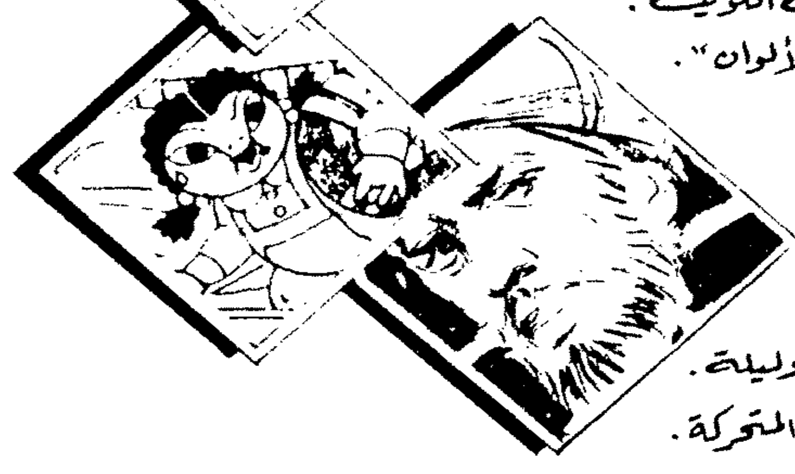


رئيس التحرير : د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

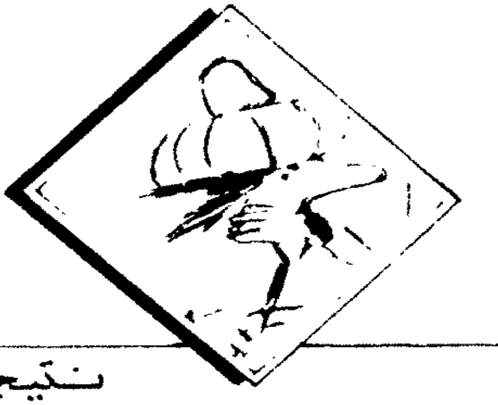
في هذا العدد



- النادي العلمي في الكويت.
- همام "مسلسل بالألوان".
- مراكش
  "مدن لها تاريخ".
- ابن الهيثم
  "مسلسل تاريخي".
- حكاية من ألف ليلة وليلة.
- استطلاع عن الرسوم المتحركة.

إضافة للأبواب الثابتة

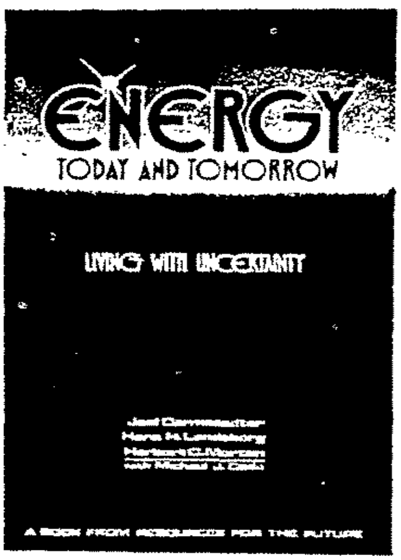
- اسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات
  لأخيك الصغير واختك الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير



نتيجة مسابقة العدد ٣٢



كتاب الشهر



الطاقة اليوم وغدًا
الحياة مع المجهول

تأليف : جول دارمستدر وآخرون

عرض : بهاء الدين محمود عبد الحميد

يعرض هذا الكتاب لقضية من أهم القضايا الحيوية التي تشغل العالم في الآونة الأخيرة ، وهي قضية الطاقة ، ذات الجوانب المتعددة ، اذ ترتبط الطاقة ارتباطا وثيقا بالحياة اليومية لكل البشر ، كما ترتبط كذلك بمقدرات كثير من الدول والحكومات ، ومن ثم أضحت الطاقة اوراقا للعب على موائد السياسة . وفي هذا الكتاب يحاول المؤلف ان يضع الصورة كاملة امام القارىء ،ليستكشف بنفسه أبعاد هذه القضية الحيوية .

يبدأ المؤلف كتابه الصادر في الولايات المتحدة عام ١٩٨٤ بالحديث عن حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ بين العرب « واسرائيل » . تلك الحرب التي حدت بكثير من الأقطار العربية المنتجة للنفط الى حظر تصديره الى الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا ، وكانت تلك عاصفة مفاجئة لم يتوقع حدوثها الأصدقاء والأعداء . بيد أن العاصفة هدأت وكادت الأمور تعود الى طبيعتها . وقد فند المؤلف كثيرا من الأسباب التي دعت كثيرا من الدول الصناعية الكبرى الى الاهتمام بالبحث عن بدائل جديدة للطاقة . ومن هذه الأسباب زيادة الطلب على النفط الخام على الرغم من الارتفاع المتزايد في الانتاج العالمي منه (فقد تزايد اجمالي الانتاج العالمي من النفط من ٣.٨ ثلاثة بلايين وثمانية أعشار البليون برميل عام ١٩٥٠ الى ٢٠.٤ بليون برميل عام ١٩٦٥) وقد بين المؤلف أن الصراع العربي « الاسرائيلي » عام ١٩٧٣ كان من أهم العوامل الرئيسية التي قلبت ميزان الأسعار في سوق النفط رأسا على عقب ، كما أثر هذا الصراع على الاقتصاد العالمي بشكل واضح .

وتحت عنوان هامشي هو : « تحديات وحقائق » يتحدث المؤلف عن الظروف السياسية التي طرأت على منطقة الشرق الأوسط بعد نشوب الحرب العراقية الايرانية ، فيورد حقائق مهمة ، هي أن منطقة الشرق الأوسط تعد من أهم المناطق التي سيظل يعتمد عليها العالم أمدا طويلا في امداده بالنفط ، وذلك لجودة خاماته ، كما يورد المؤلف حقيقة أخرى هي أننا لانستطيع ـ حتى الآن ـ أن نحد من التكاليف المطردة الارتفاع في استخراج مصادر الطاقة واستخدامها ، ثم يورد حقيقة أخرى هي أننا لا يجب أن نتجاهل التأثيرات السيئة لاستخدامات الطاقة على البيئة ، كما أنه من الصعب التعامل التام مع هذه التأثيرات . ثم يذكر المؤلف حقيقة أخيرة هي أننا يجب أن نتوقع حدوث كثير من المفاجآت والصدمات العنيفة في ميدان الطاقة . وأكبر برهان على تلك الحقيقة هي تلك الأسعار الخيالية التي وصلت اليها أسعار النفط الخام إبان حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ بين العرب « واسرائيل » .

ولايخفي المؤلف اعتقاده بأن منطقة الشرق الأوسط وقد شهدت مفاجآت وتغيرات أسعار النفط عام ١٩٧٣ لن تشهد بعد ذلك مثل هذه التغيرات مرة أخرى .

من الانتاج الى الاستخدام

ويتحدث عن الطاقة من مرحلة الانتاج حتى مرحلة الاستخدام . فيذكر الفحم مثالا على ذلك . فاحتراق الفحم يولد طاقة بخارية تستطيع أن تدير « توربينا » يولد الكهرباء وهكذا .

ثم يقارن بين الدول في مجال استخدام الطاقة المختلفة . ثم يتحدث عن الارتفاع المتزايد في استخدام هذه الطاقات المختلفة ، وعن العلاقة بين استخدام الطاقة والاقتصاد ، ثم يتحدث عن العلاقة بين استخدام الطاقة وبين اجمالي الانتاج القومي لكل دولة من دول العالم ، اذ تضاعف كل منهما ، وذلك نتيجة لاستحداث الكثير من الصناعات والخدمات الجديدة التي تستخدم فيها الطاقة على نطاق واسع ، مثل كهربة المصانع وآلاتها ، واستخدام مصادر الطاقة في الميكنة الزراعية الحديثة ، واستخدام الديزل في السكك الحديدية . وعلى هذا نستطيع أن نتبين ذلك التحول

الجلي في استخدام الطاقة على مدى العصور السابقة من استخدام الخشب الى الفحم الى النفط الى الغاز الطبيعي الى آخر هذه التحولات والاكتشافات التي تمخض عنها العقل البشري خلال العصور السابقة حتى وقتنا الحالي .

في حديثه عن الفحم يذكر أن جودة الفحم تتوقف على نسبة احتوائه على عنصر الكبريت ، كما تتوقف على القيمة الحرارية التي تتولد عنه عند احتراقه . ولذا نجد أنه كلما زادت كمية الكبريت في الفحم الخام قلت جودته . ويعد الفحم الذي تنتجه معظم الدول العربية ذا قيمة حرارية أقل من مثيله في سائر دول العالم ثم يتحدث المؤلف عن استخدامات الفحم على المستوى العالمي ، وبخاصة في مجال انتاج الحديد من خاماته الأولية . تلك الصناعة التي مازالت تعتمد فيها الفحم وقفة العملاق

ثم يتحدث عن النفط . فيذكر أن الاحتياطي العالمي منه يقدر حتى الآن بنحو ٦٥٠ بليون برميل ، أما الاحتياطي منه في المناطق التي لم تكتشف بعد من العالم فيقدر بنحو ضعف هذا الرقم . وفي أوائل الثمانينيات أعلن العلماء أنه اذا ما ظل استهلاك العالم للنفط على ماهو عليه الان فان جملة الاحتياطي العالمي منه لن تكفي العالم أكثر من ثلاثين عاما ، ولذا قال بعضهم . ان عصر النفط قد أوشك على الانتهاء ، لكن تلك المقولة لم تدم طويلا بعد الاكتشافات النفطية الهائلة في بحر الشمال والمكسيك ، اذ يبلغ معدل الانتاج اليومي لهاتين المنطقتين مايقرب من خمسة ملايين برميل .

ويتناول الغاز الطبيعي الذي يتم اكتشافه منفردا في بعض الأحيان ، أو يتم اكتشافه مع النفط في أحيان أخرى . وتكمن أهمية هذا الغاز في امكانية نقله عبر الأنابيب بسهولة ويسر ، ثم يتحدث عن تناقص احتياطي الولايات المتحدة من الغاز الطبيعي بصورة مطردة ، بيد أن البحث الدائب عن هذا الغاز في شتى أنحاء الولايات المتحدة على أعماق تتجاوز ١٥,٠٠٠ قدم أو أكثر من ذلك ربما يجعل هذا النقص المطرد أمرا بعيد الحدوث .

النفط الصخري

ويتحدث المؤلف أيضا عن اليورانيوم ، فيذكر أنه على الرغم من اكتشاف هذا العنصر منذ فترة طويلة الا أن استخداماته قد ظلت محدودة مدة كبيرة ، وعلى نطاق ضيق ، حتى أتى عصر الذرة في عام ١٩٤٢ ، حين أجرى العلماء أول تفاعلات انشطارية للذرة في جامعة شيكاغو . فمنذ ذلك الحين اعتقد العلماء أنهم وجدوا ضالتهم المنشودة لحل مشاكل الطاقة ، اذ يستطيع الطن الواحد من اليورانيوم توليد طاقة تعادل مايتولد من احتراق ٣٥٠٠ طن من الفحم وتعتبر الولايات المتحدة وكندا في طليعة الدول التي تملك أكبر احتياطي من هذه المادة المهمة ، ويليهما في ذلك جنوب افريقيا ، واستراليا ، وزامبيا ، والبرازيل . وقد استدعت حاجة الدول الكبرى الى اليورانيوم لاستخدامه في الأغراض العسكرية والسلمية الى زيادة الطلب عليه ، وأدت تلك الحاجة بدولة مثل الولايات المتحدة الى الجد للكشف عن وجوده لأنه عنصر استراتيجي، حتى اكتشف في العديد من المناطق مثل جبال روكي . وفي موضع أخر يتحدث المؤلف عن البدائل الأخرى التي يحاول العلماء استحداثها في الأونة الأخيرة للوقوف بحزم أمام العقبات التي وجدها منتجو الطاقة السائلة مثل النفط ، ومن هذه البدائل النفط الصخري ويوجد هذا النوع من النفط في أنحاء عديدة على سطح الكرة الأرضية ، ويقدر عدد الأماكن التي يوجد بها هذا النوع من النفط مايقرب من مائة وخمسين مرة قدر الاماكن التي يوجد بها النفط العادي ، كما تفوق تكلفة استخراج البرميل الواحد من هذا النوع مايقرب من ٢٥ سنتا أكثر من تكلفة استخراج البرميل الواحد من النفط العادي ، ومن ثم فقد تأخر هذا النوع في دخول مجال المنافسة مع النفط

العادي ، الا بعد التحولات المفاجئة التي حدثت في الآونة الأخيرة في أسعار النفط العالمية .

ويتنقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن رمال القار التي تستخدم وقودا بعد فصل الهيدروكربونات منها بطريقة علمية معقدة ، وتتركز هذه المادة الجديدة في كندا والولايات المتحدة وفنزويلا وزائير وغيرها . ويتناول في حديثه الزيت الثقيل وهو نوع من النفط ذو لزوجة كبيرة لاتمكن من استخراجه بسهولة ويسر من الآبار التي يكتشف فيها ، ومن ثم يصعب نقله عبر الأنابيب مثل زيت النفط العادي ، ولذا يحتاج الى ضخ بخار ساخن لدفعه من أماكن وجوده في باطن الأرض . أما عن مصادر الطاقة الجديدة والمستحدثة فانها تشمل العديد من المواد يذكر المؤلف منها : البيوماس والطاقة الشمسية . ويقصد بالبيوماس تلك المادة الجديدة التي استطاع العلماء انتاجها من المواد العضوية ، مثل بقايا الأشجار ، ومخلفات الغابات ، وقصب السكر ، وقشر الأرز ، وهي بديل الطاقة المستقبلي لمواجهة التزايد المطرد في أسعار النفط .

طاقة الريح

تعد الطاقة الشمسية من أرخص الطاقات المتاحة ، ويمكن تحويلها الى طاقة حرارية مباشرة ، لاستخدامها في أغراض عديدة ، مثل توليد الكهرباء بالخلايا الشمسية ، وقد أجريت أول تجربة لتوليد الكهرباء من الشمس عام ١٩٥٨ في الولايات المتحدة الامريكية . وتمتاز هذه الطريقة بعدم اعتمادها على وجود التوربينات أو المولدات أو المساقط المائية ، لكن برزت في الأفق مشكلتان رئيسيتان في توليد الكهرباء بهذه الطريقة وهما أن الخلايا الشمسية التي يقع على عاتقها دور التجميع لأشعة الشمس لا تزال حتى الآن باهظة التكاليف ، كما أنها لاتحول كل أشعة الشمس التي تسقط عليها الى طاقة كهربية . ويحاول العلماء جاهدين انتاج خلايا شمسية أقل تكلفة وأكثر جودة إذ لاتستطيع أكفأ خلية شمسية ـ حتى الآن ـ تحويل أكثر من ٢٠٪ من الأشعة الشمسية الساقطة عليها الى طاقة كهربية . ثم يتحدث المؤلف بعد ذلك عن طاقة الرياح واستخداماتها ، كما يتحدث عن الطاقة الجيوحرارية ، وهي الطاقة المتولدة عن البراكين التي تستخدم منذ أكثر من ثمانين عاما لتوليد الكهرباء في ايطاليا ، كما توجد مراكز عديدة للاستفادة من تلك الطاقة في كل من الولايات المتحدة ، ونيوزيلاندا ، وأيسلندا ، واليابان ، والمكسيك .

وينهي المؤلف فصله الثالث فيذكر أحدث الاتجاهات في مجال انتاج الطاقة ، كإنتاج مادة البيوماس من المخلفات العضوية على نطاق واسع . وقد خطت البرازيل خطوات جادة في هذا المجال ، فأنتجت الجازولين بنجاح من تخمر قصب السكر . ثم يبدأ المؤلف بالحديث عن البحث والتطور لتوسيع مجال الطاقة .

فيؤكد على أهمية البحث العلمي في شتى مجالات الحياة الانسانية ، ومن ثم فإن علماء الطاقة مازالوا يبحثون ويحللون لايجاد مصادر جديدة للطاقة ، وهم يضعون نصب أعينهم تحقيق أقل تكلفة ممكنة لانتاج الطاقة التي تتزايد باطراد ، ثم يؤكد المؤلف على ضرورة دعم الدول والحكومات للبحث العلمي ، ليحقق أهدافه المرجوة ، ففي فترة السبعينيات (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠) تزايد الاهتمام بالبحث عن بدائل أخرى للنفط لكبح جماح تزايد الأسعار المفاجيء ، ومن ثم أنتج العلماء الكثير من البدائل التي ورد ذكرها في الكتاب .

كما يحاول العلماء إنتاج أكفأ الأنواع من الخلايا الشمسية وأرخصها . يقول بعض العلماء : (اذا كانت الطاقة الشمسية غير مكلفة متاحة دون مقابل فلماذا يظل استغلال هذه الطاقة باهظا الى هذا الحد ؟) . ويأمل المؤلف أن يستطيع البحث العلمي حل هذه المعادلة الصعبة في القريب العاجل ، وذلك بالتعاون مع الأجهزة الحكومية في شتى الدول المعنية بمجال انتاج الطاقة الشمسية واستخداماتها .

سوق الطاقة

ويتناول المؤلف بالبحث مفهوم (سوق الطاقة) ، ودوره الفاعل في اقتصاديات الكثير من الدول ، وبخاصة الدول المنتجة لمصادر الطاقة المختلفة .

ثم يتحدث المؤلف عن منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) وتأثيرها المباشر على أسعار النفط العالمية ، ويقرر حقيقة مهمة ، وهي أن دول الأوبك تسيطر الآن بطريقة مباشرة على ٨٠٪ من حقول النفط الموجودة في أراضيها ، وذلك بعد التأميم الذي تم انجازه في معظم أراضي كبرى الدول المنتجة للنفط ، ولنأخذ مثالا على ذلك المملكة العربية السعودية التي أنشأت الشركة العربية الامريكية للبترول ، تلك الشركة التي تضم كبريات شركات النفط الأمريكية ، ويملك السعوديون القرار في تحديد عدد البراميل التي يجب انتاجها في اليوم الواحد ، كما يحددون أسعار بيع هذه الكميات بأنفسهم.وهكذا نجد أن دول الأوبك استطاعت في الآونة الأخيرة أن تقرر مصائرها بأيديها ، أما في مجال صناعة الفحم فيذكر المؤلف أن هذه الصناعة عادة تتأثر بأسعار النفط العالمية ، كما تتأثر كذلك بالتوزيع الجغرافي لأماكن الانتاج ، اذ يعد الفحم من مصادر الطاقة التي تحتاج الى وسائل عديدة لنقله من أماكن الانتاج الى مناطق استخدامه . ويضيف المؤلف أن الاهتمام بالفحم قد قل في الآونة الأخيرة في عديد من مناطق العالم ، وذلك لقلة الاهتمام بالمناجم الأرضية لأخطارها العديدة ، لكن الانسان مازال يحاول أن يفي باحتياجاته من الفحم على الرغم من خطورة استخراجه ، لاستخدامه في عديد من الصناعات المهمة التي لابديل عن الفحم فيها ، مثل صناعة الحديد والصلب . ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن الطاقة الكهربية ، فيقرر أن استهلاك الكهرباء قد تزايد بدرجة كبيرة في شتى أنحاء العالم ، وقد ارتفعت تكلفة الحصول على تلك الطاقة المهمة بصورة مطردة ، أما عن الطاقة النووية فيذكر المؤلف أنه على الرغم من أن هذه الطاقة حديثة نسبيا اذا ماقورنت بأنواع الطاقات الأخرى ، فانها ماتزال أكثر الطاقات تكلفة حتى الآن ، كما أنها ماتزال تحمل في جنباتها كثيرا من الأخطار المحتمل وقوعها بين حين وآخر ، ولذا فإن شيوع استخدامها لم يعد حتى الآن شيئا مقبولا الا في أغراض محددة ، ومن ثم يقترح المؤلف على العلماء وضع استراتيجيات عديدة ، تضمن أقل التكاليف وأكثر السبل أمانا في استخدام هذه الطاقة التي استحدثها البشر في القرن الحالي .

الانحلال البيئي

في الباب السادس يتحدث المؤلف عن الطاقة والبيئة وتلوث البيئة في ثلاث نقاط :

أولها : أنه من الصعب ، بل ليس من الضروري ، أن نزيل مصادر التلوث الناتجة عن استخدامات الطاقة ، فالنظام البيئي الطبيعي جدير بامتصاص معظم هذه الملوثات .

ثانيا : أننا لانستطيع ـ حتى الآن ـ تحديد خطورة التلوث البيئي ، لكننا نستطيع أن نلمح بعضا من (الانحلال البيئي) فقط مثل الهواء الملوث أو الماء الملوث أو البحيرات التي تغيرت طبيعتها المائية من الجيد الى الأسوأ وهكذا . ويضيف المؤلف قائلا : انني لا أريد أن أؤكد أن الكثير من الملوثات البيئية الخطيرة ربما توجد في البيئة المحيطة بنا دون أن نلمح لها أثرا يدل على وجودها .

ثالثا : يجب ألا تغيب عن أذهاننا حقيقة مهمة هي أن التلوث البيئي في هذا العالم قد تزايد بسبب بسيط جدا هو أن التخلص من المواد الملوثة الى البيئة المحيطة بنا يعتبر أقل تكلفة من معالجة هذه الملوثات قبل صرفها ، ومن ثم فكثير من المصانع يلجأ الى التخلص من مخلفاتها الى البيئة المحيطة ، فتزيد تلوثها بدلا من معالجة هذه النواتج والمخلفات . وفي حديث المؤلف عن الفحم يذكر أن علماء البيئة يتوقعون زيادة درجة حرارة سطح الأرض ثلاث أو أربع درجات مئوية في منتصف القرن الحادي والعشرين المقبل ، وذلك نتيجة طبيعية لتزايد احتراق الفحم المستخدم في الحصول على الطاقة ، وبالتالي سوف يتزايد ـــ ـاز ثاني اكسيد الكربون في الجو . فتمنع هذه الطبقة نفاذ الحرارة من سطح الأرض الى الفضاء الخارجي ، فتزيد تبعا لذلك درجة حرارة سطح الأرض ، وفي حديثه عن النفط يذكر أن أكثر من ٦٠٪ من جملة الانتاج العالمي من النفط يتم نقله عبر البحار والمحيطات ، لذا فإن أخطار تلوث هذه البحار ليست صعبة الحدوث . ولاينبغي أن نتناسى ذلك التلوث الرهيب الذي أحدثته ناقلة النفط أموكو كاديز عام ١٩٧٨ في القنال الانجليزي

وينتقل المؤلف الى الحديث عن الطاقة النووية فيذكر أن الجدل مازال قائما حول هذه الطاقة أكثر من أي نوع من أنواع الطاقات الأخرى . ولعلنا نذكر حادثة المفاعل النووي في (جزيرة ثري مايل) في ٢٨ مارس ١٩٧٩ ، وقد بينت هذه الحادثة أننا مازلنا لانعلم كثيرا عن الأخطار المحتملة داخل العديد من المفاعلات النووية ، ولذا يجب علينا توحيد الجهود الدولية لمواجهة مثل هذه الأخطار . ولقد تصور كثير من العلماء قبل هذا الحادث أن الطاقة النووية ينتظرها مستقبل وردي ، وظلوا يحلمون بهذا حتى غطى الضباب تلك الأحلام والآمال الوردية ، بعد وقوع هذا الحادث . وهكذا يمضي المؤلف محللا ومقارنا بين طاقة وأخرى ، ومدى ماتحمله من أخطار وكوارث للبشرية .

الطاقة في عالم غير مستقر

في الباب الأخير من الكتاب وعنوانه : « الطاقة في عالم غير مستقر » يتحدث المؤلف عن الصدمات العنيفة التي منيت بها أسواق الطاقة خلال فترة السبعينيات ، وبخاصة بين عامي ٧٣ ـ ١٩٧٤ ، وكذلك بين عامي ٧٩ ـ ١٩٨٠ ، تلك الصدمات التي أدت الى ازدياد معدلات البطالة ومديونيات عديد من دول العالم الثالث ، وفي حديثه عن السياسات الدولية للنفط يقرر المؤلف أن استخدام سلاح النفط كأوراق للعب على موائد السياسة لم يكن بالشيء الجديد ، حتى قبل قيام منظمة الأوبك عام ١٩٦٠ ، لكن ظهور هذا الشكل من اللعب السياسي لم يأخذ وضعا ذا أهمية كبيرة الا ابان حرب أكتوبر ١٩٧٣ بين العرب و « اسرائيل » ، وأكبر دليل على ذلك أن الأعضاء العرب في منظمة الأوبك لم يستطيعوا أن يعيدوا فرض نفس الحظر النفطي السابق حينما غزت « اسرائيل » الأراضي اللبنانية عام ١٩٨٢ ، وعلى الرغم من كل هذا يحذر المؤلف من يرددون في الدول الغربية المقولة السخيفة : (ماذا سيفعل العرب بالنفط ؟ هل سيشربونه ؟ فليشربوه ان استطاعوا !) . ويعقب المؤلف على هذه المقولة بقوله : ان سقوط شاه ايران ونشوب حرب الخليج ليسا الا حدثين تمخضت عنهما الأيام في تلك المنطقة المهمة من العالم ، ومن يدري لعل الغد يحمل في جعبته موجة جديدة كفيلة بقلب أسواق النفط العالمية رأسا على عقب ، وحينئذ يندم المتفوهون بهذه المقولة حين لاينفع الندم . □

بنيـة العقل العربي

تاليف : الدكتور محمد عابد الجابري / عرض : رافع عبدالرحمن

منذ صدور كتابه الشهير « نحن والتراث » والمفكر محمد عابد الجابري يثير جدلا واسعا في مجال الدراسات التراثية ، وهو جدل اتسع وتشعب مع مشروع الجابري الكبير في « نقد العقل العربي » وفيما يلي عرض للجزء الثاني من هذا المشروع .

« بنيـة العقل العـربي » هو الجزء الثاني من مشـروع تراثي كبـير عنوانـه « نقـد العقـل العربي » للدكتور محمد عابد الجابري . وكان المؤلف قد سلط الضوء في الجـزء الأول ـ « تكوين العقـل العربي » ـ على تشكل العقل العـربي ومكونـاته ، وانتهى إلى التمييز بين ثلاثة نـظم معرفيـة : البيان والعرفان والبرهان .

وفي هذا الجزء يحلل الجابري هذه النظم المعرفية ، مسلطا الضوء على كيان العقل العربي من داخله ، محددا العوائق « الابيستيمولوجية » التي تعوقـه من داخله

يقوم الجابري بمهمته هذه متسلحا بمعرفة واسعة بتراثنا الفكري ، بمنهجية حديثة . ومـزايا عـديدة يلمسها القارىء . ونـأمل أن يكـون هذا العـرض للكتاب دعوة لقراءته أو إعادة لقراءته

البيــــان

للوصول إلى تحديد أهم السلطات المرجعية التي تقود التفكير في الحقل البياني العربي ، بل في العقل البياني ، يسعى المؤلف في مدخـل القسم الأول من الكتاب إلى التعريف بالكيفية التي انتقل بها « البيان » كنظام معرفي ، من حالة اللاوعي إلى حالة الوعي .

يقرأ ماجاء في « لسان العرب » مادة (ب . ي . ن) ويخلص إلى أن البيـان في إطاره اللغـوي يفيـد الفصل والانفصال ، والظهور والاظهار .

وينتقل إلى الأبحاث البيانية ، فيرصد جانبين أساسيين في « البيان » كما حدده الشافعي : « أصول » تتشعب عنها فروع ، و « قوانين » وقواعد لتفسير الخطاب ، ومن قراءته شروط إنتاج الخطاب البياني عند الجاحظ يخلص إلى أنها تتلخص في تحقيق التوافق والانسجام في اللفظ والمعنى .

ويجد عند ابن وهب نظرية في المعرفة ، يحتل فيها « الخبر » مركزاً رئيسياً أوليا يوازن « النظر » إن لم يكن أقوى منه ، وذلك على مستوى اكتساب المعرفة .

ويصل الجابري من كل ذلك إلى أن أزواجا من المفاهيم تشكل العناصر الرئيسية في البنية العامة للنظرية البيانية في المعرفة العربية ، وهذه الأزواج هي : اللفظ والمعنى ، الأصل والفرع ، الخبر والقياس .

ويخلص من تحليله لإشكالية اللفظ والمعنى إلى أن التعامل معها قد رسّخ لدى البيانيين النظرة التي تتعامل مع اللفظ والمعنى ، وكأن لكل منها كيانه الخاص ، وقد نتج عن ذلك الفصل بين اللغة والفكر . وان البيانيين نظروا إلى النص كألفاظ وعبارات لغوية ونظام خطاب ، ولم ينظروا إليه كمعان ومقاصد ، ومن نتائج ذلك على العقل البياني ونتاجه المعرفي مايلي :

في مجال النحو خلط النحاة بين النحو والمنطق ، وجعلوا كثيرا من القواعد النحوية قواعد للفكر ، فصارت اللغة وعاء يؤطر الفكر ضمن قوالب ومقولات لغوية .

وفي مجال الفقه أهمل الفقهاء مقاصد الشريعة ، وأصبحت « مقاصد اللغة » هي المتحكمة ، وكان لابد أن يتقوقع التشريع ، مما جعل انغلاق باب الاجتهاد نتيجة حتمية .

وفي علم الكلام أدى الانسياق مع متاهات إشكالية اللفظ والمعنى والخضوع لمنطقها إلى خنق العقل وتحجيم دوره .

أما في مجال البلاغة فقد صار المعيار البلاغي واحدا ثابتا وهو التزام طريقة القدماء في الشكل والمضمون ، وعندما استنفد المضمون امكانيات الاستعادة والاجترار صارت السلطة كلها للشكل ، للفظ ، والمحسنات اللفظية .

وفي تحليله لزوجية الأصل والفرع يشير الجابري إلى أن الشافعي حدد أصول الفقه في أربعة : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وجاء الأصوليون من بعده فصنفوها إلى : النص (القرآن والسنة) والاجماع والقياس ، ويلاحظ أن لعملية التعبير عن القرآن والسنة معا بـ « النص » أهمية عظيمة جداً على الصعيد « الابيستيمولوجي » ، لأنها حولت الأصول الأربعة من أصول للفقه وحده إلى أصول يمكن أخذها في صورتها المجردة (نص ، اجماع ، قياس) ، وتأسيس أنواع من المعارف عليها .

ويؤكد أن عملية التفكير في العقل البياني محكومة دوما بـ « أصل » ، فالمعرفة العقلية في الحقل البياني تقوم كلها إما انطلاقا من أصل « الاستنباط » ، وإما انتهاء إلى أصل « القياس » ، وإما بتوجيه من أصل « ضوابط منهجية » .

ويتناول « نظرية الخبر » البيانية ، فيجد أن السلطة التي تؤسس خبر الآحاد وخبر التواتر هي سلطة « إجماع الصحابة » فما الذى يؤسس سلطة « الاجماع » ؟ إنها « سلطة السلف » ، سلطة الماضي . (فكان الاستبداد الذي عانى منه العقل البياني استبدادين : استبداد الحكام بالسياسة ، واستبداد السلف بالمعرفة) .

ويحلل المؤلف القياس البيانى وإشكالية التحليل مبينا أن هذا القياس لايعني استخراج نتيجة تلزم ضرورة عن مقدمتين أو اكثر ، بل يعني إضافة أمر إلى آخر بنوع من المساواة ، فهو مقايسة ومقاربة بين أصل وفرع ، بين شاهد وغائب . وأن القائس لايصدر حكما من عنده ، بل يمدد حكم الأصل إلى الفرع اعتمادا على مايجد من شبه يبرر القياس ، والحكم الذي يصدره المجتهد يقوم على الظن لا على اليقين .

ومن دراسته لمبحث العلة يستنتج أن الاستدلال في العلوم البيانية الاستدلالية واقع تحت وطأة إشكالية تبرير الأحكام ، وأن التعليل في الفقه وعلم الكلام

والنحـو إنما يقـوم على الجـواز لا على الـوجـوب ، ووظيفته لاتتعدى المقاربة ، وأن اللزوم البياني يقوم في أحسن الأحوال على الترجيح ، ولا عـلاقة لـه بالضرورة المنطقية .

العرفـــــان

أما العرفان كفعل معرفي فهو ،ما يسميه أصحابه « الكشف » أو « العيان » وكحقل معرفي هو عبارة عن خليط من هواجس وعقائد وأساطير تتلون بلون الدين الذي تقوم على هـامشه ، لتقـدم له مـايعتقد العـرفانيـون أنه « الحقيقـة » الكامنـة وراء ظـاهـر نصوصه .

ويلقي المؤلف الضوء على الموقف العرفاني الذي كان دائما موقف هروب من العالم إلى عالم « العقـل المستقيل » كلما اشتدت وطأة الواقع على الفرد الذي لايعرف كيف يتجاوز فرديته .

ثم يتناول العرفان في بيئته الإسلامية على محورين رئيسيين يتمثلان في الزوجين (الظاهر والبـاطن ، النبوة والولاية) ، ويخصص فصلين لقراءة تحليلية نقدية تتركز على المنهج أساسا في المحور الأول وعلى الرؤية في الثاني .

يحتل الزوج (الظاهر والباطن) في الحقل المعرفي العرفاني موقعا يماثل الموقع الذي يحتله الزوج (اللفظ والمعنى) في الحقل المعرفي البياني ، وقد تم توظيف ذلك الزوج على ثلاثة مستويـات : مستوى تـأويل الخـطاب ، ومستوى انتـاجه ، ومستـوى التـنظيم الاجتمـاعي . والجابـري يعنى بـالمستـويـين الأول والثـاني ، فيتنـاولهـا بـالتشـريـح ، وممـا يبينـه أن « الحقيقة » العرفانية ليست عامة كلية ، بل ذاتيـة ظرفية ، تخص الشخص الواحد ، وإذا كانت هذه «الحقيقه» خاطرا يخطر بالنفس لمناسبة فإن العلاقة بينها وبين المناسبة التي تثيرها ليست علاقة ضرورية ولا حتى منتظمة .

ثم يضع « الكشف » موضع المساءلة ، ويقرر أن العـرفانيـين يعتمدون المماثلة في تـأويـل الخـطاب القرآني ، المماثلة بين معان وآراء جاهزة لديهم وبين المعنى الظاهر الذي تعطيه عبارة النص . ويبـين أن القيـاس العرفـاني قياس دون جـامـع ، دون حـد أوسط ، دون رقابة عقليـة ، إنه انـزلاق بالممـاثلة بوصفها مشابهة في العلاقة بين بنيتين إلى المطابقة بينهما بصورة تجعل الواحدة منهما مرآة للاخرى .

والجابري يحلل نظرية النبوة والولاية عند الشيعة « اثنا عشرية واسماعيلية » ، بعد أن يلفت انتبـاه القاريء إلى أن الزوج (النبـوة والولايـة) في الفكـر العرفاني يماثل ويوازن الزوج (الأصل والفرع) في الفكر البياني ، لكن اتجاه الفكر هنا يكون بالعكس ، فالولاية هي الأصل ، والنبوة هي الفرع .

ويجـد النظريـة المذكـورة تعرض رؤيـة متكاملة للكـــون والإنســـان ، منســـوجـة حـــول محـورين رئيسيين : شخصية الإمام وقصة المبدأ والمعاد شخصيـة الإمـام محور لنظرية في المعرفة ، وقصة المبدأ والمعاد إطار لنظريـة في الوجـود : الطبيعي والـروحاني ، والنظريتان تقـومان بـإلغاء العقـل وإحلال عـرفان الإمام محله .

ويقدم الجابري في خاتمة القسم الثاني من الكتاب خلاصات تجمع شتات ملاحظاته :

فالعرفانية الهرمسية هي البنية الأم للفكر العرفاني



في الإسلام ، والتأويل العرفاني للقرآن هو تضمين ألفاظ القرآن أفكارا مستقاة من الموروث العرفاني القديم . وقد كرس العرفانيون الإسلاميون في الحقل المعرفي العربي الإسلامي لا عقلانية صميمة ، على صعيد المنهج وعلى صعيد الرؤية .

و « الكشف » العرفاني هو أدنى درجات الفاعلية العقلية ، والعرفانيون يوظفون الأساطير توظيفا دينيا ، فيجعلون الحقيقة وراء « الشريعة » و « الباطن » وراء « الظاهر » ، والحقيقة عندهم ليست الحقيقة الدينية أو العلمية أو الفلسفية ، بل هي الرؤية السحرية للعالم التي تكرسها الأسطورة .

البرهـــان :

البرهان يعتمد قوى الإنسان المعرفية الطبيعية من حس وتجربة ومحاكمة عقلية ، وحدها دون غيرها في اكتساب المعرفة بالكون لتشييد رؤية للعالم . يكون فيها من التماسك والانسجام مايلبي طموح العقل إلى إضفاء الوحدة والنظام على شتات الظواهر .

وقد تأسس البيان والعرفان باعتماد القرآن والحديث أولا وقبل كل شيء ، أما بالنسبة للبرهان فالأمر يختلف تماماً . فمن جهة أولى يتعلق الأمر بمنهج في التفكير ، وبتصور للعالم ، يختلفان تماما عن المنهج والتصور اللذين تم إرساؤهما في الثقافة العربية الإسلامية بمعطياتها الخاصة : اللغة والدين ، ومن جهة ثانية يتعلق الأمر بعالم من المعرفة يكفي نفسه بنفسه ، وتأسس بوسائله الخاصة التي هي العقل ومايضعه من أصول

إذن فتأسيس البرهان داخل الثقافة العربية الإسلامية سيكون عبارة عن ترتيب معين للعلاقة بينه وبين « البيان » فقط . وهذا ماحصل فعلا .

في مدخل هذا القسم يقدم الجابري صورة مجملة عن « البرهان » الأرسطي منهجاً ورؤية ، مبرزا مايميزه عن كل من « البيان » و « العرفان » ، ومبرزا الاتجاه العام في الفكر الأرسطي . ثم يحدد مهمته في هذا القسم : (سيكون علينا أن نتبين كيف تمت تبيئة هذا النظام المعرفي « البرهاني » في الثقافة العربية التي كان لها نظامها الخاص ، مع بيان الكيفية التي تم بها ترتيب العلاقة بين النظامين من جهة ، كما سيكون علينا ، من جهة أخرى ، رصد التعديلات التي سيتعرض لها هذا النظام المعرفي البرهاني ، سواء على صعيد المنهج أو على صعيد الرؤية من خلال عملية التبيئة تلك) .

وينتهي في الفصل الأول إلى أن البرهان كمنهج قد انتهى به الأمر في الثقافة العربية الإسلامية إلى أن أصبح مع الغزالي مجرد آلية ذهنية شكلية يراد منها أن تحل محل آلية ذهنية شكلية أخرى هي آلية الاستدلال بالشاهد على الغائب ، مما أفقده وظيفته الأصلية التي أرادها له أرسطو ، وظيفة « التحليل » و « البرهان » .

وفي الفصل الثاني يبين الجابري من خلال قراءة مدهشة لـ « السينوية » أن البرهان كرؤية قد انتهى به الأمر مع ابن سينا إلى الانخراط في إشكاليات المتكلمين من جهة ، وتبني منتجات « العقل المستقيل » من جهة ثانية ، مما أفقد الرؤية البرهانية الأرسطية طابعها العقلاني « العلمي » .

(لقد تداخل هذا الموروث الأرسطي المفكك مع الخليط الهرمسي المقوم للعرفانيات الإسلامية ، مع الموروث البياني الذي كان قد توقف عن النمو بعد أن استنفد كل امكانياته . تداخلت هذه النظم المعرفية بعد أن انحلت ، فاختلطت المفاهيم ، واشتبكت المسائل ، وتصادمت الرؤى والاستشرافات داخل الثقافة العربية الإسلامية ، مما جعل الحاجة إلى إعادة التأسيس والبنية ضرورة ملحة) .

تفكك النظم :

إذا كان الغزالي يجسم لحظة الأزمة في الثقافة العربية الإسلامية ، فإن ابن رشد يجسم لحظة التجديد ، وإذا كانت لحظة الغزالي تجد نقطة بدئها في ابن سينا فإن لحظة ابن رشد تجد نقطة انطلاقتها في ابن حزم .

(وإذا كان البيان قد وجد مستقبله انطلاقا ، من لحظة الغزالي في « طريقة المتأخرين » التي نضجت مع

الرازي ، واتخذت قالبها النهائي المتكلس مع الايجي ، فإن الطموح إلى إعادة تأسيس البيان بصورة يتجاوز بها أزمته الداخلية قد ظهر قبل الغزالي مع ابن حزم ، ليبلغ قمته على مستوى أصول الدين مع ابن رشد وخطابه الجديد حول « مناهج الأدلة » وعلى مستوى أصول الفقه مع الشاطبي وخطابه الجديد ، كل الجدة ، حول « مقاصد الشريعة » كان هذا في المغرب والأندلس ، أما في المشرق العربي فقد ناضل من أجل إعادة تأسيس البيان تأسيسا سلفيا جديدا ، باستلهام ابن رشد خاصة ، الفقيه الحنبلي الشهير ابن تيمية) .

يعرض الجابري في الفصل الأول من هذا القسم صورة اجمالية عن عملية التداخل كما تمت في علم الكلام خاصة ، مشيرا إلى أن التداخل إنما حصل على ساحة البيان ، الساحة التي أصبحت منذ لحظة الغزالي تمثل « العقل العربي » الذي انتهى إلينا عبر « طريقة المتأخرين » وروافدها وامتداداتها ، والذي ظل منذ لحظة الغزالي ومازال مسرحا لصراع المقولات واختلاط المفاهيم .

ويبين أن انهيارا أصاب العقل والمعرفة نتيجة « طريقة المتأخرين » إذ تم النزول بالعلم الطبيعي الأرسطي إلى مستوى الفيزياء الكلامية ، وصارت كل فاعلية العقل أن يحفظ ويتذكر ، لا أن يفكر ويستدل .

وفي الفصل الثاني يتناول الجابري المشروع الثقافي الأندلسي ، مبرزا جوانب من تراثنا الفكري والاجتهادي ، مؤكدا أنها ماتبقى من تراثنا قابلا لأن ننتظم فيه في عملية التجديد والتحديث المطلوبة ، إنه يدعو إلى استعادة نقدية ابن حزم وعقلانية ابن رشد واصولية الشاطبي وتاريخية ابن خلدون .

وفي خاتمة عامة للكتاب بعنوان (من أجل « عصر تدوين » جديد) يحصر أهم سلطات المرجعية التراثية في ثلاث : سلطة اللفظ ، سلطة الأصل بقسميها (سلطة القياس وسلطة السلف) ، سلطة التجويز) .

ويؤكد أنه (بالانتظام الواعي في فكر ابن حزم والشاطبي من أجل ممارسة التجديد في تراثنا الفقهي ، وفي إطار معارك فكرية حادة ، ينفتح المجال لزعزعة ثلاث من السلطات التي تحكم العقل العربي لا شعوريا : سلطة اللفظ ، وسلطة السلف ، وسلطة القياس) .

أما سلطة التجويز فيلتمس سبيلا لزعزعتها لدى ابن رشد في الانطلاق من النظام والترتيب اللذين في العالم بوصفهما تجليات للحكمة والعناية الإلهيتين ودليلا عليهما ، وبالتالي دليلا على وجود الله ، ثم يضيف إلى ذلك مفهوم « طبائع العمران » الخلدوني .

إن الجابري الذي أوضح أن العقل العربي قد تكوّن أساسا من خلال التعامل مع النص ، يرى أن الشيء الذي يجب أن يكون موضوعا للفحص والنقد هو ذلك المسلك الذي سلكه الأقدمون في فهم النصوص ، و (شبكة الآثار التي خلفتها فينا سيرورتنا العامة الطويلة منذ « انبثاق » العقل العربي ، أي منذ « عصر التدوين ») . وهو يرى أن الحاجة تدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى تدشين « عصر تدوين » جديد ، تكون نقطة البداية فيه نقد السلاح ، نقد العقل العربي .□

□ أكثر الناس قلقا في السجن ، هو السجان .

(برنارد شو)

□ ما من شي يثير الشجاعة في الشعب العظيم كاستهدافه للمخاطر

(نابليون)



مكتبة العربي

مختارات

الكتاب : التطور العمراني في الكويت
المؤلف : د . ابراهيم ماجد الشاهين
الناشر : سلسلة دراسات في التخطيط والعمارة
عدد الصفحات : ١٢٣ قطع متوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

خلال سنوات التحضر الكبرى التي شهدتها الكويت تم تنفيذ كثير من المشروعات العمرانية الضخمة ، وقد تمت هذه المشروعات وفق القواعد والنظم الغربية . وللمؤلف وجهة نظر يعرضها في كتابه من خلال التركيز على هوية العمارة في الكويت ، وخصائصها وملاءمتها للبيئة ، وكيف أن الشكل المعماري لمدينة ما هو الا تعبير عن ظروفها وثقافتها الاجتماعية وظروفها الطبيعية . ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب ، الباب الأول يختص بوضع الأسس العامة ، والبحث عن جذور العمارة المحلية ، والباب الثاني يتضمن اقتراحا بتخطيط منطقة داخل المدينة القديمة وتصميمها ، وتطبيق الأسس المحلية للعمارة والتخطيط ، مع استخدام التقنية الحديثة ، وفي الباب الثالث الأخير اقتراح باتباع أسلوب جديد للتنمية العمرانية .

■ ■ ■

الكتاب : الفنان التشكيلي بدر جاسم القطامي .
الموزع : الربيعان للنشر والتوزيع
عدد الصفحات : ٥٠ صفحة قطع كبير
سنة النشر : ١٩٨٨

كتاب جديد من نوعه في المكتبة العربية ، يضم صورا « فوتوغرافية » لأعمال فنان تشكيلي ، ترصد تطوره ومراحل أعماله المختلفة . والفنان بدر القطامي من أهم الفنانين التشكيليين في الكويت ومنطقة الخليج العربي . وبادرة تقديم أعماله في كتاب تتيح له الانتشار بين قاعدة أكثر اتساعا من رواد معارضه ، وتتيح للقارىء العربي الرؤية والاستمتاع وهو جالس في مكتبته .

■ ■ ■

الكتاب : وحدة العرب في الشعر العربي
المؤلف : عبد اللطيف شرارة
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية ـ سلسلة الثقافة القومية
عدد الصفحات : ٤٥٦ قطع صغير
سنة النشر : ١٩٨٨

يقدم الكاتب في هذا الكتاب دراسة أدبية ، ونصوصاً شعرية للتدليل على وجود الشعور بالوحدة العربية في الثقافة العربية منذ أقدم العصور وتعاظمه ، وعلى الرغم من أن الثقافة تنمو مع الزمن وتتكون وتتكامل وتتطور وتضيف وتعدل حسب الظروف الطبيعية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية فإن الثقافة العربية ظلت تحتفظ داخلها بهذه النزعة الواضحة نحو وحدة العرب ، وقد كان الشعر أبا للفنون العربية ، وأحد أدوات التعبير عن الثقافة العربية ومضمونها ، ومن خلاله ووفق نصوصه كانت الوحدة هي الهم والهاجس والحلم والأمل والخلاص .

الكتاب : السياسة والحيلة عند العرب
تحقيق: رنيه خوام
الناشر : دار الساقي ــ لندن
عدد الصفحات : ٢٣٤ قطع متوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

هذا الكتاب إعادة نشر للمخطوطة العربية المجهولة المؤلف المسماة « رقائق الحلل في دقائق الحيل » ، وهي مخطوطة مكونة من ١٥٢ ورقة ، يعود استنساخها إلى عام ١٠٦١ هـ/١٦٥١ م ، وهي موجودة في المكتبة الوطنية بباريس . وقد قام المؤلف ـ المجهول ـ في مخطوطته بجمع طرائف الحيل ونوادرها ، وقد عكف على جمعها من بطون كتب معاصريه وسابقيه ، باذلا جهدا ضخما في القراءة والتجميع ، وقد قسم المؤلف كتابه إلى عدة أبواب ، اختص كل باب بحيل طائفة أو فئة من الناس ، بدءا من حيل الملائكة والجن ، وحيل الأنبياء والملوك والسلاطين ، والوزراء والقضاة والفقهاء والأطباء والنساء .

وقد بذل محقق الكتاب ـ رنيه خوام ـ جهدا واضحا في نقل المخطوطة ، ثم عنونتها ، ووضع العناوين المناسبة لها ، ومقارنة الحكايات على ما هو متاح من كتب .

■ ■ ■

الكتاب : الاثراء الثقافي للأطفال
المؤلف : د . كافية رمضان ، و د . فيولا الببلاوي
الناشر : سلسلة الدراسة العلمية لثقافة الطفل / مطابع حكومة الكويت .
عدد الصفحات : ٢٨٤ قطع متوسط .
سنة النشر : ١٩٨٧

هذا الكتاب إضافة مهمة في مجال تربية الطفل ، قامت بها المؤلفتان في محاولتهما لوضع استراتيجية لتنمية ثقافة الطفل في الخليج العربي . وقد تناول الكتاب في جزء منه الاطار النظري لمفهوم الاستراتيجية وأساسياتها ، وضرورة التكامل بين الاستراتيجيات المختلفة في القطاعات المتباينة في المجتمع ، ثم تعرض لمفهوم الاثراء الثقافي للطفل ومراكزه ووسائطه ، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن بناء استراتيجية تنمية ثقافة الطفل العربي ، بدءا من واقع ثقافته الحالي إلى مقومات بناء الاستراتيجية في أهدافها ومبادئها وخططها .

■ ■ ■

الكتاب : الأعمال الشعرية الكاملة لمحمد القيسي
المؤلف : محمد القيسي
الناشر : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت
عدد الصفحات : ٦٤٣
سنة النشر : ١٩٨٧ .

يضم الكتاب الأعمال الشعرية الكاملة لمحمد القيسي ، بدءا من ديوانه الأول « راية في الريح ١٩٦٨ » ، حتى « منازل في الأفق » الصادر في ١٩٨٥ . والقيسي واحد من الأصوات الشعرية الشديدة التمايز في وطننا العربي ، وعلامة جديدة بعد مرحلة رجال الحرس القديم وفرسان الساحة الإعلامية الآن ، وهو شاعر صاحب رؤية وموقف ، وله قاموسه الشعري الخاص به جدا ، وهو شاعر لم يكن الشعر بالنسبة له ترفا أو لعبا بالكلمات ، ولا وظيفة ونجومية ، لكنه كان همّا وأداة وحيدة في مواجهة مناخ القسوة والظلام وغياب العدالة .

أربعة

قال عثمان بن عفان : وجدت الخير مجموعا في أربعة : التحبب الى الله بالنوافل ، والصبر على أحكام الله ، والرضا بتقدير الله ، والحياء من نظر الله عز وجل .

العربي ـ العدد ٣٦٠ ـ نوفمبر ١٩٨٨ م

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٠
نوفمبر ١٩٨٨

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :
مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٠ » ، واخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ .

أرفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٠

جبل افرست في غنى عن التعريف ، ترى ماالاسم الذي يطلقه على هذا الجبل سكان المنطقة الواقعة على الحدود بين نيبال والتبت . علما بأن الاسم (افرست) هو الذي أطلقه عليه الانكليز ، واشتهر به الجبل خارج المنطقة ؟

أي الجبال التالية يحظى بأكبر عدد من المتسلقين سنويا ؟
* جبل فوجي (او فوجياما) في اليابان .
* كلمنجارو في تانزانيا
* جبل ماك كنلي في الاسكا .

ترى لو قسنا ارتفاع الجبال اعتبارا من مركز الكرة الأرضية ـ في باطن الارض ـ فأي جبال العالم يكون أعلاها ؟
* افرست * موناكيا * كمبرازو في الأنديز

ترى كم عدد الذين نجحوا في بلوغ قمة جبل افرست من جمهور المتسلقين الذين حاولوا بلوغها ؟ وكم عدد الذين فشلوا في بلوغها لأنهم ماتوا اثناء المحاولة ؟
* ١٣٠ متسلقا بلغوا القمة و(٥٠) متسلقا ماتوا .
* ٥٠ متسلقا بلغوا القمة و (٥٠)

متسلقا ماتوا .

* ١٥ متسلقا بلغوا القمة و (٢٥) متسلقا ماتوا .

اى الجبال التالية يمكن أن نسميه جبل الرجال أو الذكور المحظور صعوده على الإناث ، ولا يسمح بزيارته للنساء ولا حتى لإناث الحيوان .

* جبل اتوش في مقدونيا في اليونان .
* جبل اوليمبوس قرب اثينا في اليونان
* جبل ارارات في تركيا

من المعروف أن الجبال لاتتكون بين عشية وضحاها ، وإنها تحتاج الى ملايين السنين لكى تظهر فوق سطح الأرض على أن هذه القاعدة ليست بلا استثناء . فهناك صنف من الجبال لايحتاج لظهوره الى زمن طويل . وقد يتكون فجأة ويظهر بين عشية وضحاها . ترى أى صنف هذا ؟

* الجبال البركانية * الجبال الجليدية * الجبال المرجانية

أيها أكبر سنا أو أقدم عهدا . الجبال المرتفعة أم الجبال المنخفضة ؟

أى الجبال التالية يمكن أن نسميه جبل المراصد !

*** جبل موناكيا في هواى * جبل افرست * جبل الكنيسة**

من المسلم به أن حرارة الجو تنخفض في أعالي الجبال عما هي عليه على سفوحها ، ولو كنت من متسلقى الجبال لشعرت بانخفاضها أثناء صعود الجبل . ترى كم درجة تهبط حرارة الجو بالمتوسط في كل ١٠٠٠ متر من الارتفاع .

*** درجة مئوية واحدة * ٣ درجات مئوية * ٥ درجات مئوية**

لعلك لاتدرى أن لك أوزانا مختلفة لا وزنا واحدا ، فوزنك على مستوى سطح البحر يختلف عن وزنك على قمة جبل يقع في القطب الجنوبي ، ووزنك في هذين الموقعين يختلف كذلك عن وزنك على قمة جبل آخر يبلغ نفس الارتفاع ، ولكنه يقع على خط الاستواء ، ففى أى هذه المواقع الثلاثة يكون وزنك أكثر وفي أيها يكون أقل ؟

اى الجبلين التاليين اكثر ارتفاعا من الآخر جبل حرمون أم جبل الشيخ ؟

ماهو أعلى جبل في اوروبا .

* الجبل الأبيض في سلسلة جبال الالب .
* جبل البرور في جبال القفقاس

حلّ مسابقة العدد ٣٥٧ أغسطس ١٩٨٨

١ إنها جبال أطلس التى تقع في المملكة المغربية والجزائر وتونس ايضا . وهى تبلغ من الارتفاع فى أعلى قممها ١٣٦٦٤ قدما .

٢ الأوز ، ولطالما شاهدوه يطير ويحلق على قمم يزيد ارتفاعها على ٨٨٠٠ متر وذلك فى الهند وفى بلدة دهراداان على الأخص . أما النسور فقد وجدوها متجمدة على ارتفاع ٨٠٠٠ متر على سفوح جبل افرست الجنوبية .

٣ تبلغ الجبال الجليدية من الضخامة أكثر مما تبلغه جبال اليابسة . وقد بلغت مساحة أضخم جبل جليدى - وهو الذى اكتشفوه سنة ١٩٥٦ في جنوب المحيط الهادى - (٣١٠٠٠) كم٢ ، أي مايزيد على مساحة بلجيكا .

٤ سلسلة جبال همالايا تستأثر بأكثر القمم الشاهقة فى العالم ، تلك التى يتجاوز ارتفاعها ٢٤٠٠٠ قدم ، فمن مجموع ١٠٩ قمة فى العالم ككل تستأثر جبال همالايا ب ٩٦ قمة ، ولا عجب إن سميت هذه الجبال بهذا الإسم السنسكريتى المكون من لفظين (هِمْ) وتعنى الثلوج ، و(لا يا) وتعنى موطن ، اذن همالايا موطن الثلوج .

٥ يقع جبل افرست على الحدود بين التبت ونيبال ، وتجدر الإشارة إلى أنه سمى بهذا الاسم نسبة إلى السير جورج افرست (١٧٩٠ - ١٨٦٦) الانكليزي الذي شغل منصب كبير المساحين فى الهند .

٦ تبلغ أطوال سلاسل الجبال الثلاثة كالتالى ، سلسلة جبال الأنديز ٧٢٠٠كم ، وهى أطول سلاسل الجبال في العالم بلا نزاع ، وسلسلة جبال روكى ٦٠٠٠ كم ، وسلسلة جبال همالايا ٣٨٠٠ كم . على أن سلسلة همالايا هذه تتميز بارتفاعها وبكثرة القمم الشاهقة فيها وإن لم تتميز بطولها .

٧ تقع قمة آدم فى جزيرة سيلان على بعد نحو ٤٥ ميلا من كولمبو ، ويقع جبل آدم في جزر فوكلاند فى أقصى جنوب المحيط الهادى ، ويبلغ ارتفاع هذا الجبل ٢٣١٥ قدما . أى أقل من نحو ثلث ارتفاع قمة آدم البالغ ٧٣٦٠ قدما .

٨ أول رجل تسلق الجبال في التاريخ رجل فرنسى اسمه « انطوان دى فيل » كان ذلك سنة ١٤٩٢ وبأمر من الملك شارلز الثامن ، أما الجبل الذى تسلقه فكان جبل (ايجويل) الواقع قرب مدينة جريتوبل والبالغ ارتفاعه (٢٠٩٧) مترا .

وتجدر الاشارة إلى أن الجبل الأبيض أعلى جبال الالب قد تأخر تسلقه

حتى سنة ١٧٨٦، وقد قام بتسلقه عالم الجيولوجيا جاك بالمات والطبيب ميشيل بكارد في آن واحد معا .

٩ إنه جبل (ك٢ k 2) الذى قامت البعثة الأمريكية بقياسه في ربيع عام ١٩٨٧ ، فسميت بعثة ك٢ نسبة إليه ، ويعرف هذا الجبل باسم آخر هو شوجورى ، وقد سموه سابقا جولدن اوستن يقع فى باكستان ويبلغ ارتفاعه الذى جرى قياسه من قبل البعثة بأحدث الأجهزة وبالاعتماد على الأقمار الصناعية ما بين ٢٩٠٦٤ ـ ٢٩٢٢٨ قدما ، علما بأن ارتفاع افرست لا يزيد على ٢٩٠٢٩ قدما وذلك وفق آخر قياس له سنة ١٩٧٣

١٠ فى البلدان الجبلية يزيد عدد المسنين المعمرين على عددهم فى سائر البلدان الواقعة على السواحل أو فى السهول أو فى الوديان

١١ جبل سنجار ، وهو يقع على الحدود بين العراق وسوريا ، ويمتد من الغرب إلى الشرق ، ويبلغ ارتفاع أعلى قممه ١٤٦٠ مترا ، ويسكن هذا الجبل فيمن يسكنه ملة تولى الشيطان مزيدا من احترامها أو تقديسها ، هم لا يطيقون سماع أحد يلعن الشيطان وإذا اتفق وأن سمعوه تشاجروا معه أو ولوا الأدبار .

١٢ غناء الأطفال ، ناهيك عن صراخهم قد يتسبب بانهيارات ثلجية هائلة . ويعرف السويسريون ذلك حق المعرفة ، من ثم كان حظر الغناء والصراخ على أطفالهم وحرصهم على المحافظة على السكون ما أمكن .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٧ أغسطس ١٩٨٨

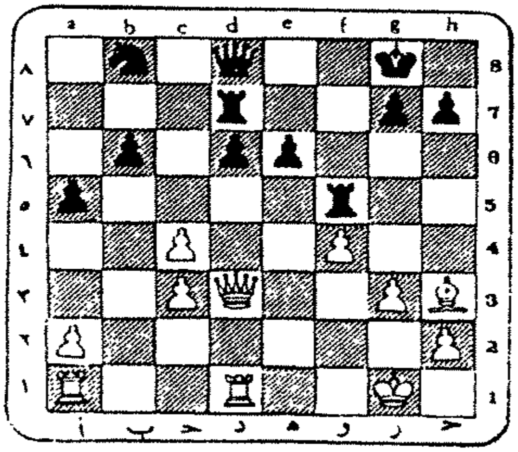
الجائزة الأولى : المنصف السالمي / القيروان / الجمهورية التونسية .
الجائزة الثانية : مازن أمين / كفر سوسة / دمشق / الجمهورية العربية السورية .
الجائزة الثالثة : محمد قاسم حودة البنا / المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ ـ آسيا علي سليمان / القاهرة / جمهورية مصر العربية .
٢ ـ رشا محمد عبدالرحمن مجذوب / الخرطوم / جمهورية السودان الديمقراطية .
٣ ـ مجد مروان جميل / مدرسة أم حبيبة المتوسطة للبنات / دولة الكويت .
٤ ـ نصيبة عبدالقادر صالح / إربد / المملكة الأردنية الهاشمية .
٥ ـ أحمد عارف القاني / بيروت / الجمهورية اللبنانية .
٦ ـ صالح صبري حمزة / واسط / الجمهورية العراقية .
٧ ـ أقلوس الشريي / حي البطحاء / الدار البيضاء / المملكة المغربية .
٨ ـ عبدالله خميس سالم الصبري / محلة الخطوة / سلطنة عمان .

معركة بلا سلاح





من المباريات الشطرنجية الكبرى التي اقيمت في العام الماضي دورة ليننغراد الدولية في الشطرنج والتي امتدت من الثاني والعشرين من شهر مايو إلى السابع من شهر يونيو . وقد أجريت الدورة التي شارك فيها ثلاثة عشر استاذا دوليا كبيرا وفق طريقة الدوري من جولة واحدة ، وصنّفت الدورة وفق لوائح الاتحاد الدولي للشطرنج في الفئة ١٤ ، مما يجعلها واحدة من أكبر مباريات العام المنصرم وأكثرها إثارة وتشويقا .

وقد حفلت هذه الدورة بالمفاجآت غير المتوقعة ، ولعل أغربها فوز اللاعب السوفييتي الكبير رافائيل فاجانيان بالمركز الأول على الرغم من مشاركة العديد من أبطال العالم الذين يتقدمون عليه في هذه الدورة ، ومنهم على سبيل المثال البطلان السوفيتيان اندريه سوكولوف وآرتور يوسوبوف اللذان يحتلان المركزين الثالث والرابع بعد بطل العالم الحالي جاري كاسباروف وبطل العالم الأسبق أناتولي كاربوف واللذان جاءت نتائجهما في هذه الدورة مخيبة لتوقعات جميع المعلقين والمحللين الحاضرين في المباراة ، إذ جاء أولهما في المرتبة السابعة بعد أن مني بثلاث هزائم متلاحقة ، وجاء ثانيهما الذي لم يحقق سوى انتصار واحد في الجولات الاثنى عشر التي لعبها في المرتبة الثامنة برصيد للأول قدره ست نقاط وللثاني قدره ٥ . ٥ نقطة فقط .

ويعتبر البطل رافائيل فاجانيان الفائز في هذه الدورة من أبرز اللاعبين السوفييت المعاصرين ، وهو من أصل أرمني ويحتل حاليًا المركز الأول بين اللاعبين الأرمن بعد وفاة بطل العالم الأسبق تيجران بتروسيان (١٩٦٣ ـ ١٩٦٩) . وقد حقق فاجانيان في هذه الدورة أربعة انتصارات وتعادل في ثمان من المباريات فاصبح رصيده ثمان نقاط .

والجدير بالذكر أن فاجانيان وكاربوف من مواليد نفس السنة وقد شاركه بطولة العالم للناشئين في عام ١٩٦٩ . واحتل المركز الأول بلا منازع في بطولة هاستنجز البريطانية في عام ١٩٨٣ بعد أن تفوق على أقرب منافسيه بنقطتين ونصف النقطة ، كما أنه احتل المرتبة الأولى كذلك في مباراة بييل بين المناطق عام ١٩٨٥ التي شارك فيها ١٨ من كبار أساتذة العالم الكبار .

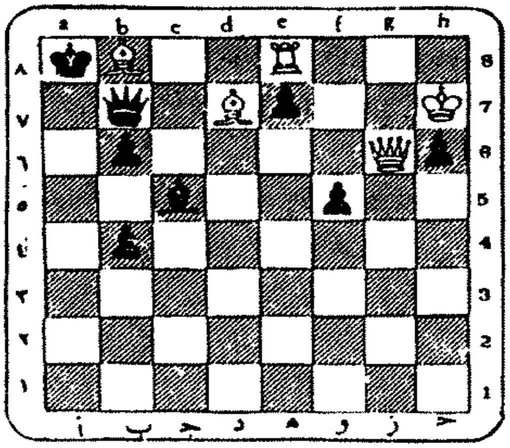
وقد لعب فاجانيان في مطلع عام ١٩٨٦ المباراة نصف النهائية للتأهيل لملاقاة بطل العالم أمام مواطنه اندريه سوكولوف (٢٧ سنة) ومني فيها بأربع هزائم متلاحقة مما يجعل من انتصاره الحالي على سوكولوف ردا لاعتباره بعد تلك الهزيمة النكراء . والدور التالي من الافتتاحية المعروفة باسم « هدجزهوج » بينه وبين البطل البريطاني « هوبنر » مثال على أسلوبه الهجومي المتميز :

□ ر . فاجانيان	■ ر . هوبنر
١ . ح ـ و ٣	ح ـ و ٦
٢ . جـ ٤	جـ ٥

٣ . ز ٣	ب ٦
٤ . ف ـ ز ٢	ف ـ ب ٧

تعرف النقلتان الأخيرتان بالفيانشيتو وتهدفان للسيطرة على الوسط عن بعد .

٥ . ت	هـ ٦
٦ . ح ـ جـ ٣	ف ـ هـ ٧
٧ . د ٤	جـ × د ٤
٨ . و × د ٤	د ٦
٩ . ف ـ ز ٥	أ ٦
١٠ . ف × و ٦	ف × و ٦
١١ . و ـ د ٣	ت
١٢ . ر و ـ د ١	ف ـ هـ ٧
١٣ . ح ـ ز ٥ ! (بديعة)	ف × ز ٥ (مضطرا)
١٤ . ف × ب ٧	ر ـ أ ٧
١٥ . ف ـ هـ ٤	و ٥
١٦ . ف ـ ز ٢	ر ـ د ٧
١٧ . و ٤	ف ـ و ٦
١٨ . هـ ٤	ف × ج ٣
١٩ . ب × ج ٣	أ ٥ (لماذا ؟)
٢٠ . هـ × و ٥	ر × و ٥ (خطأ فاحش)
٢١ . ف ـ جـ ٣	يستسلم (أنظر الشكل)



مسألة العدد رقم (٣٦٠) نوفمبر ٨٨

مات (٣)

مهداة من القاريء وانيس يعقوبيان (حلب)

حل مسألة عدد رقم ٣٥٨

سبتمبر ٨٨

١ . ح (أ) ـ ب ٦ + م ـ أ٧

٢ . ح ـ جـ ٨+ م ـ أ٨

٣ . ح (د) ـ ب٦ + م ـ ب٨

٤ . ف ـ د٦ + مات

الفـائـزون في حـل مسـابقـة الشطرنج العدد ٣٥٧ (أغسطس ١٩٨٨)

*** الفائزون باشتراك سنة كاملة :**

١ـ محمد فتحي الشرقاوى / شبين الكوم / ج م ع

٢ـ أحمد خالد الحسين / دمشق / سوريا

٣ـ عدنان سعيد الجبش / الخالدية / الكويت

٤ـ محمد علي صالح / الأنبار / العراق

٥ـ فينانة توفيق العبد / عمان / الاردن

*** الفائزون باشتراك ستة أشهر :**

١ـ ثامر منير / الشعيبة / الكويت

٢ـ فاطمة الكوش / فاس / المغرب

٣ـ محمد عبدالرحمن بن مالك / حضرموت / اليمن الديمقراطية

٤ـ رضوان بن جاعة / صفاقس / تونس

٥ـ محمد صالح حسن قوجقار / جدة / السعودية

حوار القراء

العربي ـ ص. ب : ٧٤٨ الصفاة ـ الرمز البريدي : 13008 الكويت

الموصلات الكهربائية

نشرت « العربي » في العدد ٣٥٣ (ابريل ١٩٨٨) مقالا للدكتور سعود عياش بعنوان « الموصّلات الكهربائية الفائقة تخرج من الصقيع » . وقد تلقينا رسالة من السيد (ايلاف عبدالكريم المصري) ضمّنها نص حديث اذاعي حول نفس الموضوع ، أذيع في أواخر عام ١٩٨٧ من اذاعة المانيا باللغة العربية من كولون (المانيا الاتحادية) وطرح السيد المصري الملاحظات التالية في رسالته :

(١) أنه بالمقارنة بين الحديث الاذاعي ومقال الدكتور عياش نجد إما تقاربا يكاد يكون حرفيا أو تباعدا رهيبا ، مما يحمل على الاعتقاد بأن يكون الدكتور عياش قد قام بالاقتباس من الحديث الاذاعي الألماني .

(٢) مدى دقة وصحة المعلومات الواردة في مقالة الدكتور عياش ، وبخاصة فيما يتعلق بتحقق ظاهرة الموصلية الفائقة على درجة ٢٤٠ كلفن (٣٣ درجة تحت الصفر المئوي) ، ويتساءل إن كانت مثل هذه القفزة الكبيرة قد حصلت حقا .

(٣) طلب نشر مقال حول العناصر نصف الناقلة (الاسم الشائع في معظم الأدبيات العلمية العربية والمعاجم هو أشباه الموصلات) المستخدمة في صناعة الأجهزة الالكترونية .

العربي

نشكركم على رسالتكم وما حوته من مشاعر طيبة ، ونشكر لكم جهودكم في استنساخ نص الحديث الاذاعي المشار اليه . وردا على ملاحظاتكم نذكر ما يلي :

(١) استلمت « العربي » مقال الدكتور عياش في أكتوبر ١٩٨٧ ، أي قبل شهرين أو أكثر من إذاعة الحديث العلمي في إذاعة المانيا ، وهذا لا يترك مجالا للاعتقاد أو الشك بأن يكون مقال الدكتور عياش قد تضمن مقتبسات من الحديث الاذاعي الذي تشير إليه . ومن الواضح أن مقال الدكتور عياش كتب قبل ظهور نتائج جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٨٧ التي منحت للباحثين مولر وبدنورز لجهودهما في مجال الموصلية الفائقة ، بينما كتب الحديث الاذاعي عقب الاعلان عن النتائج .

(٢) هناك دون شك عدد من الحقائق والمعلومات العلمية والتاريخية المتشابهة قد وردت في مقال الدكتور عياش والحديث الاذاعي ، والأمر هنا لا يتجاوز حدود أن الكاتبين قد استعانا بنفس الحقائق والمعلومات . وإذا أتيح لك الاطلاع على أي

على هذه الصفحات .. ترحب "العربي" بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات

من المقالات الأخرى المنشورة ذات الطابع التعريفي بهذه الظاهرة العلمية الجديدة فستجد نفس الحقائق والمعلومات تتكرر بصورة أو بأخرى .

(٣) أما فيما يتعلق بدقة وصحة المعلومات الخاصة بدرجة الحرارة التي تحققت عندها ظاهرة الموصلية الفائقة فقد ورد في مقال الدكتور عياش « ثم جاء التطور المثير في مارس ١٩٨٧ حين أعلن عن تطوير مادة تحتفظ بظاهرة الموصلية الفائقة حتى درجة ٩٤ كلفن ، ثم توالت أخبار الاكتشافات والتطورات المثيرة ، وجاءت أنباء غير مؤكدة عن تحقيق الظاهرة عند درجة ٢٤٠ كلفن ، أو ٣٣ تحت الصفر المئوي » . وعلى الرغم من أن أنباء تحقيق الظاهرة لم تكن قد تحققت إلا أن الأخبار التي توالت فيما بعد تعد أكثر إثارة . نحيلك هنا على تقريرين نشرا في نفس الدورية العلمية « سينتفيك اميركان » (تصدر المجلة مترجمة للعربية باسم « مجلة العلوم » عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي) ، ففي عدد أكتوبر ١٩٨٧ ورد في إحدى المراجعات العلمية في النسخة الانجليزية ما يشير إلى تحقيق بعض سمات الموصلية الفائقة في إحدى المواد المطورة عند ٣٢٥ درجة كلفن أو ٥٢ درجة مئويه فوق الصفر ، وفي فبراير ١٩٨٨ ورد في نفس المجلة أن بعض سمات الموصلية الفائقة قد اكتشفت في إحدى المواد عند ٥٠٠ درجة كلفن ، أو ٢٢٧ درجة مئوية .

(٤) نأمل أن نتمكن من تحقيق رغبتك في نشر مقال حول أشباه الموصلات في أحد الأعداد القادمة .

■ ■ ■

لماذا احتل نابليون مصر؟

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

في العدد / ٣٥٣ / ابريل ١٩٨٨ من مجلة العربي :

نفى الدكتور سعد مصلوح عند نقده كتاب « رسالة في الطريق الى ثقافتنا » للعلامة محمود محمد شاكر أن يكون لغزو نابليون لمصر أي علاقة بالكنيسة والصليبيين ، ورده إلى الصراع الدنيوى الجشع ،

يقول الدكتور مصلوح ص ٤٦ : « . . . ويستبين من ذلك أن نابليون لم يكن رسول الكنيسة والصليبيين إلى مصر بالأصالة ، ولكنه الصراع الدنيوي الجشع ، وأحلام التسلط والغزو ، وغطرسة المستعمر وغروره » .

ومعلوم أن نابليون بعد احتلاله مصر زحف إلى فلسطين لغزوها أيضا ، وحاصر

حوار القراء

مدينة عكا شهرين كاملين ، لكنه فشل في تحطيم أسوارها المنيعة ، ورد على أعقابه ينفض غبار الذل والانكسار عن جبينه .

وهذه الحقيقة ـ مع أهميتها ـ أهملها الدكتور مصلوح ، ولم يلتفت اليها البتة . ولعل السبب في تركها ظنّه بأن احتلال مصر ومحاولة احتلال فلسطين أمران لا علاقة لأحدهما بالآخر . ومهما يكن السبب فإنني أعتقد أن محاولة احتلال نابليون لفلسطين جزء من مؤامرة خطيرة حيكت خيوطها في فرنسا بين نابليون واليهود .

ولن نلقي القول جزافا بغير دليل ، بل سأنقل نصّ وعد نابليون لليهود الذي ألقاه في أثناء حصاره لمدينة عكا ، ولعله يؤيد ما نقول ، وهذا هو نص الوعد : (إنّ العناية الإلهية أرسلتني الى هنا على رأس جيشي هذا ، وقد حملت هذه العناية الالهية نشر العدل وتحقيقه مطلبي ، وتكفلت بظفري المستمر ، وجعلت من القدس مقري العام . وبعد قليل سوف تجعل مقري في دمشق ، وسوف أكون جارا لبلد داود)

يتبين لنا من هذا الوعد أنّ نابليون لم يأت إلى مصر لجشع وطمع دنيوي كما قال الدكتور مصلوح ، إنما جاء ـ لونجح ـ ليجعل مقرّه في دمشق ، وليكون مجاورا لبلد داود ، ومعيدا لمجد أجدادهم الذين كانت محالفتهم تشرف أسبرطة وروما !!

لكن العناية الالهية ردته خائبا ، وجعلت حلمه هشيما تذروه الرياح .

أحمد محمد الفاضل
معهد الفتح الاسلامي
دمشق ـ سوريا

■ ■ ■

استطلاعات عربية

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير ،

لولا ما ألمسه من رحابة صدر المجلة أمام ما يوجه اليها من ملاحظات فنية وغير فنية لما بعثت بهذه السطور ، فأنا واحد من قرائكم ، أعشق هذه المجلة وأتابعها بشغف ، ومن هذا المنطلق آمل تقبل اقتراحي . أو تصويب وجهة نظري فيه ، فأنا أتابع العربي منذ ثلاث سنوات ، واستطلاعات المجلة معظمها محلية وعالمية ، وقلما تهتم بالمدن العربية وعاداتها ، والأماكن الأثرية بها،ومعرفة القراء بالتطورات فيها .

القارىء : رابح كمال حمودة
دمياط ـ جمهورية مصر العربية

العربي

ـ نشكرك على رسالتك ، ونود أن نطمئنك بأن المجلة حريصة جدا على أن يتضمن كل عدد منها استطلاعا ينقل للقارىء الصورة الحقيقية عن قطر عربي شقيق . والتنويع في الاستطلاعات أيضا مهم حتى يعطي الجميع على اختلاف أذواقهم ومشاربهم بعض ما يحبون على الأقل .

"العربي" في العراق

وصلت للمجلة رسالة لطيفة من القاريء الدكتور فاضل حسن أحمد من قسم الهندسة المدنية بكلية الهندسة بجامعة صلاح الدين بأربيل بالجمهورية العراقية ، يتساءل عن سر اختفاء مجلة « العربي » بسرعة من المكتبات في أنحاء القطر ، ولكونها مجلته الأولى المفضلة يطالب بزيادة كمية المرسل منها إلى العراق . ونود الافادة بأن المجلة ستعود إلى ما كانت عليه وبالكمية التي تكفي لتكون بين يدي الجميع إن شاء الله في أقرب فرصة ممكنة . وهذا وعد من المجلة .

* * *

أعداد زائدة من "العربي" للأهداء

القاريء زين السيد علي الرفاعي من محافظة الدقهلية ـ مركز دكرنس ـ ميت مجاهد بجمهورية مصر العربية ، لديه مجموعة من أعداد العربي زائدة عن حاجته ، ويرغب في إهدائها لمن تنقصه هذه الأعداد ، وهي ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ .

ويمكن لمن يود الحصول على عدد منها أو أكثر مراسلة القاريء على عنوانه مباشرة . وشكرا للقاريء زين السيد علي الرفاعي .

* * *

اقتراحات

* القارىء محمد خفاجي ـ الوجه القبلي ـ محافظة قنا ـ فرشوط ـ جمهورية مصر العربية **يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن محافظات صعيد مصر ؛ مثل محافظة قنا ، وأسوان ، وسوهاج .**

* القارىء : عبدالحكم الجوبي من صنعاء بالجمهورية العربية اليمنية ،

يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن الجمهورية العربية اليمنية لتعريف القراء على النهضة الشاملة التي تشهدها اليمن في جميع المجالات ، وأن يتم تناول شخصية ، (محمد محمود الزبيدي) في باب (تاريخ وتراث وأشخاص) بصفته ثائرا عربيا قضى حياته في النضال والجهاد .

* القارىء : شاكر العمار ـ جامعة دمشق ـ سوريا .

يقترح فتح باب يسمح للقراء بطرح الأسئلة العلمية في المجلة في مختلف العلوم كالطب والعلوم والأدب وغير ذلك .

* * *

"العربي" في أفريقيا

إن ما يميز استطلاعات « العربي » اظهارها الوجه الآخر للمنطقة المعنية وإنصافها ، والكشف عن جمالها المدفون . وقد حدثني صديق فقال : إنه لم يكن يعلم عن كينيا شيئا سوى نيروبي ووحيد القرن ، حتى قرأ عنها في « العربي » . فقلت له : صبرا وسوف يأتي المزيد عن قارة أفريقيا السوداء . إن شاء الله .

القارىء : محمد ثاني عبدالكريم

الرياض ـ المملكة العربية السعودية

حوار القراء

ردود قصيرة

تصلنا بين فترة وأخرى رسائل من القراء الأعزاء، يطلبون تزويدهم بطوابع البريد التي تصل المجلة، ومنهم القارىء هشام علي الطوخي من محافظة كفر الشيخ ـ جمهورية مصر العربية، والقارىء الرايس عبدالرزاق من القنيطرة ـ بالمملكة المغربية.

ونحن نأسف لعدم تمكننا من تلبية رغبتهم نظرا للصعوبات الفنية في ذلك.

*** القارىء يسار علي شعبان ـ وادي العيون ـ حماة ـ سوريا، يطلب من المجلة نشر مقال عن ظاهرة الأطباق الطائرة أو الأجسام الطائرة المجهولة الهوية.**

*** القارىء أمين سلمان ـ بيروت ـ لبنان ـ يحمد الله أنه منذ بداية صدور « العربي » وهو مستمر على قراءتها، وأنه لاحظ تطور المجلة في الأعداد الأخيرة من حيث النوعية والأبواب الثابتة وغير الثابته: لكم جزيل الشكر.**

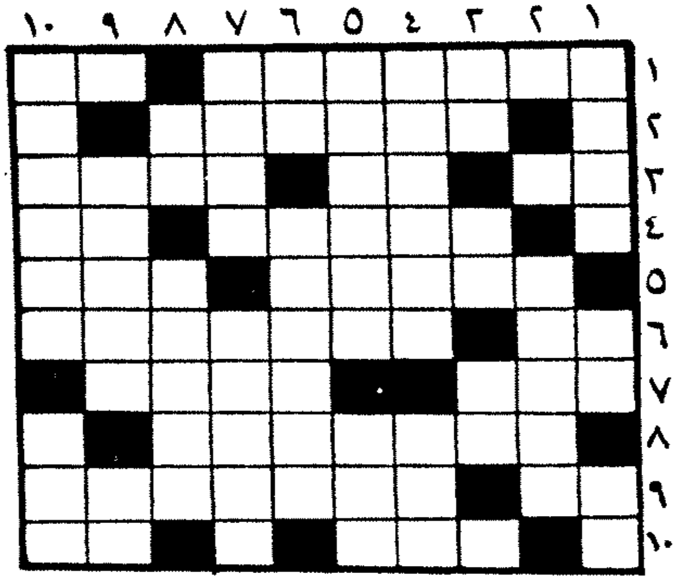
*** القارىء عامر أبو زيد ـ الخرطوم ـ السودان. يشكو من قلة الأعداد التي تصل إلى السودان، وأن السعر الذي تباع به غير السعر الموجود على المجلة، ونحن نقول: إننا نعمل الآن على زيادة كمية نسخ « العربي » التي ترسل إلى السودان، أما السعر الرسمي فهو الموجود على المجلة.**

نشكر القارئة عشرة سلطان محمد ـ شبرا ـ القاهرة ـ على اقتراحها، ونود الافادة بأننا نعمل به، ولكن في بعض الأحيان يتحتم نشر مثل هذه الرسائل.

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .



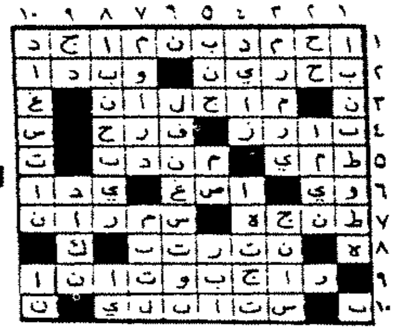
كلمات أفقية

١ . من أئمة النحو واللغة ، مسّ باليد .
٢ . غاز نادر خفيف تنفخ به المناطيد .
٣ . ثنّي ، كلمة تحدث صوتاً انفجاريا ، حيوان لبون تتخذ من جلده الفراء .
٤ . مخفيات ، ثار وهاج .
٥ . نقلة مزدوجة لإبعاد الملك عن الأخطار في لعبة الشطرنج ، جاهل بالقراءة والكتابة .
٦ . قائد قرطاجي اجتاز جبال الألب
٧ . شجر يكثر قرب الماء ، أمة في صيغة الجمع .
٨ . النور والضياء .
٩ . تاهَ ، الجبل تتصاعد منه الحمم .
١٠ . ملح يستخدم في الصباغ ، الاسم الأول لأديبة لبنانية مشهورة .

كلمات رأسية

١ . أبديّ أو خالد ، تجدها في شاع ، جمع .
٢ . صورة مصورة تصنع تشبيهاً لخلق الله .
٣ . كهل منقوصة، صرع أو قلب ، حرفان متشابهان .
٤ . أعلم النحويين وامام مذهب البصرة ، حرف تفتح به الأبجدية مكرر .
٥ . قبائل من الهنود الحمر استوطنت أمريكا الوسطى ، ندخل .
٦ . أعني ، وصف للتيار الكهربائي غير المتصل .
٧ . يتأكد ، يجادل وينازع .
٨ . من نعم الله التي كفر بها بنو اسرائيل ، أعلن موافقتي وتأييدي .
٩ . رَعاع الناس ، صلّى بالناس إماما .
١٠ . ماء عذب ، من الألوان الداكنة .

● حل مسابقة العدد الماضي - اكتوبر ١٩٨٨ م



عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

نوفمبر ١٩٨٨ م

مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام

تأليف
د. أحمد سليم السعيدان

٥٠٠ فلس

الكتاب ١٣١

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص. ب ٢٣٩٩٦ الكويت



يبدأ طفح الحصبة بالظهور خلف الأذنين ، ثم ينتشر الى الوجه



يتركز الطفح الجلدي الناشيء عن الحماق أو جديري الماء في الجذع

بطانة الفم ، وخير مكان لرؤيتها بوضوح هو بطانة الخد قرب الرحى العلوية الثانية .

ويعتقد أن هذه البقع تنشأ عن نخر أو تلف بعض خلايا بطانة الفم ، وتسمى « بقع كوبلك » نسبة إلى الطبيب الأمريكي « هنري كوبلك » « ١٨٥٨ - ١٩٢٧م » الذي وصفها وذكر أهميتها التشخيصية .

بعد ذلك يظهر الطفح الجلدي ، وأول ظهوره يكون خلف الأذنين ، ثم ينتشر في الوجه (صورة رقم ١) ، ثم ينتشر في الجذع خاصة الظهر . ويكون لون الطفح أحمر غامقا ، ويستمر نحو خمسة أيام ثم يزول . وفي العادة يزول المرض تلقائيا ، غير أنه في بعض الحالات يؤدي إلى ظهور مضاعفات كذات الرئة القصبية ، والخانوق « croup » ، والإسهال ، وفي حالات نادرة يؤدي إلى التهاب الدماغ .

ولا ضرورة لاستعمال المضادات الحيوية « لأن المرض ينشأ عن الحمات وهي كائنات لا تؤثر فيها المضادات الحيوية » ، وقد نلجأ إلى هذه المضادات عند ظهور مضاعفات جرثومية ، ويستعمل لهذا الغرض المضاد الحيوي « ارثرومايسين » . أما الوقاية فممكنة باستعمال اللقاح الذي يتكون من حمات الحصبة الحية المضعفة ، ويعطى جرعة واحدة تحت الجلد في مطلع السنة الثانية من عمر الطفل . ومن الجدير بالذكر أن الأطفال الذين يولدون لأمهات أصبن سابقا بالحصبة يكونون محصنين ضدها على

مدى ٦ ـ ٩ شهور بعد الولادة ، وذلك نتيجة لانتقال الأضداد « Antibodies » من الأم للطفل عبر السخد « placenta » .

الحصبة الألمانية

لم يكن هذا المرض يثير أى اهتمام لدى الأطباء حتى عام ١٩٤١ حينما اكتشف الدكتور « ن .م. غريغ N.M.Gregg » في استراليا ظاهرة مرعبة ؛ فلقد وجد أن اصابة النساء الحوامل بهذا المرض في الشهور الأربعة الأولى من الحمل تؤدي إلى ظهور مضاعفات خطيرة على الأطفال . ومن هذه المضاعفات ؛ العمى ، الصمم ، تشوهات القلب ، وغيرها . وقد يموت الجنين داخل الرحم أو يولد ميتا فيستريح ويستريح ، أما إذا أصيبت الحامل بعد الشهر الرابع من الحمل فليس هناك خطر داهم .

إن أعراض المرض تظهر بعد فترة حضانة تتراوح ما بين ٢ ـ ٣ أسابيع ، وتكون بهيئة التهاب في البلعوم وفي ملتحمة العين ، وتتضخم الغدد اللمفاوية في أسفل المنطقة القفوية من الرأس ، ولا وجود لبقع كوبلك . ثم يظهر الطفح الجلدي الذي يكون أفتح لونا من طفح الحصبة . ومن مضاعفات الحصبة الألمانية التهاب المفاصل وهو شائع لدى البالغين وأقل شيوعا لدى الأطفال ، وقد يستمر هذا الالتهاب فترة طويلة أكبر من فترة أعراض ومضاعفات المرض الأخرى ، وقد يعاود المصاب مرة اخرى بعد عدة شهور من الشفاء ، وأكثر المفاصل عرضة للالتهاب هى مفاصل اليدين والقدمين . إن بعض حالات الحصبة الالمانية لايرافقها ظهور طفح جلدى ، لهذا يجب أن نضع هذا المرض في الحسبان عند شكوى أى شخص ـ خاصة الاطفال والبالغين ـ من مفاصله دون سبب ظاهر ، ومن المضاعفات الأخرى النادرة قلة الصفيحات والتهاب الدماغ .

إن هذا المرض لايحتاج أى علاج إلا عند ظهور مضاعفات ، وإذا وجدت الحامل مصابة في وقت مبكر من الحمل وجب الاجهاض .

ولابد من التأكيد على أهمية وقاية النساء من هذا المرض ، وذلك باللقاح المكون من الحمات الحية المضعفة ، ويجب إعطاء هذا اللقاح لجميع الفتيات في عمر ١٢ ـ ١٣ عاما . إن الفترة الوقائية التى يمنحها اللقاح غير معروفة على وجه التحديد ، ولهذا يجب اعطاء اللقاح لكل امرأة لا تحمل أضداد المرض ـ حتى إن كانت قد اعطيت اللقاح سابقا ـ ، وذلك بعد الولادة شريطة ألا تحمل مرة أخرى إلا بعد أكثر من ثلاثة شهور من اعطاء اللقاح .

الحماق أو جديرى الماء

فترة الحضانة كفترة حضانة الحصبة الألمانية ، بعدها تظهر الأعراض بهيئة حمىً وألم في البلعوم والبطن ، ويكون ألم البطن في بعض الحالات شديدا يشبه الألم الناشىء عن التهاب الزائدة الدودية . بعد يوم واحد من هذه الأعراض يظهر الطفح الجلدى بهيئة بقع حمراء في وسطها حويصلات صغيرة تحوى سائلا كالماء « وقد يتقيح هذا السائل فيغدو عكرا » ، ثم يتحول الطفح إلى قشور بعد جفافه ، وفي العادة يكون الطفح مركزي الانتشار ، أي يظهر على الجذع أكثر من الأطراف « صورة رقم (٢) » إن الطفح يظهر على دفعات واحدة تلو الأخرى ، ولهذا ترى تختلف مراحله لدى المريض « البقع والحويصلات ، والقشور » .

ومن المعروف أن هذا المرض يكون شديدا حينما يصيب البالغين ، وقد يؤدى إلى بعض المضاعفات كغزو الجراثيم للطفح ، وذات الرئة . وفي حالات نادرة يؤدى إلى التهاب الدماغ فيؤثر بشكل خاص على « المخيخ » المسؤول عن توازن الجسم ، ولهذا

الذي يدوس الطعام ويدقّه ليخرج الحب منه ، وهو الدياس ، وقلبت الواو ياء لكسرة الدال . والدوائس : البقر العوامل في الدوس . يقال ألقوا الدوائس في بيدرهم ، والدوس شدة وطء الشيء بالأقدام حتى يتفتت كما يتفتت قصب السنابل ، فيصير تبناً ، ومن هذا يقال طريق مدروس أى كثر عليه الوطء بالأقدام ـ والخيل تدوس القتلى بحوافرها إذا وطئتهم .

يتضح من المعاني التي يدور حولها الفعل « داس » أنه أولى بأن يدخل لغة الكتابة ، ويشيع فيها كما هو شائع في لغة الحديث . ولا ينال شيوعه في لغة الحديث من فصاحته شيئا .

وهناك فعل آخر يؤدي المعنى نفسه : وهو الفعل : دعس . وقد جاء في معنى هذا الفعل : دَعَسَ : وَطَأَ وَطْأً شديدا . فالدعس : شدة الوطء ، ودعست الإبل الطريق تدعسه دعسا : وطئته وطأ شديدا . وطريق دَعْس ومدعاس ومدعوس : دعسته القوائم ووطئته وكثرت فيه الآثار . والمدعوس من الأرضين : الذي قد كثر به الناس ، ورعاه المال حتى أفسده ، وكثرت فيه آثاره . والمدعاس : الطريق الذي ليّنتهُ المارة . يقول الدكتور مصطفى جواد في « قل ولا تقل » : وإذا وطئت السيارة الإنسان وطأ شديدا قتلته أو كسرت بعض أعضائه فصار عَائِهاً : أي ذا عاهة .

ومما يضحك في استعمالهم « دهسه » بمعنى داسه ، ودعسه . أنه لو حسبنا أن « دهس » موجود وأنه متعد ، أو أنه موجود وعديناه بالهمزة وقلنا : « دهسته السيارة أو أدهسته إدهاساً » لكان ذلك بمعنى « لينته وأزالت خشونته » ، فانظر بعد ذلكَ كيف يكون تليين الإنسان وإزالة خشونته . فهل يحق بعد هذا لأولئك المتحذلقين اتهام اللغويين بالتحذلق وهم يعمدون إلى ما لا وجود لمعناه في لغة العرب ؟!

والأمر متصل ، والإساءة إلى اللغة العربية قائمة متجددة ، ومن الأمثلة القريبة العهد على ذلك محاولة البعض إشاعة كلمات أجنبية ـ عن جهل أو فساد ذوق ـ وإلحاقها بلغة الكتابة ، فضلا عن الرطن بها في لغة الحديث الثقيلة السمجة . ومن تلك الكلمات ـ وهي كثيرة ـ كلمة « كونفرنس » الأعجمية . فقد وردت في عنوان رئيس في إحدى الصحف ، ثم جاءت في سياق الحديث التفصيلي ، دون أن توضع بين هلالين ، بل دون أن يكون لاستعمالها ضرورة ملحة أو غير ملحة . قيل : « اجتمع الكونفرنس التاسع عشر للحزب . . . . . . » وقيل : « وفي جلسة أمس من جلسات الكونفرنس التاسع عشر . . . » !

وكلمة « كونفرنس » انجليزية تعني : مؤتمر أو اجتماع ، وكلا المعنيين يفيدان في اللفظين اللقاء الحاشد الذي يقصد به تدارس قضية أو قضايا عامة أو خاصة ، وهما كلمتان عربيتان فصيحتان ، يعرفهما كل العرب على اختلاف حظوظهم من التعليم . فما الذي جعل كاتب الخبر يشيح بوجهه عنهما ويعمد إلى كلمة أعجمية لا يعرف معناها عدد كبير من قراء جريدته ؟ هل هي الرغبة في التظاهر بمعرفة لغة أجنبية ؟ أم هو الداء العضال الذي أصاب بعض المثقفين أو أدعياء الثقافة ممن يرطنون بلغة لا هي عربية ولا هي أعجمية ؟□

الصحبة والأصحاب :

قيل لابراهيم بن أدهم : لم لا تصاحب الناس ؟ قال : « إن صاحبت من هو دوني آذاني بجهله ، وإن صاحبت من هو فوقي آذاني بكبريائه ، وإن صاحبت من هو مثلي آذاني بحسده » .

جمال العربية

□ صفحة شعر

□ هكذا غنى الآباء

مرحى غيلان

للشاعر بدر شاكر السياب

بدر شاكر السياب واحد من رواد الشعر العربي المعاصر ، خرج - وآخرون غيره - على عمود الشعر ، وهجر القصيدة التقليدية في جانب كبير من شعره، وشق لنفسه - متأثرا بالشعر الانجليزي - طريقا يتمثل فيما يعرف الآن بالشعر الحديث ، على اختلاف في تحديد المدى الذي توحي به هذه التسمية . على أننا نعني بها حركة الشعر الحر الذي خرج على شكل القصيدة العربية الموروثة ، في ثورة عارمة ،ما زالت أصداؤها تتردد منذ الأربعينات حتى يومنا هذا . أما السياب نفسه فيرجع إسهامه في تلك الثورة إلى عام ١٩٤٦ ، حين نظم قصيدة « هل كان حبا ؟ » ، حيث عُدّت واحدة من التجارب الرائدة في هذا المجال .

ولد السياب في عام ١٩٢٦ في قرية تدعى جيكور في جنوب العراق . وهي قرية كانت خاملة الذكر ، شأنها في ذلك شأن كثير من القرى المنسية في الريف العربي ، ولكنها بعد ولادة السياب ونبوغ شاعريته غدت من أكثر القرى العربية ذكرا في أوساط المثقفين بعامة ، وقراء شعر السياب بخاصة ، ذلك أنه اتخذ منها رمزا غنيا للريف مثقلا بالدلالات والإيحاء . لقد عانى بدر من حياة اليتم إثر وفاة والدته في عام ١٩٣٢ ، ولم يكن قد جاوز السادسة من عمره ، فعهدته جدته لأمه ، وقامت على تربيته .

دخل أكثر من مدرسة ابتدائية في جنوب العراق . وفي عام ١٩٣٨ التحق بمدرسة البصرة الثانوية . وكانت جدته هي التي ترعى شؤونه . وما أن فرغ من دراسته الثانوية في عام ١٩٤٣ حتى التحق بدار المعلمين العالية في بغداد ، وكانت كلية جامعية مرموقة في ذلك الوقت ، ولم تكن جامعة بغداد قد أسست . لم يبتعد السياب عن أحداث العراق المهمة التي عاصرها ، فقد قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني في عام ١٩٤١ ، فأيدها وتأثر برجالها ، وعندما أخفقت وأعدم عدد من قادتها رثاهم بدر . على أن دراسته في دار المعلمين العالية قد فتحت أمامه - وهو المحب للثقافة والمعرفة - آفاقا واسعة . التحق أول الأمر بقسم اللغة العربية وآدابها ، ثم ما لبث أن تحول عن دراسة الأدب العربي إلى دراسة الأدب الانجليزي ، وفي القسم الأخير عرف السياب الشاعرين الانجليزيين ت اس . اليوت ، وأديث سيتويل ، وقد قدر لهذين الشاعرين أن يتركا أثرا على شعر السياب لايستهان به .

لقد فصل السياب من دار المعلمين العالية في عام ١٩٤٦ بعد أن تزعم حركة إضراب في الكلية وقفت

من
المسرح
العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٠ أول نوفمبر ١٩٨٨

توراندوت

تأليف: فريدريك شيلر
ترجمة وتقديم: د. نبيلة ابراهيم
مراجعة: د. عزالدين إسماعيل


مجموعة واسعة ومتنوعة
من أفضل البرامج التعليمية
والادارية والترفيهية الممتعة
MSX CALC
al Alamiah
العالمية